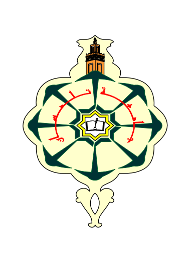
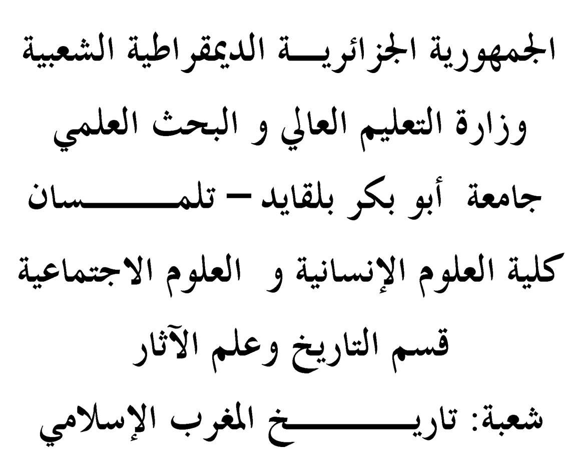




الجمهورية الجزائريــة الديمقراطية الشعبية

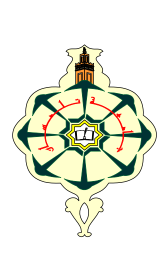
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة أبو بكر بلقايد – تلمـــــــــسان

كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية

قسم التاريخ وعلم الآثار

شعبة: تاريـــــــــخ المغرب الإسلامي



مذكرة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط

بعنـــوان:

الوجود المغربي بمنطقة السودان الغربي في القرنين9و 10هـ/ 15 و 16 م

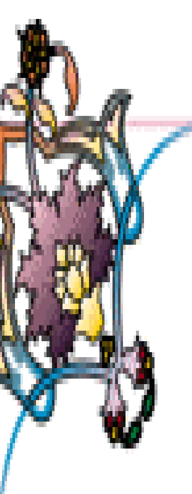
دراسة في الدوافع والنتائج.

إعداد الباحث

قدوري عبد الرحمن

لجنة المنـــــــــــاقشة

أ.د معروف بلحاج	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
أ.د بودواية مبخوت	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا ومقررًا
د. طاهر جبلي	أستاذ محاضر (ب)	جامعة تلمسان	عضوا
د. نصر الدين بن داود	أستاذ محاضر (ب)	جامعة تلمسان	عضوا

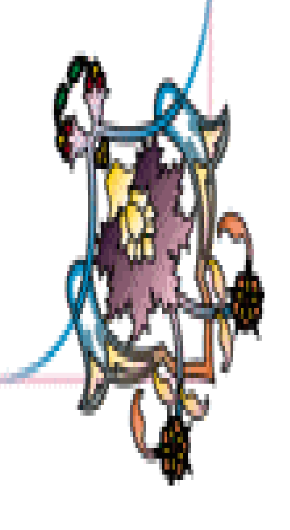


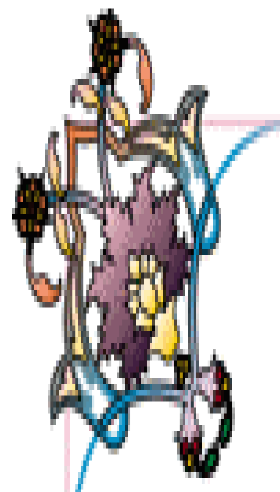


﴿ يا أيها الذين امنوا اتقوا الله و قولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم (70) ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما (71)﴾

صدق الله العظيم

سورة الأحزاب الآية 70-71



إهداء وتشكرات

إلى من جعل الله من نبض قلبها أول صوت يسمع

ومن دفء حضنها أول مأوى يسكن

إلى من جعل الله الجنة تحت أقدامها.. **أمي**

إلى من كان سببا في وجودي، إلى من حرم نفسه ليعطيني،

إلى من أتعب نفسه ليريحني، إلى من شجعني على طلب العلم ودفعني إليه .... **أبي**

إلى من لا تحلو الدنيا... إلا بوجودهم وقربهم.. **إخوتي**

إلى رفقاء دربي وعشرة عمري ....**حمودة، عثمان، عادل**

إلى من جمعني بهم القدر ... فأحببتهم وأحبوني.....................................**أصدقائي**

إلى جميع الأساتذة الكرام على اختلاف تخصصاتهم ورتبهم من الثانوية إلى الجامعة.

إلى جميع طلبة التاريخ بجامعات القاهرة، الإسكندرية، عين شمس، وجامعة تلمسان.

إلى هؤلاء جميعاً أهدي هذه الرسالة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(من لم يشكر الناس لم يشكر الله).

امتثالاً لهذا التوجيه النبوي الكريم، وبرغم شعوري بقصور كلماتي التي تعبر عن مكنون تقديري وودي واحترامي.

فإني أتقدم بعظيم الشكر وخالص التقدير إلى الأستاذ الفاضل **الدكتور: مبخوت بودواية** لتفضله بقبول الإشراف على الرسالة حيث أفاض علي بعلمه ووقته وجهده وتوجيهاته، فلا أملك إلا أن أسأل الله العلي القدير أن يطيل عمره ويمتعه بوافر الصحة والعافية، وأن يجعل ما قدمه لي في ميزان حسناته.

والشكر موصول للأساتذة الأفاضل:

الأستاذ الدكتور: معروف بلحاج رئيس قسم التاريخ والآثار لتفضله بقبول مناقشة هذه الرسالة، فجزاه الله عني خير الجزاء.، **الأستاذ الدكتور: جبلي الطاهر** و**الأستاذ الدكتور بن داود نصر الدين** لقبولهم الاشتراك في لجنة مناقشة رسالتي والحكم عليها، فلسيادتهما كل الشكر والتقدير.

كما أتقدم بالشكر إلى كل من قدم لي يد العون والمساعدة في أي مرحلة من مراحل هذا العمل ... جزآهم الله عني خير الجزاء.

الطالب: عبد الرحيم قدوري.


مقـــــدمة

شهدت مناطق السودان بصفة عامة، والسودان الغربي بشكل خاص، منذ إمتداد المراحل الأولى للتحرير الإسلامي لمناطق الشمال الإفريقي، تأثراً مباشراً في العديد من جوانب الحياة السياسية والإقتصادية والفكرية وغيرها، لدي أهالي السودان، حيث شكل عامل الإسلام الركيزة الأساسية في ظهور ووضوح هذه التأثيرات.

فمنذ أن وطئت أقدام المسلمين شمال القارة الإفريقية زاد الإتصال بين العرب المسلمين وأهالي السودان، وأخذت تعاليم الإسلام في الإنتشار، وهذا يفسر لنا عمق الإتصال المتبادل بين المنطقتين، الشمال الإفريقي من جهة وما وراء الصحراء من جهة أخرى، ولكن المتتبع لهذا التواصل يجد أنه شهد تطوراً ملحوظاً مع بداية القرن الثامن الهجري حتى القرن التاسع الهجري/ الرابع عشر إلى السادس عشر الميلادي. فالممالك الإسلامية التي إزدهرت في أقاليم السودان في تلك الفترة تظهر لنا الدرجة المتقدمة التي وصلت إليها المجتمعات السودانية، بالأخذ بما قدم لهم من تأثيرات من شمال القارة الإفريقية، حيث لعبت العناصر المغربية التي إستوطنت السودان وإندمجت في مجتمعاته بل وأصبحت من الصفوة، دوراً كبيراً في ذلك فكان منهم العلماء والفقهاء والتجار.

كما أن التطورات السياسية التي وقعت في شمال إفريقيا وخاصة ببلاد المغرب الأقصى في هذه الفترة قد ألقت بظلالها، وإمتدت تأثيراتها إلى بلاد السودان، حيث أن المغرب عرف خلال القرن السادس عشر ونهاية القرن الخامس عشر توغلا برتغاليا في أجزائه الساحلية ساعد على ذلك ضعف الدولة المركزية (الدولة الوطاسية)، حيث اتسمت الأوضاع إبان الحكم الوطاسي بالتجزئة والتدهور، بحيث لم يعد نفوذ الدولة يتجاوز القسم الشمالي بين وادي أم الربيع وطنجة، وضمنه أيضا ظلت مناطق متعددة تشكل كيانات مستقلة لا تعترف للحكم الوطاسي إلا بتبعية نسبية فقط، في هذه الأثناء بادرت القبائل في الجنوب والزوايا إلى مبايعة السعديين لمحاربة البرتغال وصدهم عن الإغارة على القبائل وبذلك قامت الحركة السعدية بقيادة القائم بأمر الله الذي قاد حركة المقاومة ضد الوجود البرتغالي في البلاد، وقد بلغت الدولة السعدية أوج ازدهارها في أواخر القرن 16م خاصة مع أبرز سلاطينها " أحمد المنصور الذهبي" الذي تمكن من توطيد ركائز الدولة وتوسيع البلاد شمالا وجنوبا.

ونظرا لصعوبة المرور مرة ثانية إلى الشمال (الأندلس) وإزدياد الخطر التركي من جهة الشرق (الجزائر) إرتكز تفكير المنصور في جهة الجنوب (السودان الغربي)، حيث فكر وقدر أن قواته لا تستطيع اختراق حاجز الأتراك في الشرق، ولا مصادمة الاسبانيين وراء المضيق، فلم يبق أمامه مجال

للعمل إلا من ناحية الجنوب، فأرسل حملة عسكرية قامت بغزو السودان الغربي، وتمكنت من إنهاء حكم الصنغاي وإسقاط دولتهم والسيطرة على تجارة الصحراء.

هذه الحملة التي أحدثت جدلاً كبيراً ما بين المؤرخين والباحثين حول ماهيتها، حيث اعتبرها بعضهم فتحا عظيما ومساهمة كبيرة من المغرب في نشر وتوطيد عرى الإسلام في هذه البلاد، فيما ذهب الطرف الآخر إلى إعتبار الحملة غزوة كان الهدف منها سلب الموال وسفك الدماء، وأنها كانت سببا في تدمير حضارات عظيمة نشأت في غرب إفريقيا أهمها ممالك صنغاي ومالي .

وعموماً فإن مختلف التطورات والتفاعلات بين ضفتي الصحراء، قد ساهمت في تغيير أقوام السودان، وصبغهم بالطابع العربي الإسلامي المميز، مما أكسبها أهمية تستحق الدراسة والبحث، إضافة إلى أن الكثير من الذين كتبوا عن تاريخ مناطق ما وراء الصحراء، في هذه الفترة التاريخية المتقدمة هم من العرب المسلمين ثم من الوطنيين السودانيين، وكانت اللغة العربية هي لغة التدوين والكتابة.

ولهذا فقد وقع إختياري لهذا الموضوع الموسوم بعنوان (**الوجود المغربي بمنطقة السودان الغربي في القرنين9و 10هـ/ 15 و 16 م، دراسة في الدوافع والنتائج).**

إتبع الباحث خلال الدراسة منهجاً تحليلياً ووصفياً لما تضمنته المصادر والمراجع التي تناول مؤلفوها العلاقات القائمة بين المنطقتين، محاولاً الإجابة عن الإشكالية الرئيسية للدراسة، وهي معرفة مدى تأثير العناصر المغربية ببلاد السودان الغربي في مختلف النواحي السياسية والإجتماعية والثقافية والإقتصادية خلال فترة الدراسة.

وتقوم هذه الدراسة على أربعة فصول ومقدمة وخاتمة، تضمن الفصل الأول التطور السياسي والحضاري لمنطقة السودان الغربي خلال القرنين 9و 10هـــ/15و16م، ويضم أربعة مباحث ، شمل الأول مفهوم بلاد السودان الغربي واطاره الجغرافي، وقد حاولنا فيه التركيز على الأهمية الجغرافية والإستراتيجية لموقع السودان الغربي، وذكره عند المؤرخين القدامى، وإبراز ثرواته وإمكانياته.

وتضمن المبحث الثاني التركيبة السكانية لبلاد السودان، بإعتبار أن العامل السكاني كان له بالغ الأثر في التفاعل بين الشمال والجنوب، بالنظر إلى مكانة القبيلة ودورها في مختلف جوانب الحياة آنذاك. كما أشار المبحث الثالث إلى إنتشار الاسلام ببلاد السودان الغربي، حيث كان لذلك الفضل الأكبر في إنتقال المؤثرات الحضارية بين الطرفين وتمتين العلاقة بينهما. وتعرضنا في الأخير إلى دراسة ممالك السودان الغربي التي كانت موجودة في فترة الدراسة، وهما مالي الاسلامية ومملكة صنغاي الاسلامية.

أما في الفصل الثاني فقد قمنا بدراسة الوجود السياسي والإجتماعي المغربي ببلاد السودان الغربي، والمقصود بالأول مختلف الروابط السياسية والدبلوماسية بين المغرب الأقصى والسودان الغربي خلال فترة الدراسة وصولاً إلى حملة المنصور الذهبي على السودان الغربي، ويقصد بالوجود الإجتماعي دور المغاربة في المجتمع السوداني تأثيراً وتأثراً.

وإهتم الفصل الثالث بدراسة مختلف الروابط والمبادلات التجارية والإقتصادية بين الشمال الإفريقي والسودان الغربي، موضحاً دور المغاربة في التجارة بنوعيها الداخلية والخارجية، وكذا تأثيرهم في الصناعة والزراعة .

أما الفصل الرابع فقد حمل عنوان الوجود الثقافي والفكري المغربي ببلاد السودان الغربي، معالجاً فيه دور المغاربة وتأثيرهم في الحياة الفكرية والثقافية في السودان الغربي، متضمناً مبحثين الأول بعنوان العلاقات الثقافية بين بلاد المغرب و السودان الغربي، والثاني بعنوان تأثير الوجود الثقافي المغربي على بلاد السودان الغربي.

لقد إعترضت هذه الدراسة صعوبات جمة، خاصة وأنها ترجع إلى فترة تاريخية متقدمة تعود إلى الفترة الأخيرة من العصور الوسطى ذات الطابع الإسلامي كما أن هذه الفترة الزمنية ترتب عنها ضياع العديد من المؤلفات التي تولي الموضوع أهمية، سواء كان ذلك بسبب البعد الزمني أو عوامل أخرى كالدمار الذي حدث بفعل الإستعمار الأوروبي للقارة الإفريقية، إضافة إلى ذلك تشتت المادة العلمية في العديد من المكتبات العربية والإفريقية، ولكن أمكن إلى حد ما التغلب على هذه الصعوبات أثناء إقامتي بالقاهرة حيث اطلعت على العديد من المصادر التي عنيت بالموضوع خاصة بالدار القومية للكتب والوثائق، ومعهد البحوث والدراسات الإفريقية بالقاهرة.

وإعتمدت في هذه الدراسة على العديد من المصادر العربية من مخطوطات ووثائق، ومصادر مطبوعة ومحققة، فمن المخطوطات مخطوط الجواهر الحسان في أخبار السودان أحمد بابير الأرواني، وهوأحد مؤرخي السودان، والذي مكننا من معرفة تاريخ أقاليم السودان، ومخطوط إزالة الريب والشك والتفريط في ذكر العلماء المؤمنين من أهل التكرور والصحراء وشنقيط لصاحبه أبو الأعراف أحمد، حيث يتناول ترجمة لعلماء السودان.

ومن المصادر المطبوعة كتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لإبن فضل الله العمري، والذي يحوي معلومات مهمة عن جوانب الحياة المختلفة للمنطقة كما يحدثنا عن رحلة منسا موسى إلى الحج، والتي تعد نتاجاً للتأثيرات الفكرية من الشمال الإفريقي في السودان الغربي. وكذلك كتاب (رحلة ابن

بطوطة) لإبن بطوطة والمعروفة بإسم (تحفة النظار في غرائب وعجائب الأسفار)، وتعد رحلته إلى بلاد السودان الغربي سنة 1352م، من أهم الرحلات، وسجلاً حافلاً بالملاحظات، أمدتنا بالكثير من المعلومات عن تأثيرات الشمال الإفريقي في أقاليم السودان الغربي، وكذلك كتاب (وصف إفريقيا) للحسن الوزان، الذي زار منطقة السودان في القرن السادس عشر الميلادي، حيث كان لمشاهداته أهمية كبرى أعطت صورة واضحة عن حواضر السودان الغربي وجوانب الحياة فيها، وكتاب (الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس) لابن أبي زرع، وكتاب (الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى) لأبي العباس الناصري.

ومن المصادر السودانية، نجد كتاب (تاريخ الفتاش في أخبار الجيوش وأكابر الناس) لصاحبه محمود كعت، وكتاب (تاريخ السودان) لعبدالرحمن السعدي، وتكتسب هذه المؤلفات وغيرها أهمية كبيرة بإعتبار كتابها من أهل السودان، وبالتالي فهم أكثر دقة ودراية بأحوال السودان من غيرهم من المؤرخين والباحثين الأجانب عن المنطقة.

أما المراجع فنذكر منها الكتب العربية المطبوعة والأجنبية والمعربة، مع ما إحتوته الرسائل والبحوث العلمية، فمن الكتب العربية نذكر (التاريخ السياسي والإقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء) للدكتور الهادي المبروك الدالي، وكتاب (تأثير الشمال الإفريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي)، للدكتور مسعود عمر محمد علي، وترجع أهمية هذين المرجعين في إعتماد مؤلفيهما على الكثير من المخطوطات والوثائق ذات العلاقة بالدراسة. ومن المراجع المعربة نذكر كتاب (تاريخ إفريقيا العام) الصادر عن منظمة اليونسكو، تحت إشراف نياني ج ت، وهوعبارة عن موسوعة ضخمة شاملة لتاريخ إفريقيا بما في ذلك السودان الغربي، وكتاب (أطلس التاريخ الإفريقي) لصاحبه ماكيفيدي كولين، والذي يعطي معلومات مهمة عن تاريخ المنطقة. أما المراجع الأجنبية فنذكر منها كتاب (تاريخ شمال إفريقيا) لصاحبه شارل أندري جوليان، وكتاب (التاريخ الإجتماعي لتنبكت) لإلياس سعد.

ومن الرسائل العلمية غير المنشورة نجد (العناصر المغربية في السودان الغربي) رسالة دكتوراه للباحثة عبلة محمد سلطان، و(الحياة العلمية والثقافية في بلاد السودان الغربي في عهد دولتي مالي وصنغي) رسالة ماجستير للباحث أحمد السيد الباز ، وقد أمدت الرسالتان الباحث بالعديد من المعلومات المتعلقة بالموضوع. وشكلت الدراسات والبحوث والدوريات أهمية في هذه الدراسة نظراً لما تقدمه من معلومات قيمة عن بلاد السودان الغربي وعلاقتها بالشمال الإفريقي، ومنها مجلة المؤرخ العربي ، و مجلة البحوث التاريخية التي يصدرها مركز جهاد الليبيين بليبيا، وإصدارات معهد البحوث والدراسات العربية.

هذه بعض أهم المصادر والمراجع التي أعطت أهمية في هذه الدراسة وأمكن الإشارة إليها، وهو ما لا ينقص من أهمية البقية، فهي أيضاً شكلت مادة أساسية ومهمة للبحث.

وفي الأخير.... فلقد شق علي هذا البحث بقدر ما شاقني، كما أني جهدت بقدر ما إجتهدت، فإذا كنت قد أصبت شيئاً من التوفيق فيما أقدمت بشأنه، فهذا فضل من الله ونعمة، أما ما شابه من نقص أوثغرات فهو مني وتبعاته تقع على عاتقي وحدي، وعذري في ذلك أنه ما من باحث يندب نفسه لدراسة قضية ما، ويكف الحديث عنها ذات يوم ردد ما قاله العماد الأصفهاني: "إني رأيت أنه لا يكتب أحد كتابا في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر..."، فالكمال لله وحده، وللمرء جهد المقال إن أخطأ بقي له شرف المحاولة، وإن أصاب كفاه أجر المجتهد.

وفي الختام لا يسعني إلا أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لأستاذي الفاضل الدكتور مبخوت بودواية الذي شرفني وأكرمني بالإشراف على هذه الدراسة حتى إظهارها إلى حيز الوجود.

كما أتقدم بالشكر لكل من عمال ومشرفي مكتبة الإسكندرية، ومكتبة جامعة القاهرة وكذا مكتبة معهد الدراسات الإفريقية بالقاهرة، ومكتبات جامعة تلمسان المركزية والخاصة بقسم التاريخ.

تلمسان يوم 06 أفريل 2011م/ 02 جمادى الأولى 1432هـ.

الباحث: عبد الرحمن قدوري.

الفصل الأول

التطور السياسي والحضاري لمنطقة السودان الغربي خلال ق 9و10هـ/15و16م

المبحث الأول: مفهوم بلاد السودان الغربي و اطاره الجغرافي:

أطلق بعض الكتاب اليونان و الرومان على منطقة السودان الغربي والأوسط مصطلح "نجريتا" نسبة لنهر النيجر، والذي أطلق عليه هذه التسمية لأول مرة هو المؤرخ الجغرافي الروماني "بلنيني "حوالي 115م ومعناها "نيل الأجناس السوداء"[1].

كانت كافة أراضي إفريقيا جنوب الصحراء بالنسبة للعرب تعرف ببلاد السودان، والآن أصبح هذا الإسم يقتصر على جمهورية السودان على ضفاف النيل، غير أن الإشارة إلى السودان الغربي في الأزمنة المبكرة، كانت تتعلق بالمنطقة التي تشغلها حالياً السنغال، ومالي، وفولتا العليا، والنيجر علاوة على أجزاء من موريتانيا وغينيا ونيجيريا.[2]

والعرب في العصور الوسطى هم أول من اطلق اسم بلاد السودان على الشعوب التي سكنت جنوب الصحراء[3]، وأصل التسمية مستوحى من لون البشرة التي يتميز بها سكان تلك المنطقة.[4]
و قد أطلق البكري كلمة السودان في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر ميلادي) على ذلك الجزء من غرب افريقيا الذي يمتد من المحيط الأطلسي غربا الى مشارف النوبة على النيل شرقا واعتبر مدينة سجلماسة[5] مدخلا الى بلاد السودان .

وقد ذكر القلقشندي أن بلاد السودان يحدها من الغرب البحر المحيط و من الجنوب الخراب مما يلي خط الاستواء، ومن الشرق بحر القلزم مما يقابل بلاد اليمن ، ومن الشمال براري تمتد ما بين مصر وبرقة و بلاد العرب المغاربة من جنوبي المغرب الى البحر المحيط .[6]
أما ابن حوقل فقد حدد المنطقة بقوله "وأما جنوبي الأرض من بلاد السودان، فان بلادهم في أقصى المغرب على البحر المحيط بلد ملتف ...غير أن له حداً ينتهي الى البحر المتوسط و حدٌ له ينتهي الى برية بينه وبين أرض المغرب، و حداً له الى برية بينه وبين مصر على ظهر الواحات.[7]

---

[1]-ابراهيم علي طرخان، **الاسلام واللغة العربية في السودان الغربي والأوسط**، القاهرة: الهيئة العامة للتأليف واالنشر 1969، ص 52.
[2] - وولتر رودني، **أوروبا والتخلف في إفريقيا**. ترجمة أحمد القصير، الكويت: سلسلة عالم المعرفة ، 1998. ص 73.
[3]-الهادي مبروك ، **التاريخ السياسي و الاقتصادي لافريقيا** ، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية ، 1999. ص 17.
[4] - جاسم ظاهر، **إفريقيا ماوراء الصحراء**، القاهرة: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ص 34.
[5] - بنيت هذه المدينة سنة 140ه و هي مدينة سهلية أرضها سبخة وحولها أرباض كثيرة وهي في أول الصحراء و لا في غربها و لا في جنوبها عمران. أبي عبيدالله البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ب ت ن، ص 148.
[6]- القلقشندي ، **صبح الأعشى في صناعة الانشا**، ج 5، دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1983. ص 275.
[7]- ابن حوقل ، **صورة الأرض.** ص 24.

كما ذكر القزويني أن "بلاد السودان هي بلاد كثيرة وأرض واسعة ينتهي شمالها الى أرض البربر [1] وجنوبها الى البراري و شرقها الى الحبشة و غربها الى البحر المحيط، أرضها محترقة لتأثير الشمس فيها والحرارة بها شديدة جداً، وأهلها عراة لا يلبسون من شدة الحر منهم مسلمون ومنهم كفار". [2]

وقد ذكر الادريسي صاحب نزهة المشتاق أن"أكثر هذه الأرض صحار متصلة غير عامرة وجهات وحشة وجبال حرش جرد لا نبات فيها و الماء بها قليل جداً لا يوجد إلا في أصل جبل أو في ما اطمأن من سياخها، وأهل تلك الأرض يدلون في أكنافها وطرقاتها ويتجولون في ساحاتها ووهادها وجبالها"[3].

وعموماً تقع منطقة غرب إفريقيا جغرافياً بين الصحراء الكبرى شمالاً وخط الاستواء جنوباً وبين المحيط الأطلسي غرباً إلى مرتفعات الحبشة ووادي النيل شرقاً، وتتشكل جغرافيا من منطقتين أساسيتين: السافانا، ومنطقة حزام الغابات و ساحل غينيا [4].

تقع منطقة السافانا بين الصحراء الكبرى وحدود الغابات المطيرة التي تلف خليج غينيا،وهي عبارة عن هضبة بركانية ترتفع بين 300م و 450م بطول 4500كم وعرض 1100كم،كلما ارتفعنا شمالا خفت الخضرة والسهول العشبية وكلما نزلنا جنوبا كان العكس، وكثرت الأمطار و ارتفعت درجة الحرارة وتضم منخفضات وأحواض نهر السنغال وغامبيا والنيجر وبحيرة التشاد، وتصلح أراضي السافانا للزراعة في المناطق المطيرة و تكثر تربية الحيوانات كلما اتجهنا شمالا، وكان يطلق على هذه المنطقة في السابق" السودان" أو"بلاد السودان"[5] و تضم :

– السودان الغربي و تعيش فيه شعوب زنجية و حامية، ويشمل المناطق الواقعة بين حوض نهر السنغال والحوض الأوسط لنهر النيجر والمجرى الأعلى لنهر فولتا، وهذه المنطقة هي منطقة الدراسة وقد عرفت أيضا باسم الحوض و الساحل [6].

– السودان الأوسط ويشمل المناطق المحيطة ببحيرة تشاد، بين خطي عرض °22 شمالا و °10جنوبا، وبين خطي طول °10شرقاً و15°غرباً.[7]

---

[2]- أطلق الإغريق هذا الإسم على سكان الشمال الافريقي، وهو لفظ يطلق بصفة عامة على الشعوب الناطقة بغير اللغة الاغريقية، مثلما اطلق العرب على الفرس و غيرهم اسم "عجم" للمزيد انظر:عبدالرحمن محمد الجيلالي،**تاريخ الجزائر**، بيروت 1965. ص48.

[2]- زكريا بن محمد القزويني ، **آثار البلاد و اخبار العبد**، مكتبة مشكاة، ب ت م ن، ص29.[2]

[3]- الادريسي ، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مطبعة لندن 1863. ص 33.

[4]- عدنان مراد ، **المجتمعات الافريقية اصولها و تاريخهه** ص 108.

[5]- الحسن الوزان ، **وصف افريقيا**، ترجمة عبدالرحمن حميدة، المملكة السعودية: جامعة محمد بن سعود الإسلامية ،1979. ص 27.

[6]- عدنان مراد ، مرجع سابق ص 109.

[7]- مجموعة من الأساتذة، **أطلس العالم** ، بيروت: مكتبة لبنان ، بدون تاريخ ص 37.

– السودان الشرقي و تعيش فيه شعوب زنجية و اخرى عربية و مستعربة و حامية [1]، ويمتد من البحر الأحمر شرقاً حتى حدود إقليم دارفور غرباً ويضم الحوض الأعلى والأوسط لنهر النيل[2].

إن موقع السودان الغربي يتميز بمميزات إيجابية جعلت منه منطقة جذب للهجرات من مختلف الجهات المحيطة به، ومن هذه المميزات موقعه في منطقة غزيرة الأمطار نسبياً، وتجري بها بعض الأنهار مثل نهر السنغال ونهر النيجر ونهر غامبيا ونهر فولتا .[3]

أما عن مجتمعات السودان فقد ذكر ابن خلدون أنهم" شعوب وقبائل أشهرهم بالمشرق الزنج [4] والنوبة، يليهم الزغاوة ويليهم الكانم، ويليهم من غربهم كوكو وبعدهم التكرور [5] ويتصلون بالبحر المحيط الى غانية" [6] .

وشعوب المنطقة تنتمي الى المجموعة الزنجية الأصيلة (الزنوج الأقماح)[7] والى الشعوب الحامية الشمالية [8]، وقد ذكر المسعودي في مروج الذهب " أنه لما تفرق ولد نوح في الأرض سار ولد كوش كوش بن كنعان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر، ثم افترقوا فسارت منهم طائفة ميمنة بين المشرق و المغرب و هم النوبة و البجة و الزنج، و سار فريق منهم نحو المغرب و هم أنواع كثيرة نحو الزغاوة و الكانم ومركه وكوكو و غانة و غير ذلك من أنواع السودان "[9] ، وتضم المجموعة الزنجية الأصلية شعوب المنطقة الساحلية من الولوف و السيريرو التكرور ثم مجموعة الماند الكبيرة أما الشعوب الحامية فتتألف من مجموعة شعوب الفولاني و هناك اختلاف كبير حول نسب الهوسا .[10]

أما بقية شعوب السودان الغربي فقد ذكر ابن خلدون أن" أولهم مما يلي المحيط أمة "صوصو" وكانوا مستولين على غانة ودخلوا في الاسلام أيام الفتح، وأهل غانة منكرون ان يكون عليهم ملك لأحد غير "صوصو"، ثم يليهم أمة مالي من شرقهم ، ثم من بعدهم شرقا عنهم امة "كوكو" ثم التكرور بعدهم، وفيما بينهم وبين النوبة أمة "كانم" وغيرها "[11]. وتحولت الأحوال باستمرار العصور

---

[1]- المرجع نفسه ، نفس الصفحة.

[2]- محمد بن عمرالتونسي، **تشحيذ الأذهان بسيرة العرب والسودان** تحقيق خليل عساكر ومصطفى مسعد، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1965. صفحات متفرقة.

[3]- اسماعيل ياغي ، محمود شاكر. **تاريخ العالم الاسلامي** الجزء الثاني قارة افريقيا . الرياض: دار المريخ للنشر 1993.ص 191.

[6]- ان كلمة زنجي لا يمكن تحديدها و هي في الأصل كلمة فارسية معناها أسود ، وكان العرب يطلقونها على كل السود الذين يعيشون في شرق افريقيا و منها كلمة زنجبار أي أرض الزنج، وكلمة نيجر معناها أسود باللغة اللاتنية ، و الاعتقاد السائد هو ان الزنوج وجدوا في غرب افريقيا منذ اكثر من 4 آلاف عام .

[7]- بلاد التكرور مدينة في بلاد السودان عظيمة و مشهورة ذكر القزويني في اثار البلاد نقلا عن الفقيه علي الجنحاني المغربي قوله " شاهدتها و هي مدينة عظيمة لا سور لها وأهلها مسلمون و كفار و الملك فيها للمسلمين و أهلها عراة رجالهم و نساؤهم إلا أشراف المسلمين "و البعض يستخدم هذا اللفظ ويعني به بلاد السودان الغربي عامة. أنظر القلقشندي، مرجع سابق، ص 283..

[6]- ابن خلدون ، **العبر وديوان المبتدأ والخبر،** بيروت : مؤسسة جمال للطباعة والنشر، 1979. ج 5 ص 234.

[7] - تضم هذه المجموعة السلالات السودانية و الغينية ، و تنتشر في غرب افريقيا شمال خط الاستواء .

[8]- عدنان مراد ، المجتمعات الافريقية . ص 111.

[9]- المسعودي ، **مروج الذهب و معادن الجوهر،** الجزء الأول ، ص168

[10]- عدنان مراد ، مرجع سابق ص 112.

[11]- ابن خلدون ، ديوان العبر ج 5 ص 236.

فاستولى أهل مالي على ما وراءهم من بلاد صوصو وكوكو وآخر ما استولوا عليه بلاد التكرور، وأصبحت مدينتهم جني حاضرة بلاد السودان بالمغرب ودخلوا في دين الاسلام منذ حين من السنين ، وحج جماعة من ملوكهم وأول من حج منهم برمندار".[1]

وتتميز الشعوب الزنجية بقوة الأجسام والأكتاف العريضة والسواعد المفتولة الطويلة وقصر الأطراف السفلية والأنف العريض المسطح والشفاه الغليظة وغالبا ما تكون مقلوبة أما شعر الرأس فهو كثيف، ولون الجلد أسود لامع والطول وسطي (160-170سم) . ويتميز سكان المناطق الحارة الرطبة بوجود عدد كبير من الغدد التي تساعد على تبخر الماء من الجسم وتعتبر منطقة غرب افريقيا مهد الشعوب الزنجية ويطلق عليهم في بعض الأحيان سود المروج الخصبة .[2]

ذكر القزويني أن " الزنج خصصوا بأمور عشرة : سواد اللون وفلفلة الشعر وفطس الأنف وغلظ الشفة وتشقق اليد والكعب ونتن الرائحة وكثرة الطرب وقلة العقل وأكل بعضهم بعضاً فإنهم في حروبهم يأكلون لحم العدو ومن ظفر بعدو له أكله"[3].

وقد توفرت بلاد السودان على ثروة حيوانية كبيرة ، ومن أهمها البقر والفيلة والزرافة والأسود والغزلان والماعز الوحشي، وغيرها. كما حوت بلاد السودان على كمية كبيرة من الأسماك شكلت جزءاً مهما من مكونات الغذاء في تلك المنطقة [4].

وقد تفرَدت بلاد السودان بثروتها المعدنية، وكان الذهب من أبرز الثروات التي تمتعت بها، بل كانت سبب شهرتها الأسطورية منذ القدم وقد سميت بأرض الذهب [5]. وكان الذهب يستخرج من مناجم "ونقارة" في الجنوب وقد كانت هذه المنطقة كما ذكرت المصادر التاريخية هي المصدر الرئيسي لتموين العالم بالذهب لفترة طويلة، وكان لهذا الذهب اليد الطولى في بناء قوة غانا وقيام امبراطورية مالي [6].
ومن الثروات المعدنية التي كانت متوفرة في السودان الغربي بعد الذهب، يأتي النحاس الذي كان

---

[1]- نفسه ص 237.
[2] - عدنان مراد ، مرجع سابق ص 109.
[3] - زكريا بن محمد القزويني ، مصدر سابق ص 30.
[4] - الهادي الدالي ، التاريخ السياسي والاقتصادي لافريقيا، ص 280.
[5]- المرجع نفسه ، ص 267.
[6] - المرجع نفسه ص 281 ،

يستخرج من "تكدا"، وكان يستخدم في الصناعات الحربية وأدوات الزينة وصناعة الأواني وغيرها، وكذلك الحديد الذي يدخل في صناعة الأسلحة والمعدات الزراعية وغيرها [1].

و استطاعت بلاد السودان أن تغتني من تجارة الذهب و الملح بالدرجة الأولى، مما خول لها شهرة طبقت الآفاق، الشيء الذي جعل الرحالة العرب يتجهون إليها ليشاهدوا ويعاينوا ما يحكيه التجار وليسجلوا في كتاباتهم وشهاداتهم، ما اعتمده الأوربيون في معرفتهم لذلك العالم المجهول عنهم حتى القرن 19م.[2] وبلغت شهرة السودان مستوى عالي إلى درجة أن الخرائط الأوربية صورت ممالك ذهبية وسط الصحراء.

وجعلها هذا الغنى محط أطماع الطامعين سواء المحليين أو الأوربيين أو سكان شمالي الصحراء وتبلور هذا في نشأة عدة ممالك سودانية أشهرها غانة ومالي وفي مجيء الأوربيين لكي يصلوا إلى مصادر الذهب وكذلك في تغير العلاقات بين المغرب والسودان، بعد سعي السعديين للسيطرة على هذا الغنى، ضاربين بذلك هدوء العلاقات التجارية والثقافية والسياسية الودية، التي كانت بين المنطقين.

المبحث الثاني: التركيبة السكانية لمنطقة السودان:

تتكون التركيبة السكانية للسودان الغربي من عدة قبائل وأجناس ترجع في أصولها الأولى، إما الى أصول زنجية أو أصول حامية أو أصول سامية، وقد وصلت إلى هذه المنطقة عن طريق هجرات متعددة نتيجة للظروف الطبيعية والمناخية فاستقرت بهذه المناطق واندمجت بالمصاهرة و الحماية القبلية في بعض الأحيان .[3] وبمرور الزمن تغيرت الملامح الرئيسية لهذه الأجناس حتى إننا في الوقت الحالي لا نستطيع أن نميز بعضها عن بعض أو أن نرجعها إلى أصولها الأولى ، ولا يمكننا الحصول على مجموعات مازالت محتفظة بخصائصها أو مميزاتها ونقائها الجنسي .[4] ونورد هنا أهم هذه القبائل القاطنة بمنطقة السودان الغربي: القبائل العربية ، القبائل التارقية (الطوارق)، قبائل السوننك ، قبائل الفلانة، قبائل البمبارة، قبائل التكرور، قبائل الولوف، قبائل الموشي، قبائل السنغاي.

---

[1]- المرجع نفسه ، ص 284.
[2]- وكان أبرزهم ابن بطوطة و الحسن الوزان المعروف بليو الافريقي .
[3]- محمد عوض محمد ، **الشعوب والسلالات الإفريقية** ، القاهرة 1966، ص 232.
[4]- المرجع نفسه ، ص 233.

أ– القبائل العربية : إن الصحراء لم تشكل أمام القبائل العربية أي مشكلة في عبورها نظراً لأن طبيعة بلادهم صحراوية وهم متعودون على إجتيازها[1]، ولهذا فإنهم وصلوا إلى السودان الغربي عن طريق هجرات قادمة من الشمال الإفريقي بعد إجتيازهم للصحراء الكبرى، حيث دخلوا مدن الزنوج وتعاملوا مع اهلها بالتجارة والمصاهرة. وبانتشار الاسلام في مناطق السودان الغربي زاد عدد القبائل العربية نتيجة لإختلاطها مع السكان الأصليين، وإستقرارهم بهذه المناطق أكسبهم صفات جديدة، وقد ذكر البكري أقواماً منهم تسمى "بالهينيهين" قائلاً: ببلاد غانا قوم يسمون بالهينيهين من ذرية الجيش الذي كان بنو امية قد أنفذوه في صدر الإسلام، ...هم على دين أهل غانا إلا انهم لا ينكحون في السودان و لا ينكحونهم فهم بيض الألوان حسان الوجوه "[2] .

كما أن جماعة من العرب الحسانية غزوا جنوب مراكش وتقدموا نحو الجنوب حتى استقروا على ضفاف نهر السنغال [3]. وتفتخر العديد من القبائل السودانية بنسبها العربي، والقبائل العربية اليوم موزعة بين السنغال و مالي و النيجر ، ناهيك عن القبائل التي انصهرت في بقية المجتمع في انحاء السودان الغربي، ومن أهم هذه القبائل "تبرازة– بركنة– أولاء دليم– الرقيبات– المشطوف– جرجنكة– الكونتة– البرابيش– الانصار– أولاد سليمان– اهل أروان– أولاد أعيش– الفولانيين– أهل تاروديني– السكاكنة– أولاد غلان– أفوغاس الحساونة– أولاد يعقوب وغيرهم".[4]

2– قبائل الطوارق : اختلف المؤرخون في تسمية الطوارق بهذا الاسم فمنهم من يقول: إنهم سموا بالطوارق نسبة الى طارق بن زياد، ومنهم من يرى أن التسمية جاءت لطرقهم الصحراء و توغلهم فيها، وهناك من يرى أن التسمية أطلقتها عليهم الشعوب المجاورة لهم نظراً لكثرة ارتيادهم الصحراء.[5]

ولقد اختلف المؤرخون في نسب الطوارق [6] والرجوع بأصولهم فمنهم من يرى أنهم ينتسبون إلى صنهاجة، والصنهاجيون يرجعون نسبهم إلى حميـــر، وقبائلهم كثيرة أشهرها لمتونة، جدالة ومسوفة، [7] وهم متوزعون في الصحراء لا يستقر بهم مقام، وهم مسلمون وليس بينهم وبين العرب المغاربة نسب إلا

---

[3]- فضل الله يوسف، **الجذور التاريخية للعلاقات العربية الافريقية**، بحث مقدم لندوة العرب وإفرقيا. مركز دراسات الوحدة العربية ومنتدى الفكر العربي. بيروت 1987. ص 27.

[2]- أبوعبيد الله البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، القاهرة :دار الكتاب الإسلامي، ، ب ت ن ، ص 179.

[1]- عبلة محمد سلطان ، **العناصر المغربية في السودان الغربي**، رسالة دكتوراه غير منشورة ،معهد البحوث و الدراسات الافريقية جامعة القاهرة ، 1999. ص 28.

[4]- ابراهيم طرخان، **امبراطورية غانا الاسلامية**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1973، ص 19.

[5]- الهادي الدالي، مرجع سابق . ص 216.

[6]- محمد سعيد القشاط، **التوارق عرب الصحراء الكبرى**،ليبيا: مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء، 1989. ص 20.

[7]- مسعود عمرعلي، **تأثير الشمال الإفريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي**طرابلس،جمعية الدعوة الإسلامية، 2003 ص 27

الرحم، وقد خرجوا من اليمن وارتحلوا إلى الصحراء وسكنوا المغرب فترةً ثم رحلوا الى بلاد السودان .[1]
والطوارق أقسام عديدة وينتشرون في مساحات واسعة من الصحراء الكبرى من توات وفزان شمالاً إلى تنبكت وزندر جنوباً، وقد أدى اختلاط الطوارق بالسكان الأصليين إلى تغير ملامحهم فاكتسبوا بعض الصفات الزنجية.[2] ويسكن الطوارق اليوم في الصحراء الكبرى ما بين الحدود الشمالية لجمهورية مالي مع موريتانيا مروراً بشمال مالي وشمال النيجر وبوركينافاصو وشمال تشاد وجنوب غرب ليبيا وجنوب شرق الجزائر.[3]

ولقد أدى الطوارق دوراً مهماً في نشر الاسلام فيما وراء الصحراء كما عرفوا عند ممالك وقبائل السودان بالقوة والشجاعة. كما لعبوا دوراً مهماً في تجارة القوافل عبر الصحراء، فقد كانت أغلب القوافل التجارية المتجهة من غدامس إلى تنبكت، وباقي مناطق السودان يقودها الطوارق .[4]

شهد الطوارق عدة صراعات مع بعض حكام السودان الغربي حيث حاولوا الإنفصال عن مملكة مالي الاسلامية [5]، وعندما جاء السعديون إلى السودان قاومهم الطوارق في البداية لكن ما لبثوا أن تعاونوا تعاونوا معهم فيما بعد حفاظاً على مصالحهم الإقتصادية، وبعد خروجهم قام الطوارق بالإستيلاء على تنبكت وكونوا دولة الطوارق.

3- قبائل السوننك: هم أحد فروع الماندي[6]، الذين يتميزون بقوة جسمانية وعادات وتقاليد اجتماعية اجتماعية فريدة[7].سكنوا الصحراء في البداية ثم تمركزوا بعد ذلك على الأطراف الجنوبية لها في المنطقة المعروفة باسم الساحل، وامتزجوا بالبربر والفولاني ، ولونهم أخف سواداً.[8]

نتيجة للإمتزاج المبكر بين السوننك والهجرات الوافدة من الشمال الإفريقي اعتنق السوننك الاسلام ولعبوا دورًا كبيراً في الدعوة له وصارت العقيدة الاسلامية ذات أثر عميق في حياتهم الإجتماعية، حتى أن

---

[1]- الهادي الدالي ، مرجع سابق ، ص 217. عبدالرحمن السعدي، **تاريخ السودان** ، باريس. 1980. ص 25.
[2]- اسماعيل العربي ، **الصحراء الكبرى و شواطئها**. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب . 1983. ص 176-177.
[3]- الهادي الدالي ، مرجع سابق، ص ص 219-223.
[4]- مسعود عمر علي ، مرجع سابق ص 28.
[5]- عبدالرحمن السعدي ، مصدر سابق ص 27.
[4]- الماندي هم الشعوب الناطقة بلغة الماندي ، وهم مجموعة من الشعوب المتجانسة متعددة الفروع وهم من اكبر المجموعات العرقية ذات الأصالة الزنجية، وهم من سلالات الزنوج الشماليين بين الاطلسي وأعالي نهر النيجر وتعود أكثر الممالك و الامبراطوريات الزنجية الكبرى لهم ، وهم يقسمون الى عدة شعوب ومنهم الماندي ، والبمبارة والديولا والسوننك. أنظر:عدنان مراد ، مرجع سابق ص ص 112-113.
[7]- ابراهيم طرخان ، إمبراطورية غانا، ص 18.
[8]- مسعود عمر علي ، مرجع سابق ، نفس الصفحة، عدنان مراد، المجتمعات الافريقية ، ص 114.

كلمة سوننك استخدمها المادينكا الوثنيون مرادفة لكلمة داعي ، مما يدل على الدور الكبير الذي لعبوه في نشر الإسلام [1].

4- قبائل الفولاني : يعيد شعوب الفولاني نسبهم الى عقبة بن عامر بن عيسى بن مالك الجهمي وكان رديف رسول الله صلى الله عليه و سلم ، وتنتسب معظم العائلات العريقة من الهوسا والفولاني الى قبائل الشام و اليمن، و مهما اختلفت الآراء حول أصولهم من بربرية أو سامية عربية فالفولاني شعب عريق لعب دوراً رائداً في نشر الدين الاسلامي والثقافة العربية الاسلامية في غرب افريقيا، وهم من الشعوب المهمة في غرب افريقيا ينتشرون بشكل واسع جداً بين ساحل المحيط الأطلسي وبحيرة التشاد و الكامرون، والعرب يطلقون عليهم شعب "الفلان"، والطوارق يسمونهم باسم "فولاني" والهوسا يطلقون عليهم اسم "الغلافا" وهم يسمون انفسهم "الغولاني ".[2] ويقسم الفولانيون إلى ثلاثة أقسام هي :

اولاً: الذين يمتلكون البقر ويمتهنون الرعي، ويسمون فولاني البقر .

ثانياً: المستقرون ويعملون بالزراعة .

ثالثاً: نصف المستقرين، ويعملون بالزراعة وتربية البقر بآن واحد .[3]

وقد انتشر الإسلام بين الفلانيين منذ زمن مبكر جدًا وكان لهم الفضل الكبير في نشره بين مختلف قبائل السودان الغربي، وهم اليوم لا يتكلمون إلا اللغة الفولانية التي تكتب بالحرف العربي وبها العديد من الكلمات العربية، والفولانيون اليوم متوزعون على معظم دول السودان الغربي .[4]

5- قبائل البمبارة : أطلق الأوروبيون هذا الاسم على شعب من شعوب الماندي المنتشرين في المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي وحتى منحنى نهر النيجر ، وهذه التسمية مرادفة للكلمة العربية "كافر"، ونتيجة للإختلاط بغيرهم من الشعوب والقبائل خصوصاً قبائل الفلان تغيرت ملامحهم الجسمانية وهم دائماً أقوياء البنية .[5]

---

[1]- ابراهيم طرخان ، مرجع سابق ص 48.وانظر ايضاً: شوقي أبو خليل،**أطلس دول العالم الاسلامي**، دمشق:دار الفكر، 2003.ص36.

[2]- شوقي أبو خليل، مرجع سابق ، ص 116.

[3]- عدنان مراد، المجتمعات الافريقية ، ص 119.

[4]- الهادي الدالي ، مرجع سابق ص 336.

[5]- **دائرة المعارف الاسلامية** ، مادة البمبارة ، الجزء الرابع ، ص 180.

وتمتزج لديهم النواحي الدينية والدنيوية حيث توضع بيد رجل واحد يعرف باسم "دوجوتيجي" أو سيد الأرض، وتسكن هذه القبائل في قرى صغيرة وعادة ما تؤلف القرية وحدة واحدة يحكمها- كما ذكرنا- شخص له السلطة السياسية والدينية.[1]

وتعيش هذه القبائل حالياً في أغلب دول السودان الغربي، غير أن الأكثرية قاطنة في جمهورية مالي الحديثة على عشائر وأسر كبيرة .

6- قبائل التكرور: أطلق بعض المؤرخين العرب مصطلح"التكرور" على جميع الزنوج في السودان الغربي، باعتبار أن كلمة تكروري مرادفة في نظرهم لكلمة السودان ولكن هذا التعميم لا يتفق مع الواقع كما أن أهل السودان لا يقبلون به، كما ذكر ابن فضل العمري في كتابه المسالك والممالك :"صاحب مملكة مالي هو المعروف عند أهل مصر بملك التكرور ولو سمع هذا أنِف منه لأن التكرور إنما هو إقليم من مملكته والأحب أن يقال صاحب مالي". [2] ولا علاقة لهم بقبيلة "التكارنة" في العراق التي يرجع أصلها الى تكريت، وهي إحدى بطون قبيلة شمر الطائية العربية (ويقال لهم الفلوجيون). [3]

وينحدر التكرور أساساً من إختلاط قبائل الماندينغ والفلان مع السكان الأصليين لمنطقة "فوتا" السنغالية [4]. وقد إعتنقوا الإسلام قبل عهد المرابطين في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، كانوا بذلك أول من إعتنق الإسلام من أهل السودان الغربي وعملوا بنشاط على نشره بين القبائل المجاورة لهم،[5] ويعيش معظمهم اليوم في جمهورية السنغال ويزاولون أكثر المهن الحرفية، وأنهم يعتمدون كثيراً على الزراعة .

7- قبائل الوولوف: تنحدر من الأهالي الأصليين لسكان الفوتا السنغالية [6]، وينتشرون من غامبيا والسنغال حتى غينيا ويبلغ عدد الوولوف 36 ٪ من سكان السنغال الحالية. وقد اشتهروا بزراعة الفول السوداني والسمسم، وحياتهم موزعة بين تربية الأغنام والصيد وزراعة الأرض.[7]

ولقد دخلت قبائل الوولوف في الاسلام مبكراً على يد القبائل العربية والفلانية وجيرانهم التكرور، وكان لهم دور بارز في نشر الإسلام ضمن أراضيهم، ويتكلمون لغة الوولوف، وتكتب بالحرف العربي .[1]

---

[1]- عدنان مراد، مرجع سابق، ص 113.

[2]-.العمري، مصدر سابق ، ص 43.

[3]- عمر رضا كحالة ، **معجم قبائل العرب القديمة و الحديثة** ، الجزء الأول،الطبعة الثامنة، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1997.ص123.

[4]- **دائرة المعارف الاسلامية** ، الجزء الخامس، مادة التكرور، ص 422.

[5]- البكري، مصدر سابق، ص 172

[6]- **دائرة المعارف الإسلامية** ، الجزء الخامس، مادة الوولوف ، ص 428.

[7]- عدنان مراد، المجتمعات الإفريقية، ص 113.

8- قبائل الموشي : يسكنون المنطقة الممتدة بين نهر النيجر في الشرق إلى نهر فولتا في الغرب، وتعد هذه القبائل من المجتمعات الزراعية، حيث يزرعون الذرة الرفيعة والدخن ولايقومون بتربية الحيوانات إلا قليلاً مع إعتمادهم على الخيول والحمير، كما أنهم يزاولون مهنة الصيد وقطع الأخشاب، وتتميز قبائل الموشي بأنها وثنية تقدس الأسلاف وعبادة الشمس والقمر. ويذكر عبدالرحمن السعدي بأن قبائل الموشي أقامت مملكة وثنية قوية في منحنى نهر النيجر وجاورت الممالك الإسلامية في المنطقة "مالي وسنغاي"، واستمرت على وثنيتها حتى جاهدها الاسكيا محمد ملك صنغاي في بداية القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي[2]، و لم ينتشر فيها الإسلام إلا في نهاية هذا القرن على يد التجار وبنسب قليلة، وتشكل قبائل الموشي الغالبية العظمى لسكان جمهورية بوركينافاصو اليوم .

9- قبائل الصنغاي : كانت تسكن النيجر حول حدود الغابات الإستوائية، ثم إنتقلت الى الشمال مع نهر النيجر في القرن الأول الهجري-السابع الميلادي، وقد امتدت مساكنهم على طول حوض النيجر، وامتهنت صيد الأسماك وزراعة الدخن، وقد عرف الزراع منهم بسادة الأرض وصيادوا الأسماك بسادة المياه.[3] ويعتقد أن أول دولة للسنغاي قد تأسست حوالي القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، وكانت عاصمتها مدينة "كوكيا" على نهر النيجر الأدنى، وهي لا تبعد عن جاو الحالية سوى مائة وخمسين كلم.[4]

وقد إنتشر الإسلام في بلاد السنغاي، نتيجة الإمتزاج السكاني مع هجرات القبائل الصنهاجية الوافدة من الشمال الإفريقي [5]، وتعيش قبائل السنغاي في جمهوريات مالي، النيجر ونيجيريا، وهي تتحدث لغة السنغاي والتي تكتب بالحرف العربي.

---

[1]- مسعود عمر علي، مرجع سابق ، ص 33.

[2]- السعدي ، تاريخ السودان ، ص 74.

[2]-عبدالقادر زبادية، **مملكة صنغاي في عهد الأسكيين، 1493-1592**، الجزائر:الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دون تاريخ النشر، ص25.

[4]- المرجع نفسه ، ص 251.

[5]- السعدي، المصدر السابق ، ص 3.

المبحث الثالث: إنتشار الإسلام ببلاد السودان الغربي.

يقتضى الحديث عن الإسلام والدول الإسلامية التى قامت فى بلدان غربى إفريقيا، التى كانت تعرف ببلاد السودان الغربى؛ أن نبدأ بإعطاء نبذة عاجلة عن انتشاره أولا بين بربر الصحراء الكبرى، الذين كانوا يعرفون باسم "الطوارق" أو "الملثميـــن[1]" أو "الصنهاجيين"، فهذه القبائل هى التى قامت بجهد كبير فى نشر الإسلام فى بلاد السودان الغربى[2]. (انظر الملاحق، الخريطة 03).

وقد انتشر الإسلام فى البداية فى شمال إفريقيا؛ بحيث لم يأتِ القرن الثانى الهجرى حتى كانت بلاد المغرب قطرًا إسلاميا خالصًا وكانت الصحراء الكبرى تحد بلاد المـــغرب من ناحية الجنوب، ويسكنها قبائل الطوارق أو الملثمين، ويلى هذه الصحراء بلاد السودان الغربى، التى كانت بها دولة وثنية تعرف بدولة غانة، وهى من أقدم الدول التى ظهرت فى هذه البقعة النائية من إفريقيا، ولكى يصل الإسلام إلى غربى إفريقيا كان لابد أن ينتشر أولا بين قبائل الطوارق، ثم يتسرب من خلالهم إلى دولة غانة الوثنية، وقد بدأت المحاولات الأولى لنشر الإسلام بين ديار الملثمين فى ولاية عقبة بن نافع الفهرى الثانية (60 - 63هـــ) فى عهد بنى أمية[3]؛ إذ استطاع هذا القائد أن يتدفق بقواته إلى المغرب الأقصى[4]، ثم هبط جنوبًا إلى إقليم السوس الأدنى، ثم واصل تقدمه حتى وصل إلى مدينة «ماسه» بالسوس الأقصى، وأشرف على مدينة "أغمات"، وتوغّل فى بلاد الملثمين (مسوفة ولمتونة وجدالة) حتى وصل إلى مدينة تارودنت [5]، وتذكر بعض الروايات أنه وصل إلى بلاد غانة والتكرور.

كان عقبة أول من دعا الملثمين إلى الإسلام كأول عربى مسلم يرتاد هذه الأقاصى، ولما جاء موسى بن نصير[6] فاتح الأندلس أتمَّ ما بدأه عقبة، فقد وصل إلى مواطن الملثمين، ودعاهم إلى الإسلام وأنشأ مسجدًا فى مدينة «أغمات» التى غدت من أهم مراكز الإسلام وثقافته فى المغرب الأقصى[7].

---

[1]- الملثمين: هم افراد قبائل صنهاجة التي كانت تسكن الصحراء جنوب المغرب في المنطقة المعروفة اليوم بموريتانيا، وصنهاجة هذه تتكون من عدة قبائل أشهرها قبيلة لمتونة وجدالة ومسوفة ، وهذه القبائل هي التي كانت تكون دولة المرابطين .

[2] - تتوزع القبائل الصنهاجية التي لعبت دوراً كبيرا في نشر الإسلام بين قبائل السودان كالآتي : قبيلة لمتونة في شمال الصحراء، ثم تليها جنوبا قبيلة مسوفة، ثم قبيلة جدالة بالقرب من كل من نهر السنغال ونهر النيجر وساحل المحيط الأطلسي، وتحدها من الجنوب بلاد السودان الغربي انظر: البكري ، مصدر سابق ص 164، سعد زغلول عبدالحميد، **تاريخ المغرب العربي.** ج3. منشأة المعارف ، الاسكندرية 1990.ص 512.

[3]- محمد محمد زيتون،**المسلمون في المغرب و الأندلس**، مكتبة الاسكندرية 1990. ص26

[4]- البلاذري، **فتوح البلدان** ص 147.ابوالقاسم ابن عبد الحكم، **فتوح مصر والمغرب**، تحقيق شارلز توري،، القاهرة: سلسلة الذخائر، د ت ن الجزء2 ص 197.

[5]- البكري، مصدر سابق ص 162.وايضاً: ابن عبدالحكم، مرجع سابق ص 205.

[6]- موسى بن نصير(640-715م) هو موسى بن نصير بن عبدالرحمن بن زيد اللخمي بالولاء أبوعبدالرحمن فاتح الأندلس اصله من وادى القرى بالحجاز. نشأ موسى في دمشق وولى غزو البحر لمعاوية وغزا افريقية في ولاية عبدالعزيز بن مروان، ولما آلت الخلافة الى الوليد بن عبد الملك ولاه افريقيا الشمالية وما وراءها من المغرب سنة 88ه/607م واستعمل مولاه طارق بن زياد الليثي على طنجة = وأمره بغزو شواطىء أوروبا فزحف طارق واجتاز البحر سنة 92ه/710م فاحتل الجبل الذي سمي باسمه فيما بعد وقتل الملك روذريق بيده وتمكنا سوية من فتح بلاد الأندلس كلها فيما بعد . انظر نجيب زبيب، **الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس** ج2 ، بيروت دار الأمير للثقافة و العلوم 1995.ص 47.، سوادي محمد، **طارق بن زياد** ، الاسكندرية: هيئة كتابة التاريخ . 1988. ص 138.

[7]- البلاذري، المصدر السابق ص 172.ومحمد زيتون، مرجع سابق ص 63.

وعندما أقام الأدارسة دولتهم فى المغرب الأقصى (172-373هـ/788-983م) وحدوا بين السهول الساحلية وإقليم المراعى، كما وحدوا بين قبائل صنهاجة ووجهوا أنظارهم إلى نشر الإسلام فكانوا أشبه بالدعاة منهم بالولاة، فانتشر الإسلام فى إقليم الواحات بعد أن أصبحت مضارب الملثمين القريبة من جبال الأطلس (تعرف بجبال درن)[1] خاضعة للأدارسة وجزءًا من أملاكهم، وقد أدَّى إسلام قبائل الملثمين فى القرن الثالث الهجرى، إلى قيام حلف قوى جمع بين قبائل صنهاجة بزعامة لمتونة، وكان هذا الحلف يشير إلى موجة من التوسع صوب الجنوب؛ لنشر الإسلام بين القبائل الزنجية بالسودان الغربى. فقد استطاع «تيولوتان» زعيم هذا الحلف أن يحمل راية الجهاد، ودان له معظم ملوك السودان الغربى، واستولى على مديـــنة "أودغشت"، التى كانت محطة رئيسية لقوافل الصحراء، واتخذها عاصمة له بعد أن خلصها من يد ملك غانة الوثنى[2].

توفِّى «تيولوتـــان» عام (222هـــ= 836م) وتفرق الحلف الصنهاجى أثناء حكم أحفاده عام (306هـــ= 918م) واستطاعت مملكة غانة أن تستعيد مدينة «أودغشت»، واحتفظت تلك المملكة بقوتها كأعظم ما تكون فى السودان الغربي، حتى قام الحلف الصنهاجى الثانى عام (426هـــ= 1035م) بزعامة الأمير «أبى عبدالله بن يتفاوت اللمتونى»، الذى استأنف الجهاد وحارب غانة وقبائل من السودان، لكنه استشهد فى موقعة «غارة» بالقرب من مدينة "تاتكلاتين" عام (429هـــ= 1038م) بعد ثلاث سنوات من حكمه، وبذلك أخفق الملثمون فى استعادة «أودغشت» والسيطرة عليها مرة أخرى. [3]
[3]

وكان من نتيجة هذه الهزيمة أن تخلَّت لمتونة عن زعامة الملثمين وخلفتها فى الزعامة قبيلة «جدالة» فى شخص يحيى بن إبراهيم الجدالى الذى اتبع طريقة أسلافه فى الجهاد داخل بلاد السودان الغربى لنشر الإسلام، وأسس دولته على دعوة دينية إصلاحية رائدها فقيه مغربى مالكى يدعى «عبدالله بن ياسين» فامتد بذلك نفوذ المذهب المالكى من القيروان إلى المغرب الأقصى ثم تخطى حدود هذا الإقليم نحو الجنوب وانتشر فى بلاد السودان الغربى.[4]

وبعد موت الأمير يحيى بن إبراهيم أصبح عبدالله بن ياسين بلا معين، وفقد الحماية التى كان يبسطها عليه زعيم جدالة ورئيس الحلف الصنهاجى، وأصبح وجوده غير مرغوب فيه، لتشدده فى تنفيذ التعاليم

---

[2] - إسمها الأصلي جبال المصامدة وكانت موطناً لقبائل كثيرة من المصامدة وهم مجموعة كبيرة من قبائل البربر البرانس، وقد لعبوا دوراً حاسماً في تاريخ المغرب القديم والحديث على السواء.للمزيد انظر:ابن خلدون، ديوان العبر، ج6ص 224، والقلقشندي، صبح الاعشى ج5ص 128.

[2]- ابراهيم طرخان، دولة غانة الاسلامية ص 42.

[3]- سعد زغلول عبدالحميد، مرجع سابق ج 4 ص 212.

[4]- البكري، المصدر السابق ص 165.

الإسلامية، ولاختياره يحيى بن عمر اللمتونى خلفًا ليحيى بن إبراهيم الجدالى، فنقل الزعامة بذلك من جدالة إلى لمتونة[1].

لهذا كله رحل ابن ياسين إلى بلاد السودان الغربى وأقام رباطًا أو رابطة هناك فى أحد الأودية على حافة الصحراء الجنوبية قرب مضارب لمتونة، ناحية مصب نهر السنغال وتبعه كثير من الذين آمنوا بدعوته[2]، ولما ازدادت قوته قام يجاهد قبائل البربر ويدعوهم إلى تنفيذ تعاليم الإسلام الحقَّة ومعه يحيى بن عمر وأخوه أبو بكر بن عمر اللمتوني معلنين قيام دعوة المرابطين [3]، لكن يحيى استشهد عام (448هـ =1056م)، فأخذ ابن ياسين البيعة لأخيه أبى بكر وأقامه مكانه، وتوجَّه لقتال «برغواطة» عام (451هـ = 1059م) حيث استشهد ابن ياسين من جراح أصابته.

وبعد أن فرغ أبو بكر من السيطرة على قبائل الملثمين وأعاد الأمن إلى الصحراء رأى أن يوجه جهوده لمحاربة الوثنيين فى بلاد السودان الغربى. وكان ابن ياسين قد انتزع مدينة أودغشت من ملك غانة بل وجاوزها إلى ناحية الجنوب فاتخذها الأمير أبو بكر مرتكزًا له فى جهاده ضد ملك غـــانـــة، وبعد جهاد دام أكثر من خمس عشرة سنة استولى أبو بكر على القسم الأكبر من مملكة غانة وضمه إلى دولته. ثم رحل هذا الأمير بعد ذلك إلى الشمال فى عام (464هـ = 1072م قاصدًا مرَّاكش التى كان قد بناها عام (454هـ = 1062م)، وتم الصلح بينه وبين ابن عمه «يوسف بن تاشفين» على أساس أن يترك أبو بكر لابن تاشفين بلاد المغرب الأقصى، وأن يعود هو إلى الصحراء مؤثرًا وحدة الصف، متجنبًا سفك الدماء، وكرس كل جهوده للتوسع فى بلاد السودان ونشر الإسلام بين قبائله، وكان هدفه هذه المرة هو إسقاط إمبراطورية غانة الوثنية التى أصبحت دولة غانة الإسلامية فيما بعد.[4]

أدَّى رواج التجارة إلى أن أصبحت «غانة» وعاصمتها «كومبى صالح» أكبر أسواق بلاد السودان، ودخل الإسلام إليها سلميا عن طريق التجار والدعاة المسلمين، ويتبين هذا من رواية البكرى الذى زار هذه البلاد فى عام (460هـ = 1068م)، وذكر أن مدينة غانة بها مدينتان يحيطهما سور، إحداهما للمسلمين وبها اثنا عشر مسجدًا، عُيَّن لها الأئمة والمؤذِّنون، والقضاة، أما المدينة الأخرى، فهى مدينة الملك وتسمى بالغابة، وبها قصر الملك ومسجد يصلى فيه من يَفِدُ عليه من المسلمين [5]. ويضيف

---

[1]- نجيب زبيب، مرجع سابق ص 235. البكري ، المصدر نفسه ص 166.

[2]- شوقي أبو خليل، مرجع سابق ص 61.

[4]- المرابطين قوة اسلامية ظهرت في صحراء شنقيط (موريتانيا) في أواسط القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي، اتخذت من الرباط والمرابطة في سبيل الله اسماً لها، وقد قدر لهذه القوة مما أوتي رجالها من رغبة صادقة في الجهاد أن تبسط نفوذها على سائر بلاد المغرب والأندلس ، الى أن زالت على يد الموحدين بعد قرن من الزمان . انظر:ابن خلدون، مصدر سابق ج 6 ص 183.القلقشندي مصدر سابق ج 5ص 183.سعد زغلول عبد الحميد ، مرجع سابق ص 199.

[4]- نجيب زبيب، مرجع سابق ، ص 237.

[5]- احمد شلبي، **موسوعة التاريخ الاسلامي**، ج6،القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط5، 1990. ص 107.

البكرى أن متر جمي الملك وصاحب بيت ماله وأكثر وزرائه كانوا من المسلمين، وهذا يدل على أن الإسلام قد انتشر بين زنوج غربى إفريقيا لدرجة أن شعب التكرور بأكمله أسلم على يد الملك «وارجابى بن رابيس» الذى توفى عام (432هـ= 1040م).[1]

ويتحدث البكرى عن مملكة أخرى هى مملكة «ملل» ويقصد بها مملكة «مالى» التى تقع جنوبى مملكة غانة، ويقول:" إن ملكها يعرف بالمسلمانى لأنه أعلن إسلامه على يد أحد الفقهاء المسلمين الذى خرج معه للاستسقاء بعد أن أجدبت البلاد وكاد الناس يهلكون، ولما استجاب الله وهطل المطر أمر الملك بتحطيم الدكاكير (أى الأصنام)، وأخرج السحرة من بلاده، وأسلم هو وأهله وخاصته وحَسُنَ إسلامهم، على الرغم من أن أغلب أهل مملكته كانوا وثنيين"[2].

وحتى يسير الإسلام فى مجراه الطبيعى ويستقر بين هذه الشعوب التى آمنت به، وحتى ينتهى دور غانة فى مناهضة الإسلام والاعتداء على القبائل المسلمة كان الهدف الأساسى الذى كرَّس له الأمير أبو بكر بن عمر اللمتونى زعيم الملثمين جهوده هو الاستيلاء على غانة وإخضاعها لدولة المرابطين التى أقامها هؤلاء الملثمون من قبائل صنهاجة، وعلى الرغم من أن أغلب المصادر تغفل تفاصيل جهاد هذا الأمير فى بلاد السودان الغربى فإنه استطاع أن يفتح مملكة غانة، وأن يستولى على العاصمة عام (469هـ = 1076م) ويسقط الحكومة الغانية الوثنية.

ومنذ ذلك الوقت يمكن أن يؤرخ لإمبراطورية غانة الإسلامية حتى اختفائها من التاريخ فى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى. فقد أضحت حكومتها إسلامية، ويقال إن ملكها اعتنق الإسلام بدليل أن المرابطين تركوه فى الحكم بعد أن أعلن الخضوع ودفع الخراج لهم. وبإســـلام هذا الملك دخل عدد كبير من سكان المملكة فى الإسلام[3].

ومعنى ذلك أن فتح المرابطين لغانة لم يقض عليها تاريخيا، ولكنه حولها إلى الإسلام، وجاءت الصدمة القاضية على الوجود التاريخى لإمبراطورية غانة على يد قبائل «الصوصو» الوثنية التى استقلت بولاية «كانياجا»، وكانوا من قبل يدفعون الجزية لحكومة غانة لفترة طويلة.[4]

وفى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى استولى أعظم أباطرة «الصوصو» وهو «سومانجورو» على العاصمة كومبى صالح فى عام (600هـ= 1203م) بعد معركة طاحنة مع ملك غانة الإسلامية.

---

[1]- البكري، مصدر سابق. ص 175

[2]- نفسه ، ص 178.

[3]- ابراهيم طرخان، امبراطورية غانة الاسلامية ، ص 45.

[4]- ابراهيم طرخان، **مملكة مالي الاسلامية** ، القاهرة: المكتبة العربية 1975. ص 50.

وعلى الرغم من أن غانة الإسلامية لم تعمّر طويلا فإن أهلها وأغلبهم من السوننك اشتهروا بحماسهم للإسلام وبالدعوة إليه، ويبدو أن هذه الدفعة التى دفعها المرابطون للإسلام كانت من القوة بحيث تركت فى تاريخ الإسلام فى غربى إفريقيا آثارًا عميقة، ذلك أن دعاة المرابطين نشروا الإسلام فى المنطقة الواقعة بين السنغال والنيجر وعلى ضفاف السنغال، وتمخض ذلك عن إسلام شعب التكرور الذى عمل بدوره على متابعة الدعوة إلى هذا الدين الحنيف بين قبائل الولوف و الفولانى والمندنجو[1].

وفى ركاب المرابطين دخلت الثقافة الإسلامية متدفقة من مدارس المغرب و الأندلس، فقد وحَّد المرابطون بين السودان الغربى والمغرب والأندلس فى دولة واحدة [2]. وفى عهدهم تم تأسيس مدينة «تمبكت» التى أصبحت حاضرة الثقافة العربية فى غربى السودان وقد أسَّسها قوم من طوارق «مقشرن» فى آخر القرن الخامس الهجرى، وأصبحت سوقًا مهمة يؤمُّها الرحالة ويَفِدُ إليها التجار من مَرَّاكُش والسودان[3].

وسرعان ما اقتفى العلماء أثر التجار فوفدوا إليها من المغرب الأقصى والأندلس، بل ومن مصر وتوات وفاس وغيرها، وأصبح مسجدها الجامع الذى يسمى مسجد "سنكرى" جامعة إسلامية زاهرة فى هذه البقعة النائية، وامتدَّ الإسلام إلى مدينة أخرى كان لها ما لتمبكت من أثر فى تاريخ الإسلام والثقافة العربية، وهى مدينة «جنى» التى أسلم أهلها آخر القرن الخامس الهجرى، وأمَّها الفقهاءُ والعلماءُ، كما انتشرت اللغة العربية بين كثير من أهالى دولة غانة الإسلامية، وأصبحت لغة العبادة والثقافة الوحيدة بالبلاد بجانب كونها لغة التجارة والمعاملات [4]. انتهى هذا الدور بانتشار الإسلام فى بلاد السودان الغربى على نطاق واسع، وبتوطُّن الثقافة العربية فى مركزين مشهورين فى تمبكت وجنى، وبسقوط مملكة غانة الإسلامية على يد الصوصو، وورثتها مملكة مالى الناشئة، وبدأ دور جديد يمكن أن نسميه دور الازدهار فى تاريخ الدول والممالك الإسلامية التى قامت فى غرب إفريقيا فى العصور الوسطى.

---

[3]- أبو الحسن علي بن عبدالله بن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس،** ترجمة كارل بوحن نورنبرغ،، مدينة أوبسالة: دار الطباعة المدرسية ، 1833.ص 136.

[2]- أحمد شلبي، مرجع سابق ص 109.

[1]- السعدي، تاريخ السودان ص 20، عبلة محمد سلطان، العناصر المغربية، مرجع سابق ص 152.

[4]- عبدالقادر زبادية، مملكة صنغاي ص 106. وأيضاً الهادي الدالي، مرجع سابق ص 112.

المبحث الرابع : ممالك الســـــــودان الغربي .

أ- سلطنة مالى الإسلامية (874 -569هـ = 1200 – 1469م):

أسس هذه السلطنة شعب زنجى أصيل هو شعب «الماندنجوه»، أو "المـــاندنجو" ومعناها «المتكلمون بلغة الماندى»[1]، ويلقبها بعض المؤرخين العرب بلقب "مليل" أو «ملل»[2]، بينما يسميها البعض الآخر بـــ"مالي"[3]، وتقع بين بلاد «برنو» شرقًا والمحيط الأطلسى غربًا وجبال البربر شمالا و«فوتاجالون» جنوبًا[4].

وقد اشتهرت مالي باسم بلاد «التكرور» [5]، وهى أحد أقاليمها الخمسة التى اشتملت عليها المملكة زمن قوتها وازدهارها، وكان كل إقليم منها عبارة عن مملكة مستقلة استقلالًا ذاتيًا، لكنها تخضع لسلطان مالى، وهذه الأقاليم الخمسة:

1- مالى: ويتوسط أقاليم المملكة.

2- صوصو: ويقع إلى الجنوب من مالى.

3- غانة: ويقع شمال «مالى» ويمتد إلى المحيط الأطلسى.

4- كوكو: ويقع شرق إقليم مالى.

5- تكرور: ويقع غرب «مالى» حول "نهر السنغال"[6].

ولا يعرف إلا القليل عن نشأة مملكة «مالى» ويتلخص فى أنه فى نحو منتصف القرن الحادى عشر الميلادى تقريبًا اعتنق ملوك الماندنجو فى «كانجابا» (مالى) الإسلام، وأنشئوا دُوَيلة صغيرة انفصلت عن مملكة «غانة»، وظفرت بنوع من الاستقلال الذاتى وإليهم يرجع الفضل في تأسيس دولة مالي الاسلامية، مستغلين الصراع الذى نشب بين المرابطين ومملكة «غانة».[7](انظر الخريطة رقم04 بالملاحق).

واستطاع ملوك كانجابا أن يوسعوا مملكتهم فى أوائل القرن الثالث عشر فى اتجاه الجنوب والجنوب الشرقى، مما أثار حفيظة ملك «الصوصو»، الذى أخذ يعمل للسيطرة على مملكة «كانجابا» الناشئة وكادت جهوده أن تكلل بالنجاح، بعد أن استطاع القضاء على دولة «غانة» الإسلامية عام (600هـــ =

---

[3]- عدنان مراد، مرجع سابق ص 113.

[2]- البكري، مصدر سابق ص 178.

[3]- ابن بطوطة ، **رحلة ابن بطوطة** ، بيروت: دار التراث، ب ت ن، ص 682. والحسن الوزان، وصف افريقيا ص 38.

[4]- كولين ماكيفيدي، **أطلس التاريخ الافريقي**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1987. ص 95.

[5]- جمال مسعود ووفاء جمعة، **إفريقيا يراد لها أن تموت جوعاً**، دار الوفاء للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة ، 1991. ص 27-28.

[6] -أورد هذا التقسيم القلقشندي ، صبح الأعشى ج5 ص292.

[3]- ابن خلدون، مصدر سابق ج6 ص 200، القلقشندي، صبح الاعشى ج5 ص 293، الهادي الدالي، مرجع سابق ص 48، ابراهيم طرخان، مرجع سابق ص 41.

1203م)، لكن «سندياتا» ملك«كانجابا» الذى اشتهر باسم "مارى جاطة" (627- 653هـ = 1230 - 1255م) استطاع أن يقتله فى إحدى المعارك عام (632هـ = 1235م) وأن يضم بلاده إليه، ثم وسَّع نفوذه شمالا واستولى على البقية الباقية من مملكة «غانة» عام (638هـ= 1240م)، وبذلك يعتبر هذا الملك المؤسس الحقيقى لسلطنة «مالى» الإسلامية[1].

وقد برزت سلطنة «مالى» فى سماء الحياة السياسية فى غربى إفريقيا كأعظم ماتكون، واتخذت حاضرة جديدة لها، ترمز إلى الدولة وإلى نفوذها وقوتها النامية وهى عاصمتها الجديدة «نيانى» أو"مالى"، بدلا من عاصمتها القديمة «جارب»، وتقع العاصمة الجديدة على أحد روافد نهر النيجر.

إستمرت حركة التوسُّع بعد ذلك، ففى عهد «منسى[2]ولى»(653-669 هـ=1255-1270م) خليفة «مارى جاطة» استولى قواده على منطقة «وانجارة» الغنية بمناجم الذهب، كما استولوا على مدينتى " بامبوك" و "بندو"، ولم تتوقَّف الفتوح بعد «منسى ولى»، إنما استمرت فى عهد خلفائه -أيضًا- حتى وصلت الغاية فى عهد ملك مالى الشهير «منسا موسى» (712-738هـ=1312-1337م) الذى استولت قواته على مدن «ولاته» و«تمبكت» و«جــاو» فى النيجر الأوسط، وبلغت دولة مالى الإسلامية فى عهده ذروة مجدها وقوتها واتساعها، فقد امتدت من بلاد «التكرور» غربًا عند شاطئ المحيط الأطلسى إلى منطقة «دندى» ومناجم النحاس فى تكدة شرقــى النيجر، ومن مناجم الملح فى «تغازة» فى الصحراء شمالا إلى «فوتاجالون» ومناجم الذهب فى «ونــقارة» جنوبًا، كما شملت الحدود الجنوبية منطقة الغابات الاستوائية[3].

وتقدر مساحة مالى زمن السلطان «منسا موسى» بمساحة كل دول غربى أوربا مجتمعة، وتعتبر «مالى» من أعظم الإمبراطوريات فى القرن الرابع عشر الميلادى، وفاقت شهرتها دولة غانة؛ من حيث العظمــة والقوة والثروة والاتساع والشهرة، فقد ضمَّت داخل حدودها مناجم الذهب والملح والنحاس، وتحكَّمت فى طرق القوافل بين هذه المناجم شمالا وجنوبًا، ونتج عن ذلك ثراء جم، يظهر ذلك من وصف ابن بطوطة والحسن الوزَّان لهذه المملكة[4].

لكن ما كادت الدولة تبلغ الغاية فى القوة حتى بدت عليها مظاهر الضعف؛ فأَغرق الملوك فى الترف، وفقدوا الروح العسكرية، وبدأت أقاليمها تستقل عنها واحدًا بعد الآخر؛ فاستقلَّت «جاو» واستولى الطوارق على «أروان» و«ولاته» و«تمبكت»، وبدأ قبائل الولوف والتكرور يُغيرون عليها من الغرب،

---

[1]- احمد شلبي، مرجع سابق ص 244.
[2]- منسا: معناها الحاكم أو السلطان، وهو لقب ملوك دولة مالي الاسلامية.
[3]- أحمد شلبي، مرجع سابق ص 246.
[4]- جاسم ظاهر، مرجع سابق،ص 39، والتر رودني، مرجع سابق، ص90

ودولة «الكانم» من الشرق واستقلّت إمارة «صنغى» التى ورثت مملكة مالى وتبوأت مكانتها فى غرب القارة فيما بعد[1].

وقد بلغ ضعف مملكة مالى الغاية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين حين استنجدوا فـــى عام (886هـــ = 1481م) بالعثمانيين، الذين كانوا قد استقروا بالمغرب، ثم بالبرتغاليين الذين كانوا قد أنشئوا لهم مستعمرة على ساحل إفريقيا الغربى، فلم يستجب لهم أحد، وكان «سُنِّى على» سلطان دولة "صنغى" الإسلامية والمؤسس الحقيقى لها قد أوغل فى سلطنة مالى فلم يترك بلدًا ولا مدينة فى النصف الشمالى منها إلا حاربه بما فى ذلك مدينة مالى نفسها، واحتل «تمبكت» عام (873هـــ = 1469م)، ونرى عهد قوة إمبراطورية مالى ينتهى فى العام الذى سقطت فيه تمبكت، فقد أخذت الإمبراطورية تفقد أقاليمها واحدًا إثر الآخر حتى أصبحت فى منتصف القرن السابع عشر الميلادى مجرد دُوَيلة صغيرة فى «كانجابـــا» كما كانت من قبل.[2]

وظلَّت هذه الدولة قائمة حتى ابتلعها الفرنسيون فى عام (1316هـــ = 1898م)، بعد أن هزموا آخر زعيم أراد أن يعيد مجد دولة مالى الإسلامية، ويوحد شعب الماندنجو وهو «ســـامورى التورى»، ورغم جهاده المستمر فإن الفرنسيين قضوا عليه فى العام نفسه، ونفوه إلى « الغابون»؛ حيث مات هناك فى عام (1318هـــ = 1900م).[3]

وقد استطاعت دولة مالى تحقيق كثير من المظاهر الإسلامية ، وأول هذه المظاهر، اتصالها بالقوى الإسلامية المختلفة، وإظهارها لروح الأخوة الإسلامية، وقد ظهر هذا فى سفر سلاطين هذه المملكة إلى مكة لأداء فريضة الحج وزيارة مصر فى طريقهم إلى مكة، وقد بدت هذه الظاهرة منذ فجر الدولة[4]، وكان لسلاطين مالى علاقات طيبة أيضًا بملوك المغرب وترجع العلاقات بين الطرفين إلى زمن بعيد، فيذكر ابن عذارى مؤرخ المغرب والأندلس الشهير فى كتابه البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب بعض الهدايا التى كان يرسلها ملوك السودان الغربى فى القرنين الرابع والخامس الهجريين إلى ملوك بنى زيرى فى تونس، أما سلطان مملكة مالى منسا موسى فقد أرسل إلى السلطان أبى الحسن المرينى يهنئه باستيلائه على تلمسان، كما بعث بالسفراء الدائمين إلى مدينة «فاس»، وكانت العلاقات الثقافية مع المغرب فى غاية القوة والازدهار، بسبب انتشار مذهب مالك فى البلدين[5]. وقد

---

[1]- أحمد شلبي، مرجع سابق ص 247. ج ت نياني، **تاريخ إفريقيا العام**، المجلد 4، اليونسكو، 1988، ص 195.
[2]- ج ت نياني، مرجع سابق ص 196.
[3]- اسماعيل ياغي، محمود شاكر، مرجع سابق ص 205.
[4]- السعدي، تاريخ السودان ص 7، وابن خلدون، ديوان العبر ج 5 ص 144.
[5]- محمد عيسى الحريري، **تاريخ المغرب الاسلامي والأندلس في العصر المريني**، الكويت: دار القلم للنشر والتوزيع، 1987.ص221.

امتدت علاقات مملكة مالى إلى الأندلس، بدليل ما يروى من أن «منسا موسى» استعان بأحد علمائها وهو «أبو إسحاق السراحلى» من أهل «غرناطة» فى بناء القصور والمساجد، وإليه يرجع الفضل فى إدخال فن البناء بالآجر فى غربى السودان، وبنى مسجدًا عظيمًا فى «جاو» وآخر فى تمبكت، كما بنى قصر «منسا موسى» نفسه.[1]

وكان أهل «مالى» يحتفلون بشهر رمضان وبالأعياد الإسلامية احتفالا كبيرًا، وكان السلطان يوزع الأموال والذهب على القضاة والخطباء والفقهاء وفقراء الناس[2]، ويصف «ابن بطوطـــة» خروج السلطان لصلاة العيد وصفًا رائعًا لا يقل فخامة وأبهة عن خروج خلفاء بغداد والقاهرة. ويقول إن الأهالى كانوا يواظبون على الصلاة فى الجماعات، وإنهم كانوا يضربون أولادهم إذا ما قصروا فى أدائها، وإنه إذا لم يبكرالإنسان فى الذهاب إلى المسجد يوم الجمعة لم يجد مكانًا لكثرة الزحام[3].

ولقد إزدهرت الحركة العلمية في مالي إزدهاراً كبيراً حيث استقدم سلاطينها عددًا كبيرًا من العلماء لا سيما من مصر والمغرب والأندلس، وبرزت في مالي مدن اشتهرت بكثرة علمائها من بينها تنبكتو وجني وجاو وغيرها. وحتى عندما تدهورت مالي سياسياً بقيت هذه المدن محتفظة بمكانتها العلمية كمراكز كبرى للثقافة العربية الإسلامية .[4]

فإذا أضفنا إلى ذلك ما قام به سلاطين «مالى» من جهاد لنشر الإسلام وثقافته بين القبائل الوثنيـــة سواء داخل دولتهم أو خارجها، لأدركنا مدى حرص تلك السلطنة وهؤلاء السلاطين على التقاليد الإسلامية ومظاهر الحياة الإسلامية. وسنرجع إلى ذلك في الفصول اللاحقة.

---

[1]- الحريري، مرجع سابق، ص 223.
[2]- يوسف فضل حسين، مرجع سابق ص 41.
[3]- ابن بطوطة، مصدر سابق، ص 442.
[4]- جاسم ظاهر، مرجع سابق ص 54.

ب- مملكة صنغاي (777-1000هـ = 1375 - 1591م) :

بدأت سلطنة «صنغى» (صنغاى- سنغاى) دويلة صغيرة لا تختلف من حيث قيامها عن سلطنة مالى أو غانة، فقد تدفقت بعض قبائل مغربية - وخاصة قبائل «لمطـــة» - فى نحو منتصف القرن السابع الميلادى إلى الضفة اليسرى لنهر النيجر عند مدينة "دندى"، وسيطروا على الزراع من أهل "صنغى". ورحب هؤلاء بهم ليحموهم من الصيادين الذين كانوا يعتدون عليهم ونجح هؤلاء الوافدون فى تكوين أسرة حاكمة استفادت إلى حد كبير من العلاقات التجارية مع غانة وتونس، وبرقة ومصر، وكانت هذه العلاقات التجارية ذات أثر بعيد فى تحويل ملوك صنغى إلى الإسلام فى بداية القرن الحادى عشر الميلادى إبان النهضة الإسلامية التى اضطلع بها المرابطون فى ذلك الوقت لنشر الإسلام فى غربى القارة[1].

رأى ملوك «صنغى» أن ينقلوا حاضرة ملكهم من «كوكيا» إلى "جاو" لتكون على مقربة من طرق القوافل الرئيسية[2]. ومدينة «جاو» زارها البكرى عام (460هـ = 1068م) وقال: «إن مدينة كوكوا (جاو) مدينتان، مدينة الملك ومدينة المسلمين، وإذا وُلِّى منهم ملك دُفع إليه خاتم وسيف ومصحف يزعمون أن أمير المؤمنين بعث بذلك إليهم، وملكهم مسلم لا يملِّكون غير المسلمين "[3]، كما زارها ابن بطوطة فى منتصف القرن الرابع عشر للميلاد، وقال عنها: " إنها مدينة كبيرة تقع على نهر النيجر، وهى من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها"[4]، وقد قابل فيها فقهاء ينتسبون إلى بعض قبائل البربر.

كانت «جاو» والبلاد التابعة لها تشكل جزءًا من سلطنة مالى ، عندما تحرك ملوك صنغاى واستردوا استقلالهم منتهزين فرصة الضعف الذى أخذ يظهر فى دولة مالى منذ ذلك الوقت واتخذوا لقب «سُنِّى» أو "السُّنِّى" وأخذت بلادهم تتسع فى عهد «سنى على» (868 - 897هـ = 1464- 1492م) الذى كون جيشًا كبيرًا منظمًا سار على رأسه إلى الغرب، واستولى على مدينة «تمبكت» (873هـ = 1468م)، ثم على مدينة جنِّى (878هـ = 1473م)، وفتح مملكة «الموسى» وضمها إلى دولته، وتقدم شرقًا فهاجم بعض إمارات«الهوسا» وأخضعها لحكمه، ثم اتجه غربًا فاستولى على بلاد «الماندنجو» و«الفولانى»، ومعظم ممتلكات دولة مالى الإسلامية، واتجه شمالا حتى مواطن الطوارق. وبذلك أسس سنى على إمبراطورية «صنغى» الإسلامية، وكان أول إمبراطور لهـــا[5]، حتى مات فى ظروف غامضة، وبموته انتقل

1- محمود كعت، **تاريخ الفتاش في أخبار الجيوش وأكابر الناس** باريس 1913.ص 29. جاسم ظاهر، مرجع سابق، ص 47.
2- نقولا زياده، **افريقيات دراسات في تاريخ المغرب العربي والسودان الغربي** رياض الريس للكتب و النشر. ب ت ن. ص 357.
3- البكري، مصدر سابق ص 183.
4- ابن بطوطة، مصدر سابق ص 445.
5- السعدي، مصدر سابق ص 64. الهادي الدالي، مرجع سابق ص 99،

الحكم إلى أسرة جديدة أسسها أحد قواد «السوننكى»، وهو "أسكيا محمد الأول" بعد إعلانه الثورة على ابن «سنى على» واستيلائه على السلطة[1].

و«أسكيا» لقب يعنى «القاهر» وقام بتنظيم شئون البلاد من الناحية الإدارية، واستخدم طائفة من الموظفين الأكفاء، كما نظم الجيش وأفاد من الخبرات السابقة، واتخذت حركته مظهرًا إسلاميا واضحًا.[2]

وقد أشار كثير من المؤرخين السودانيين إلى أن علماء من تمبكت رحلوا إلى هذه الجهات الخاضعة لنفوذ «صنغى»، وأقاموا هناك يفقّهون الناس فى الدين وينشرون الثقافة الإسلامية، حتى امتد النفوذ الإسلامى إلى منطقة بحيرة تشاد، وبلغت إمبراطورية صنغى أقصى اتساع لها، فقد شمل نفوذها منطقة السافانا كلها من الشرق إلى الغرب [3]، واستطاع «أسكيا محمد الأول» أن ينشر الأمن والسلام فى جميع ربوع هذه المملكة الشاسعة الأرجاء، بتنظيماته الإدارية والعسكرية الرائعة التى قام بها بين صفوف الجيش والإدارة[4]. لكن حكمه آذن بالزوال حينما أصيب بالعمى وانتابه المرض وتآمر عليه أولاده، وعزله أحدهم عن الحكم فى عام (935هـ = 1529م)[5].

وظل القواد والمغامرون يتنافسون من أجل السيطرة على الجيش والحكومة، إلا أن «أسكيا إسحاق الأول» (946 - 956هـ = 1539-1549م) استطاع أن يلى العرش بمساندة الجيش، وأن يعيد الأمن إلى نصابه، وأن يقضى على منافسيه، وأن يبعدكبار ضباط الجيش وكبار المسئولين، الذين أساءوا استخدام مناصبهم خلال فترة الاضطراب.

وعلى الرغم من ذلك لم يستطع الاحتفاظ بالعرش مدة طويلة، فقد خلفه أسكيا داود (1549 – 1582م) الذى عين أنصاره فى الوظائف المهمة واشتهر بحنكته السياسية فأبعد خطر ملوك «مراكش» عن بلاده بالمهادنة والتودد إليهم.

وبعد وفاة «داود» (990هـ = 1582م) أثرت المنازعات التى قامت بسبب العرش تأثيرًا سيئًا على مملكة صنغاى، فقد كان سلاطين المغرب منذ عهد بعيد يتطلعون إلى مناجم الملح فى "تغازة" وإلى السيطرة على تجارة الذهب، وظل ملوك صنغى يصدون سلاطين المغرب حتى سنة (993هـ = 1585م)، حينما انقسمت البلاد على نفسها، فاستغل «أحمد المنصور الذهبى» سلطان المغرب ضعف صنغى وسيَّر جيشًا كبيرًا عام

---

[1]- السعدي، مصدر سابق ص 72.
[2]- نقولا زياده، مرجع سابق ص 360.
[3]- كولين ماكيفيدي، مرجع سابق ص 114.
[5]- عبدالقادر زبادية، مرجع سابق ص 40. جميلة محمد التكيتك، **مملكة سنغاي الاسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير 1493-1528م**، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية.ليبيا، 1998. ص80.
[5]- أحمد شلبي، مرجع سابق ص 280.

(998هـ = 1590م) استولى على العاصمة «جاو» بعد أن هزم قوات «إسحاق الثانى» فى موقعة "تونديبى" وبذلك دخلت البلاد فى طور جديد من أطوار تاريخها وهو طور التبعية والفناء[1].

في القرن19م، جاء الفرنسيون والتهموا المنطقة بأسرها، وسموها «إفريقية الاستوائية الفرنسية». وبعد نجاح حركة الكفاح الوطنى ضد الاستعمار الفرنسى والإنجليزى؛ ظهرت عدة دول إسلامية حديثة على أنقاض إمبراطورية «صنغى» الإسلامية، وهذه الدول هى: جمهوريات موريتانيا، غينيا، مالى، السنغـــال، النيجر، نيجيريا، و جامبيا.[2]

وإذا كانت دولة صنغاى قد شابهت دولة مالى من حيث تطورها العـــام، فإنها قد شابهتها أيضًا فى اتخاذها مظهرًا إسلاميا واضحًا، بـــل فاقتها فى هذه الناحية فى بعض الأحيان، وهذا التطور طبيعى، فقد امتد سلطان صنغى إلى القرن السادس عشر الميلادى، وكان الإسلام قد قطع خطوات واسعة فى سبيل النمو والانتشار. وقد سعى ملوك صنغاى كما سعى ملوك مالى من قبل إلى الاتصال بالقوى الإسلامية المعاصرة، تحقيقًا لروح الأخوة الإسلامية، وفى هذا المجال كان لملوك صنغ اى اتصالات عديدة بملوك المسلمين فى الشرق والغرب [3]. فقد خرج «أسكيا محمد الأول» إلى الحج ومر بمصر سنـــة (899هـ/1494م) فى موكب حافل[4]، وأغدق على الناس والفقراء أكثر مما أغدق أسلافه[5]، واجتمع فى موسم الحج بزعماء المسلمين، وتأثر بما رآه فى مصر من نظم الحكم، ومن ثقافة عربية مزدهرة، فاتصل بالإمام «السيوطى» وغيره من علماء العصر، وتلقى تقليدًا من الخليفة العباسى بالقاهرة، وعاد إلى بلده متأثرًا بما رآه من روح إسلامية، وعمل على تطبيق ما تعلمه من آراء وتجارب شاهدها بنفسه[6].

ويقال إن هذا السلطان قلد فى تنظيماته الإدارية النظم التى رآها فى مصر، وأمعن فـــى إحاطة نفسه ببطانة من العلماء الذين كان يحمل لهم كـــل احترام وتقدير، فقد روى مؤرخو السودان أنهم كانوا إذا دخلوا عليه أجلسهم على سريره وقربهم وأمر بألا يقف أحد إلا للعلماء أو الحجاج، وألا يأكل معه إلا العلماء والشرفاء.

---

[1]- السعدي، مصدر سابق، ص 75.
[2]- اسماعيل ياغي، محمود شاكر. مرجع سابق ص ص 210-212.
[3]- جميلة محمد التكيتك، مرجع سابق ص 78.
[4]- إلتقى الاسكيا الحاج محمد في مصر الخليفة العباسي المتوكل على الله بن المستعين الذي ولي الخلافة العباسية في مصر من 884ه/1479م الى 903ه/1498م، وألبسه الخليفة العمامة والقلنسوة ومنحه لقب خليفة بلاد التكرور فجعل له ذلك بين المسلمين من قومه منزلة خاصة . انظر نقولا زياده، مرجع سابق ص 361.
[5]- السعدي، مصدر سابق، ص 73.
[6]- جاسم ظاهر، مرجع سابق، ص 48.

كما أبطل البدع والمنكرات وسفك الدماء، وأقام الدين والعقائد [1]، وأعطى «جامعة تمبكت» المزيد من عنايته، فتفوقت في عهده ووصلت إلى ما لم تصل إليه من قبل، وكانت في غربي السودان كجامعة "الأزهر" في القاهرة، أو"القرويين" في فاس، أو"الزيتونة" في تونس، أو"النظامية" في بغداد.[2]

وأصبحت هذه السياسة الإسلامية سياسة مقررة لخلفائه من بعده، فأسكيا إسحاق يسير في الطريق نفسه، من تشجيع العلماء وإكرامهم والأخذ بيدهم، وأسكيا داود يتخذ خزائن الكتب وله نساخ ينسخون الكتب وربما يهادي بها العلماء، وقيل إنه كان حافظًا للقرآن الكريم.

وهذا يدل على أن دولة صنغ اى قد شهدت تمكن الإسلام من أهل غرب إفريقيا، كما شهدت ازدهار الثقافة الإسلامية إلى أبعد الحدود.

---

[1]- عدنان مراد، مرجع سابق ، ص 128.
[2]- جاسم ظاهر، مرجع سابق، ص 59.

الفصل الثاني

الوجود العسكري و الإجتماعي المغربي ببلاد السودان الغربي

تمهيد:

عرفت العلاقات السودانية المغربية تطوراً كبيراً وازدهاراً على مر العصور وفي شتى المجالات، و لم تقف الحواجز الطبيعية -كما ذكرنا سابقًا- حائلاً دون الإختلاط الفكري والسياسي والثقافي والديني بين شمال الصحراء وجنوبها، وهذا يعني سهولة نقل النظم من مكان إلى مكان آخر خاصة في ميادين السياسة والادارة وتنظيم الجيوش وتسييرها، إلا أن هذه الروابط عكر صفوها لفترة من الزمن توتر سياسي بين الشمال في عهد حكم الأشراف السعديين للمغرب، والجنوب في عهد حكم الأساكي بسبب الصراع على مناجم الذهب في السودان الغربي، وإنتهى بغزو المغرب للسودان الغربي سنة 1591م، وهذا أمر وارد في سير الأمم والملوك.

وسنتعرض في هذا الفصل لهذا الصراع وأهدافه ونتائجه.

المبحث الأول : الوجـــود السيـــاسي والعســـكري:

المطلب الأول: العلاقات السياسية والدبلوماسية قبل1591م:

تشمل هذه العلاقات في فترة الدراسة جميع الدول التي قامت بالمغرب وبلاد السودان الغربي طيلة القرنين 9و10هـــ/15و16م .

أولاً: العلاقات السودانية مع الدولة المرينية [1] (668-961هـ/ 1258-1420م): لقد تمسك ملوك بني مرين فيما يتعلق بالممالك الإفريقية جنوب الصحراء بعلاقات الود والإخاء التي ربطتهم

---

[1]- الدولة المرينية: المرينيون فخذ قوي من قبيلة زناتة البربرية، ويؤكد بعض المؤرخين انتماء المرينيين الى العرب عن طريق جدهم الأعلى زناتة، وتعد قبيلة بني مرين نموذجاً للقبيلة البدوية التي إستطاعت بفضل جهود قادتها وعلى مدار مايقارب ستين عاماً من الكفاح أن تفرض واقعاً سياسياً وقبلياً جديداً على حساب نفوذ دولة الموحدين الذي بدأ يتلاشى تدريجياً في معركة العقاب في الأندلس سنة609هـ/1202م أمام الممالك النصرانية الإسبانية. استغل المرينيون الظروف السياسية والاقتصادية السيئة التي عاشتها دولة الموحدين في آخر عهدها خاصة بعد انفصال الحفصيين في تونس، والزيانيين في تلمسان وبني الأحمر في الأندلس، ودخلوا المغرب الأقصى تحت قيادة الأمير عبدالحق المريني(592-614هـ/1196-1217م) معلنين قيام دولتهم، استغل المرينيون جو الاستقرار الذي ساد في عهدهم وضعهم الإقتصادي فازدهر على اختلاف صعده تجارياً وصناعياً وزراعياً وتمكنت الدولة المرينية أن تترك بصمات حضارية لازالت ماثلة الى وقتنا الحاضر خاصة في النواحي المعمارية والثقافية والدينية والعلمية، بدعم من سلاطينهم الذين لم يقيموا دولتهم على أساس ديني أوفكري أوسياسي، مما أعطى هامشاً كبيراً للابداع والتطور الفكري والحضاري على مختلف الصعد، وإهتم المرينيون ببناء المدارس والمساجد والمؤسسات الوقفية والمدن الجديدة. كما أبدع المرينيون في إستحداث النظم الإدارية والعسكرية فأصبحت لديهم دولة قوية فرضت نفسها سياسياً وعسكرياً في حوض المتوسط . إلا أنها ما لبثت أن إنهارت سنة 869هـ/1465م تحت وطأة الخلافات الداخلية التي تمحورت حول التنافس على السلطة في بلاد المغرب الأقصى .للمزيد انظر:

محمد عيسى الحريري، مرجع سابق صفحات متفرقة.

شوقي عطا الله الجمل، **المغرب العربي الكبير في العصر الحديث**، مكتبة الأنجلومصرية،القاهرة 1977، ص ص 26-29،

ابراهيم حركات، **المغرب عبرالتاريخ**، المجلد الثاني، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء 1978، صفحات متفرقة. =

=عامرأحمد حسن، **دولة بني مرين تاريخها وسياستها اتجاه مملكة غرناطة الأندلسية والممالك الإسبانية** رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح فلسطين 2003. صفحات متفرقة.

كمسلمين بتلك الممالك، خاصة في ظل وجود مملكة قوية في الجنوب هي مملكة مالي، بل في أوج عظمتها في عهدي المنسى موسى ثم المنسى سليمان .

وإذا كانت شهرة المنسا موسى قد طبقت الآفاق في السودان إثر رحلته إلى الحج وما نتج عنها، فإن اسم جاره السلطان المريني أبي الحسن قد دوت عبر أطراف إفريقيا والأندلس، ولهذا فقد كان من الطبيعي أن تنشأ بين المملكتين علاقات قائمة على أساس الإحترام المتبادل والمصالح المشتركة.[1]

وجاءت أول إشارة للعلاقات السياسية بين بني مرين ومالي خلال عهد السلطان أبي الحسن المريني، حين أرسل إليه سلطان مالي منسا موسى سفارة بها أحد رجال البلاط المالي ومعه أحد المترجمين من الملثمين من صنهاجة، وكان الهدف منها تهنئة سلطان المغرب على إنتصاره وإستيلائه على تلمسان.[2]

وقد بالغ السلطان أبو الحسن في استقبال الوفد المالي والإحتفاء به، ورد على هذه السفارة، بسفارة كبيرة ظهرت فيها أبهة السلطان المريني حيث تضمنت هدايا كثيرة إلى السلطان المالي، وقد وصلت هذه السفارة الى مالي في عهد منسا سليمان بن منسا موسى، الذي كان قد توفي منذ قليل.

وبعد وفاة السلطان أبي الحسن إستمرت العلاقة الطيبة بين المملكتين، وكان تبادل الهدايا والسفارات بين البلاطين أمراً يحظى باهتمام سلاطين الدولتين، فكان منسا سليمان قبل وفاة السلطان أبي الحسن قد أرسل هدية نفيسة إليه، ولكنها اختزنت في الطريق إلى المغرب بسبب وفاة مرسلها منسا سليمان، وظلت على هذه الحال حتى تولى ملك مالي منسا زاطة، فأمر بإرسال الهدية على الفور إلى السلطان أبي سالم المريني، وضم إلى الهدية حيوان الزرافة الغريب الشكل العظيم الهيكل، وكان يوم وصولها يوماً مشهوداً[3]، وأنشد الشعراء قصائدهم في ذلك.[4]

وصاحب هذه العلاقات السياسية الودية إنتقال بعض المؤثرات والتنظيمات الإدارية المرينية إلى دولة مالي، فكان بهذه الدولة الوزراء والقضاة والكتاب والدواوين، والجيش الذي وصل عدد الجند به إلى مائة ألف رجل.[5]

أما العلاقات الإقتصادية والتجارية بين الدولتين فلابد وأنها سبقت العلاقات الدبلوماسية بأمد بعيد، والمعروف أنها بدأت على المستوى الرسمي بين الدولتين في عهد منسا موسى. ومن المعروف أن ابن بطوطة قام بزيارة إلى مالي على رغبة من السلطان أبي عنان المريني، ويرى البعض أن الهدف الحقيقي وراء

---

[1]- عبدالهادي التازي، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور الى اليوم** أكاديمية المملكة المغربية . المغرب 1988. ص40.
[2]- محمد عيسى الحريري، مرجع سابق ص 222.
[3]- المرجع نفسه ص 223. ابن خلدون، ديوان العبر، المجلد7ص 644. عبدالهادي التازي، مرجع سابق ص 41.
[4]- أحمد المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،** حققه الدكتور احسان عباس، المجلد7، دار صادر بيروت 1988ص151. ابراهيم حركات ، مرجع سابق ص 92.
[5]- الهادي الدالي، مرجع سابق 74.

هذه الرحلة هو القيام بدراسة عملية للطرق والمسالك التجارية بين مالي والدولة المرينية، والوقوف على الحجم الحقيقي لتجارة الذهب بين مالي ومصر، وذلك للعمل على تحويلها ما أمكن الى البلاد المرينية .[1]

أما العلاقات الثقافية بين الدولة المرينية وبلاد السودان الغربي، فهي علاقة قديمة تمتد جذورها إلى قرون عديدة، وقد حمل التجار العبء الأكبر في إيصال المؤثرات الثقافية الأولى لهذه البقاع، وسرعان ما إقتفى العلماء أثر التجار وساروا معهم أو وراءهم ينشرون الإسلام، ومعه يبثون العلم العربي والثقافة العربية الإسلامية، حتى إن منسى موسى نفسه أصبح يجيد اللغة العربية ويلم بكثير من ألوان الثقافة العربية الإسلامية.[2]

ثانياً: العلاقات السودانية مع الدولة الوطاسية [3] (876-961هـ/1471-1553م): بالرغم من أن فترة حكم الوطاسيين كانت قصيرة، وعرفت الكثير من المشاكل والإضطرابات، فإنهم ظلوا على صلة وثيقة بممالك السودان الغربي، فقد أرسل ملك فاس محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي (1505-1524م) سفارة إلى مملكة سنغاي وبالذات إلى تنبكت في بداية القرن العاشر الهجري، حيث مثلت امام الأسكيا محمد توري الكبير (1493-1528م) رأس أسرة الأسكيين، وكانت برئاسة أحد أعمام الحسن بن محمد الوزان الذي كان برفقته، وهوما يزال في مقتبل العمر[4].

وكان مرور السفارة عن طريق درعة، وظلت سجلماسة حتى ذلك الوقت مركزاً تجارياً عظيماً يتبادل فيها التجار البضائع مع مصر والسودان[5].

ثالثاً: العلاقات السودانية مع دولة الأشراف السعديين[6](915-1069هـ/1510-1658م):

---

[1]- محمد عيسى الحريري، مرجع سابق ص 225.

[2]- مادينا تالي ، **تدهور إمبراطورية مالي** ، **تاريخ إفريقيا العام**المجلد الرابع، منظمة اليونسكو، 1988. ص 184.

[2]- بني وطاس: يعتقد أنهم ينتمون إلى صنهاجة، وبالتالي إلى لمتونة، وسبب دخولهم في قبائل بني مرين أنه لما إنقضت أيامهم وغلبهم الموحدون على ملكهم، خرج جدهم وطاس بن المعز بن تاشفين فاراً من تلمسان بنفسه أمام عبدالمؤمن بن علي أمير الموحدين، ولحق ببلاد الزاب، ولجأ إلى احياء بني مرين مستجيراً بهم فأجاروه، ولما ملك المرينيون المغرب كان بنو وطاس من جملة قبائلهم محسوبين عليهم وكان لهم فيهم رياسة، ولكنهم ما لبثوا أن بدأوا في الإنتفاض على بني مرين ، واتقاءاً لشرهم قاموا بتعيينهم في الوظائف السامية وكان بينهم القاضي المشهور أبوالحسن الصغير، والوزير زيان بن عمر، والوزير أبوزكريا يحي.

لمزيد من التفاصيل انظر: ابراهيم حركات، مرجع سابق، صفحات متفرقة.

[4]- ابراهيم حركات، مرجع سابق ص 208.

[5]- عبدالهادي التازي، مرجع سابق ص 315.

[2]- الأشراف السعديين: يرجعون نسبهم الى الحسن بن على بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكان ظهورهم في زمن دب فيه الضعف في دولة المرينيين منذ أوائل القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وقد أخذ الوطاسيون محل بني مرين في جنوب المغرب الأقصى ، كما قامت دويلات فيما تبقى من البلاد، وكان البرتغاليون جد حريصين على الإستيلاء على الموانيء الأطلسية للبلاد فاحتلوا أصيلة، وأغادير، وأسفي، وأزمور. بالإضافة إلى طنجة و القصر الصغير. أما على شواطيء البحر المتوسط فقد إستولى البرتغاليون على سبتة، كما استولى الاسبان على مليلة، ولم ينقذ المغرب الأقصى إلا قيام الدولة السعدية الشريفية، وكان محمد القائم أول السعديين(916-922هـ/1510-1517م)، ثم خلفه ابنه أحمد الأعرج (923-948هـ/1517-1541م)، ثم ابنه الثاني محمد الشيخ (948-965هـ/1541-1557م)؛ ثم أحمد المنصور المعروف بالذهبي والذي امتد حكمه ربع قرن من الزمان، قام خلاله بأعمال عمرانية وإدارية كبيرة في المغرب ، وحصن اطراف البلاد، وقد أرسل حملة إلى السودان الغربي قضت على مملكة سنغاي، سيرد تفصيلها في هذا الفصل . لمزيد من التفاصيل انظر:

- عبدالهادي التازي، مرجع سابق، المجلد الثامن، ص 8،
- كولين ماكيفيدي، مرجع سابق ص 132.
- أبوالعباس احمد بن خالد الناصري، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الجزء الخامس، دار الكتاب الدارالبيضاء، 1955. ص ص 3-16.
- ابراهيم حركات ، مرجع سابق ص ص 272-274.

تميزت العلاقات بين سلاطين السعديين وملوك السودان الغربي(الأساكي) بالتوتر والفتور في كثير من الأحيان، وتعتمد على الغرض والمنفعة وتحقيق مصالح إستغلالية مغربية في السودان الغربي، فمنذ ظهور السعديين (916هـ/1510م)، وقيام دولتهم بالمغرب، سعوا إلى البحث عن موارد ثابتة، تمكنهم من توطيد أقدامهم، وتساعدهم على تطوير الإقتصاد المغربي لما فيه رفاهية البلاد وإزدهارها خاصة في ظل الضائقة المالية التي عانوا منها نتيجة حروبهم المتواصلة مع اعدائهم[1].

فتوجه السعديون بأنظارهم إلى ثروات السودان الغربي من الذهب والرقيق، وقد ركزوا على مناجم الملح في تغازا[2]، والذي تعتمد عليه سائر بلاد السودان.[3]

وبالفعل فقد أرسل السلطان محمد الأعرج ثاني السلاطين السعديين إلى الأسكيا إسحاق الأول في عام (933هـ/1526م)، يطلب منه تسليم معدن تغازا، وكرر هذا الطلب السلطان محمد الشيخ خليفة الأعرج في عام (951هـ/1544م) بشأن التنازل عن نفس المعدن.[4]

المطلب الثاني: حملة المنصور الذهبي[5] على السودان الغربي(1591م/1000هـ):

عرفت العلاقات السعدية مع مملكة سنغاي كما ذكرنا نزاعًا مستمراً، بسبب الرغبة في السيطرة على ثروات السودان، وإنتهى ذلك بغزوه على يد السلطان أحمد المنصور الذهبي والقضاء على دولة صنغاي، في ظل ظروف داخلية وتحديات خارجية فرضت نفسها على المغرب وتوجهاته السياسية والإقتصادية.

الفرع الأول: ظروف الحملة المغربية على السودان:

- شوقي الجمل ، مرجع سابق ص 67.
- محمد علي عامر، محمد خير فارس، **تاريخ المغرب العربي الحديث** ، مديرية الكتب الجامعية، جامعة دمشق، ب ت ن، ص ص29-32.
- عبدالفتاح مقلد الغنيمي، **موسوعة تاريخ المغرب العربي**، الجزء السادس، مكتبة مدبولي، القاهرة 1994. ص ص110-112.

[1]- ابراهيم حركات، مرجع سابق ص 283

[4]- إقليم تغازا: يقع إلى الشمال من مدينة تنبكت، وهو مصدر الملح في السودان الغربي، عملت كل الممالك التي قامت بالسودان الغربي على السيطرة عليه، وكانت آخرها مملكة سنغاي، وذلك لقيمته الإقتصادية. الهادي الدالي، مرجع سابق، ص 122.

[3]- المرجع نفسه ، ص 123.

[4]-.ابراهيم حركات ، المرجع السابق، ص 284.

[2]- أحمد المنصور الذهبي(1578-1603): من أعظم ملوك الدولة السعدية، وسنورد تفاصيل سيرته في هذا المطلب. انظر محمود علي عامر ومحمد خير فارس، مرجع سابق ص 54.

أولاً: الظروف الداخلية للمغرب الأقصى :

واجهت المغرب في زمن الحملة ظروفاً داخلية إرتبطت بمصير الدولة ومستقبلها، فقد انطلقت دعوة السعديين في ظل إنقسام داخلي كبير، وتهديد خارجي من طرف البرتغاليين بشكل خاص أدى إلى حدوث معركة وادي المخازن الشهيرة، ومجيء المنصور الذهبي إلى الحكم.

1- معركة وادي المخازن[1] وتأثيرها (968هـ/1578م):

وقع صراع داخل الأسرة السعدية حول الحكم في المغرب ما بين أبومروان عبد الملك وأخيه أبوالعباس المنصور من جهة، وإبن أخيهما أبي عبدالله المتوكل على الله من جهة أخرى[2].

وقد استعان عبدالملك في هذا النزاع بالأتراك لعزل المتوكل، والذين أنجدوه بجيش عظيم تمكن به من طرد ابن أخيه[3]، ودخل فاس منتصراً وبايعه الناس سنة 983هـــ، وبذلك استقر له الملك في المغرب وأصبح يلقب بالسلطان المعتصم بالله.[4]

وقد نال عبدالملك خبرة واسعة في شؤون الإدارة والجيش، والسياسة في الجزائر أثناء إحتكاكه بالأتراك[5]، فما إن تولى حكم المغرب حتى عكف على تنظيم الجيش تنظيماً جديداً، على غرار الجيوش التركية[6].

ولما فر المتوكل، قصد مراكش وطاف في قبائل السوس [7]، وكون منهم جيشاً تقدم به إلى مراكش فنشبت معارك طاحنة بينه وبين جيوش عمه، فانهزم فيها هزيمة نكراء، ولكنه استطاع أن ينجو بنفسه وتنقل بين أماكن عديدة إلى أن بلغ سبتة ثم طنجة. وهناك تمكن من مقابلة ملك البرتغال "سان سبستيان"، وطلب منه أن ينجده بجيوشه ضد عمه على أن يسلمه الشواطىء المغربية ويحتفظ هو بالمناطق الداخلية[8]، فوافقه الملك البرتغالي على ذلك[9]، لأنه رأى فيها فرصة ينفذ بها إلى المغرب والسيطرة عليه [10]، عليه[10]، وتغاضى عن نصائح مستشاريه وحاشيته بعدم التورط في بلاد المغرب[11] .

---

[3]- حملت هذا الاسم لأنها وقعت على ضفاف هذا الوادي، كما سميت بمعركة القصر الكبير لأنها حدثت على مقربة من المدينة التي تحمل هذا الإسم، أيضاً سميت بمعركة أصيلا، وسميت بمعركة الملوك الثلاثة لأنها شهدت مصرع ثلاثة ملوك هم سبستيان ملك البرتغال، والمتوكل الملك المخلوع المستنجد بالبرتغاليين، وعبدالملك السعدي. مصادر متفرقة.

[2]- أبوالعباس الناصري، الاستقصا ج 5 ص 65.

[1]- شوقي الجمل، مرجع سابق، ص 175.عزيز سامح، **الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية**،ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت 1989.ص 249.

[4]- إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص 292.

[5]- شوقي ضيف، **عصر الدول والإمارات**، دار المعارف، القاهرة، ب ت ن ، ص 292.

[6]- شوقي الجمل، مرجع سابق، ص 176.

[7]- ابوالعباس الناصري، الاستقصا ج5 ص 67.

[8]-الناصري، المصدر السابق، ص 69.

[9]- محمود علي عامر ومحمد خير فارس، مرجع سابق ، ص 53. عبدالهادي التازي، مرجع سابق، ص 100.

[10]- عبد الفتاح مقلد الغنيمي، مرجع سابق ، الجزء 6 ص 175. شوقي الجمل، مرجع سابق ص 177.

[11]- ابوالعباس الناصري، مصدرسابق ج5 ص 83..

وهكذا قام ملك البرتغال باعداد جيش عظيم قوامه ثمانين ألفاً من الرجال تقريباً، مدججين بالبنادق والمدافع وسائر وسائل القتال الحديثة، في ذلك الوقت، وتقدموا نحو القصر الكبير بالمغرب [1]. وما إن علم السلطان عبدالملك بتقدم الجيوش البرتغالية، حتى استعد استعداداً عظيماً من جانبه، وترك العدو يتوغل داخل البلاد عمداً[2].

وفي يوم الإثنين 6 أغسطس1578م الموافق لـــ 30جمادى الأولى 986هـــ، تقابل الجيشان المغربي والبرتغالي، قريباً من القصر الكبير، على وادي المخازن، وقبل نشوب المعركة بعث عبدالملك فرقة من جيشه لهدم القنطرة الوحيدة[3]، التي كانت على النهر، كي يتعذر على العدو الفرار إذا ما انهزم. [4]

ثم التحم الطرفان في واقعة عظيمة، دوى فيها الرصاص وقنابل المدافع، واختلط الحابل بالنابل، وتلونت مياه النهر بدماء القتلى والجرحى، و لم يمض وقت طويل حتى لاحت بشائر النصر للمغاربة الأبطال، وحلت الهزيمة بالبرتغاليين [5]، وتوجهت فلولهم نحو القنطرة للنجاة بأنفسهم، فوجدوها مهدمة فألقوا بأنفسهم في النهر[6].

وهكذا إنتهت المعركة بفناء الجيوش البرتغالية، وموت ملكها "سبستيان"، والمتوكل الذي إستنجد به، وانتشل الناس جثة الخائن من النهر، وسلخت وحشي جلده تبناً [7]، وطيف به في الأحياء، جزاءًا على خيانته للدين والوطن.

وفي نفس اليوم، وأثناء المعركة فاضت روح السلطان عبدالملك، لأنه كان مريضاً جداً من قبل، ولكن همته العالية وإخلاصه لوطنه جعلاه يصر على حضور المعركة ويشهد نتيجتها سواء بالنصر أوبالهزيمة، غير أن المنية عاجلته و القتال مستمر[8].

ومن فطنة أبي العباس أحمد أخو الملك، أنه لم يفش سر وفاته في تلك اللحظات الحاسمة، بل ظل يصدر الأوامر إلى القواد والجنود، على أنها من سلطانهم المريض، و لم يطلع الناس على خبر الوفاة إلا بعد إنتهاء المعركة وتحقيق النصر المبين [9]، وإتفقت كلمة الجميع على تولية أبي العباس أحمد الذي لقب بالمنصور[10].

---

[1]- عبدالفتاح الغنيمي، نفس المرجع، ص 178.
[2]- محمود علي عامر ومحمد خير فارس، مرجع سابق ص 54.
[3]- عبد الفتاح الغنيمي، مرجع سابق، ص 183. شوقي الجمل، مرجع سابق، ص 178.
[4]- ابراهيم حركات، مرجع سابق، ص 293.
[5]- ابوالعباس الناصري، مصدر سابق ج5 ص 80. عزيز سامح، مرجع سابق ص ص 256-257.
[6]- عبدالهادي التازي، مرجع سابق ص 108.
[7]- ابراهيم حركات، مرجع سابق ص 294.
[8]- عبدالفتاح الغنيمي، مرجع سابق ص 185.
[9]- ابو العباس الناصري، مصدر سابق ج5 ص 81. عبدالهادي التازي، مرجع سابق ص 104.
[10]- شوقي الجمل، مرجع سابق ص 180.

وقد اسر من البرتغاليين فلولاً عظيمة قدرت بنحو أربعة عشر ألفاً افتدوا بمال ضخم من الذهب [1]، حتى أن بعض المؤرخين يرجع لهذا السبب في تسمية المنصور بـــ"الذهبي"، إذ كان ما حصل عليه من الذهب من البرتغال، في تقديرهم أكثر مما جلبه من السودان فيما بعد. أما جثة "سبستيان" فقد أرجعها المنصور إلى البرتغال[2] ورفض أن يقبض المال مقابل ذلك.

أما نتائج موقعة وادي المخازن[3] فيمكن إجمالها فيما يلي:

- تعد المعركة من أهم المعارك في تاريخ المغرب، شبهها المغاربة بمعركة بدر، وقد تركت لأحمد المنصور رصيداً مادياً ومعنوياً جعل منه واحداً من أشهر سلاطين المغرب، فقد تدفقت الأموال البرتغالية مساهمة في إزدهار تجارة المغرب [4]، وأتاح النصر فرصة الإستقرار للمغرب، والتفرغ للبناء والتعمير، كما ازدهرت الحركة الفكرية والأدبية وبرز الكتاب والشعراء والأدباء .

- تركت هذه المعركة آثاراً بعيدةً، ليس فقط بالمغرب، بل في العالم الإسلامي والمسيحي أيضاً. فبالنسبة إلى المغرب، فقد إستعادت الوحدة الوطنية قوتها طيلة حكم المنصور السعدي [5]، كما فرضت الدولة السعدية هيبتها وأمكن لها أن تقضي على المخططات الإستعمارية والمطامع التوسعية التي تعرضت لها البلاد منذ استولى البرتغال على سبتة عام 1415م. وتم إيقاف زحف البرتغاليين نحو المغربين الأوسط والأدنى.

- دعم هذا النصر نفوذ السعديين في المغرب وفرض إحترامهم على الجميع سواء في العالم الإسلامي أو في أوروبا، وكان أول ما قام به المنصور هو أن كتب لملوك الإسلام ينبئهم بهذا الإنتصار العظيم[6]، فتقاطرت عليه الوفود مهنئة ومحملة بالهدايا من القسطنطينية ومصر والجزائر وتونس وفرنسا وإسبانيا، بعد أن كان الجيش العثماني بالجزائر يتهيأ لحملة جديدة ضد المغرب، بهدف غزوه بحجة أن عبدالملك نكث في عهوده للعثمانيين إلا أنهم عدلوا عن ذلك بعد المعركة.

- أدت نتائج هذه المعركة، إلى تحطيم البرتغال وتركها فريسة سهلة أمام فيليب الثاني ملك إسبانيا الذي نجح في ضمها بعد عامين من ذلك سنة 1580م[7].

وبدأ ملوك أوروبا ينظرون إلى المغرب كدولة كبرى يخطبون ودها [1]، ويحسبون حسابها في خططهم الدبلوماسية[2].

---

[1]- عبدالفتاح الغنيمي، مرجع سابق ص 187.
[2]- ابوالعباس الناصري، الإستقصا ج5 ص 84.
[3]- محمود عامر ومحمد فارس، مرجع سابق ص 55.
[4]- شوقي الجمل، مرجع سابق ص 181.
[5]- ابراهيم حركات، مرجع سابق، نفس الصفحة.
[6]- ابوالعباس الناصري، مصدر سابق ج5 ص 86.
[7]- نفسه ص 85.

2- تولي المنصور الذهبي الحكم في المغرب (986-1012هـ/1578-1603م) : ولد أبوالعباس أحمد بن السلطان أبي عبدالله الشيخ بفاس سنة 956هـ، ونشأ في عفاف وصيانة وتعاط للعلم .[3] وعرف عنه أنه كان مثال الشجاعة والإقدام، وحسن التبصر وسعة الخبرة والإنصاف، وكان على جانب كبير من الفضل والعلم والأدب، وقد ألف كتاباً في السياسة بنفسه .[4]

تولى أبو العباس أحمد الملقب بالمنصور عقب وفاة أخيه عبدالملك في معركة وادي المخازن كما ذكرنا سابقاً، فأضاف إلى ذلك النصر إنتصارات أخرى ضد البرتغال، وكان لذلك صدى في نفوس المغاربة الذين تشجعوا، وضاعفوا من نشاطهم ضد النصارى، حتى تمكنوا من إخراجهم من أصيلا سنة 996هـ.

وطد المنصور الأمن في البلاد، وفي زمنه كثر العمران، وإزدهرت العلوم والآداب [5] . وقام بتكوين مجلس ديمقراطي سماه "الديوان"، ومهمته أن يجتمع أفراده المختارون من رجال السياسة والعلم، ليتناقشوا في مصالح الأمة وأمورها[6].

وإهتم المنصور بتنظيم الجيش ، ولكنه أضاف إليه تقاليده المغربية، إلى جانب الأساليب التركية المعاصرة، مخالفاً بذلك عمل اخيه عبدالملك، الذي كان جيشه ذا نظام تركي محض، فأرضى المغاربة بذلك.[7]

ويقال إن قصر البديع الذي بناه في مراكش كان أعظم قصر بني في عهد السعديين، لما إحتواه من روعة الهندسة وجمال الفن، كما بنى المنصور الحصون المتعددة، التي مازال بعضها قائماً في فاس والعرائش إلى اليوم.[8]

وكانت مادة السكر موجودة في المغرب في العهد السعدي بكثرة، حتى فاضت عن حاجة البلاد، وأخذ المنصور يصدرها إلى الخارج، فكان يدفع السكر إلى ايطاليا فتدفع له ما قيمته رخاماً، كما أحدث عدة مصانع للمادة في البلاد.[9]

---

[1]- عبدالفتاح الغنيمي، مرجع سابق ص 188.
[2]- شوقي الجمل، مرجع سابق ص 183.
[3]- أبوالعباس الناصري، الاستقصا ج5 ص 89.
[4]- محمد الأمين محمد ومحمد علي الرحماني، مرجع سابق ص 197.
[5]- ابراهيم حركات، مرجع سابق، ص 310.
[6]- المرجع نفسه 296 . الناصري، الاستقصا ص 188.
[7]- محمود عامرومحمد فارس، مرجع سابق ص 58.
[1]- محمد الأمين محمد ومحمد علي الرحماني، مرجع سابق ص 199.ابراهيم حركات، نفس المرجع و الصفحة.الناصري، الاستقصا ج5 ص ص 135-137
[9]- محمود عامر ومحمد فارس، مرجع سابق 59.

لما إستقر الأمر للمنصور بمراكش، وأمن هجوم الأوروبيين من الشمال والغرب، كما أمن هجوم الترك من الشرق [1]، تاقت نفسه إلى مد سلطانه فبعث بعساكره إلى الجنوب حيث إستولى على بلاد تيكورارين وتوات من أرض الصحراء[2] وما إنضاف إليها من القرى والمداشر، وقد وصف الناصري ذلك ذلك بقوله:" إذ كان أهل تلك البلاد قد إنكفت عنهم أيدي الملوك و لم تسسهم الدول منذ أزمان ولا قادهم سلطان قاهر إلى ما يراد منهم، فسنح للمنصور أن يجمع بهم الكلمة ويردهم إلى أمر الله، فبعث إليهم....في جيش كثيف فقطعوا إليهم القفر من مراكش، وإنتهوا إليهم على سبعين مرحلة منها، فتقدموا إليهم أولاً بالدعاء للطاعة والإعذار والإنذار، فامتنعوا فنازلوهم وقاتلوهم وطالت الحرب بينهم اياماً، ثم كان الظهور لجيش المنصور فأوقعوا بهم...". [3]

وبعد أن إستتب له الأمر هناك بدأ المنصور في التطلع إلى بلاد السودان بغية السيطرة على مناجمها وثرواتها، وهو هدف كان يسعى إليه كثير من السلاطين المغاربة من قبله، لكن الظروف لم تكن متوفرة كما هي للمنصور، وقد غزاها بالفعل وقضى على مملكة سنغاي، بالرغم من أنها كانت بلداً إسلامياً تحكمه حكومة إسلامية، وسنورد الدوافع والأهداف التي جعلت المنصور يغزو السودان ووقائع ذلك فيما بعد.

وفي سنة 1012هـ توفي المنصور الذهبي[4]، فانفرط بذلك عقد الدولة السعدية، إذ مال أبناؤه من بعده بعده إلى التناحر من أجل العرش، فعمت الفوضى، وقامت الفتن والثورات[5].

ثانياً: الظــــروف الخارجية :

إرتبط تاريخ شمال إفريقيا والمغرب العربي بالعالم الإسلامي، كما إرتبط إلى حد كبير بالتاريخ الأوروبي، خاصة دول جنوب أوروبا بحيث يصعب فهم تاريخ شمال إفريقيا، والمغرب بشكل خاص في فترة الدراسة دون الإلمام بالأحداث التي كانت تتفاعل في هذه الأقاليم الأوروبية، وتلك التي كانت تحدث في العالم العربي [6]. وقد عرفت المنطقة أحداثاً مهمة لعل أبرزها الغزو الاسباني البرتغالي على السواحل المغاربية، وطرد المسلمين من الأندلس ، وكذا إمتداد الحكم العثماني إلى المغرب الأوسط.

---

[1]- كانت الظروف الخارجية مواتية للمنصور فقد كانت أوروبا تعيش في فترة صراع دولي بين إسبانيا من جهة وإنجلترا وفرنسا والبلاد المنخفضة من جهة أخرى ، وقد شلت هذه الحروب نشاط إسبانيا في إفريقيا ودفعتها إلى إلتماس العون من المغرب، كما كانت الدولة العثمانية مشغولة في أوروبا، وفي صراعها مع الدولة الصفوية في إيران، وفي إضطرابات البلاد العربية ولم يكن بإمكانها تهديد المغرب تهديداً جدياً وذلك من جراء تراجع قوتها. وقد استخدم المنصور هذه العوامل ببراعة حيث كان يستعمل اسبانيا ضد الأتراك تارة، وتارة اخرى يستخدم إنجلترا وأسواقها ضد اسبانيا وفق ما تقتضيه مصلحته .

[2]- المرجع نفسه، ص 298.

[3]- الناصري، مصدر سابق ج5 ص 98.

[4]- الناصري، الاستقصا ج5 ص ص 186-187.

[5]- الحسن السائح، **الحضارة الإسلامية في المغرب**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط2، 1986. ص 323.

[6]- شوقي الجمل، مرجع سابق ص 41.

1- الغزو البرتغالي للسواحل المغربية:

في الوقت الذي دب فيه الضعف والإنحلال في جسد الدولة المغربية مع نهاية عصر بني مرين، كانت الدولة البرتغالية الحديثة تتكون وتتوطد، وإنطلقت بها النهضة العلمية والصناعية ، وتولد الشعور القومي في كامل شبه الجزيرية الإيبيرية خلال الصراع مع المسلمين، فاتسم بالسمة الدينية[1] .

وإمتدت آثار هذا الصراع إلى شمال إفريقيا، فقد حمل مسيحيو الأندلس شمال إفريقيا تبعة الغزو الإسلامي لبلادهم وتدعيم هذا الغزو، كما صبوا جام غضبهم على المسلمين في إسبانيا، ففر منهم من إستطاع الفرار بدينه، وبقي من عجز عن الهرب [2]. وتعقب المسيحيون المسلمين الفارين إلى الشمال الإفريقي[3]، وقامت حروب طاحنة أطلقوا عليها إسم حروب الإسترداد[4] .

وقد أعطت هذه الحروب للبرتغال دفعة دينية قوية، بدليل أن الملك "يوحنا" والد الأمير "هنري "[5] الذي عرف فيما بعد باسم "هنري الملاح" قد صرح بأن الميدان الحقيقي الذي يكسب فيه أفراد العائلة الملكية الفخار هو ميدان الجهاد ضد المسلمين في المغرب، وأنه يمنح أكبر وسام في بلاده وهو وسام "السيد الأعظم" لمن يجاهد في هذا الميدان، وكان هذا الشرف من نصيب "هنري" الإبن الثالث للملك والذي تصدى لهذه المهمة[6].

هذا الأخير، هو الذي حكم البرتغال فيما بعد (1394-1460م)، وقد راودته فكرة رسم خطة كاملة لحملات بحرية تستولي على سواحل إفريقيا الشمالية، بل وتتابع إلى الجنوب، حيث مصادر الثروة التي كانت تعتبر الأساس الذي يعتمد عليه المسلمون في بناء وتدعيم جيوشهم، وكانت هذه الخطة تتجه أولا للوصول إلى "غانة" التي ذاعت شهرتها لثروتها وتجارتها مع المسلمين، وكانت ثغور المغرب تعتبر المنافذ الرئيسية لهذه التجارة [7]. كما كانت تهدف إلى نشر المسيحية ببلاد المغرب، وتوطيد العلاقة مع أثيوبيا المسيحية بغية تطويق العالم الإسلامي [8]، وقد جاءت هذه الخطة متزامنة مع إنطلاق حملات

---

[4]- محمود عامرومحمد فارس، مرجع سابق ص 16.وايضاً: واشنطن ارفنغ، **أخبار سقوط غرناطة**، ترجمة هلاني يحي نصري، مؤسسة الإنتشار العربي، بيروت 2000. صفحات متفرقة.

[2]- الفريد البستاني، **نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر**، مكتبة الثقافة الدينية، 2002. ص 45.

[3]- الحسن السائح، مرجع سابق ص 326.

[4]- شوقي الجمل، مرجع سابق ص 42.

[5]- كولين ماكفيدي، مرجع سابق ص 109.

[6]- عبدالعزيز نوار ومحمود جمال الدين، **التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب لعالمية الثانية** دار الفكر العربي، 1999. ص 59

[7]-عبدالعزيز نوار، مرجع سابق، ص 60.

[8]- نفسه ص 61.

الكشوف الجغرافية التي تمكن البرتغاليون من خلالها الإلتفاف حول إفريقيا عبر طريق رأس الرجاء الصالح[1] .

وهكذا استولى البرتغال على ثغر سبتة سنة 818هـ، في العهد المريني، أي قبل سقوط غرناطة بنحو 76 سنة، وذلك بسبب حيلة إستعملوها، وهي أنهم أنزلوا بمرساها عددا من الصناديق على إعتبار أنها بضائع وسلع، بينما كانت تحتوي على حوالي أربعة آلاف جندي، فانقض هذا الجيش على السكان الآمنين بغتة، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وإحتلوا المدينة.[2]

وفي سنة 869هـ احتل البرتغال مدينة طنجة، وقد أتوا إليها من سبتة، وظلت بأيديهم مدة طويلة من الزمان، ثم قدموها هدية إلى ملك الإنجليز بمناسبة المصاهرة التي تمت بين الأسرتين الملكيتين، البرتغالية والإنجليزية.

وفي سنة 874هـ استولوا على آنفي، التي سميت فيما بعد بالدار البيضاء، وظلت بايديهم مدة أربعين سنة، وفي سنة 876هـ احتلوا اصيلا، وألقوا القبض فيها على الأمير محمد بن السلطان محمد الشيخ الوطاسي، كما قبضوا على أسرته. وظل هذا الأمير في الأسر عند البرتغاليين مدة سبع سنين إلى أن إفتكه والده بمال جسيم، ومنذ ذلك الوقت عرف الأمير الأسير بالبرتغالي.[3]

وإنتهز البرتغال إنشغال الوطاسيين بالدفاع عن السواحل الشمالية للمغرب، للإستيلاء على الثغور الجنوبية غير المحصنة والتي لم يكن بها أي دفاع منظم، فاستولى على حصن فونتي(أغادير) سنة 875هـ، وعلى آسفي سنة 910هـ، وآزمور سنة 918هـ[4]، وكان الإسبان قد إستولوا على العرائش بالشمال في عهد محمد البرتغالي. وكان انشغال الوطاسيين عن الدفاع عن الجنوب من الأسباب التي ساعدت على ظهور الدولة السعدية سنة 915هـ[5].

وفي الوقت الذي كان فيه البرتغاليون يستولون على ثغور المغرب، كان الإسبان يستولون على ثغور المغربين الأوسط والأدنى، فقد استولوا على بجاية سنة 910هـ، وعلى وهران سنة 914هـ، وعلى تلمسان سنة 923هـ[6]. ولكن الترك استطاعوا أن يطردوهم منها [7]، واستمر الصراع بين المغاربة والبرتغاليين زهاء 364 سنة.

---

[1]- محمد حمدي علي، **الكشوف الجغرافية من القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر،** مطبعة الجمالية، القاهرة 1913. ص ص 12-14.
[2]- عبدالفتاح الغنيمي، مرجع سابق، ص 75.
[3]- المرجع نفسه، ص 80.
[4]- عبدالفتاح الغنيمي، مرجع سابق، ص 83.
[5]- محمد محمد ومحمد الرحماني، مرجع سابق ص 182. عبدالهادي التازي، مرجع سابق ص 7.
[6]- الغنيمي، مرجع سابق، ص 85.
[7]- بسام العسلي، **خير الدين بربروس،** دار النفائس،بيروت 1980، صفحات متفرقة.

2- العــلاقات المغربية العثمانية :

تراوحت علاقات المغرب بالأتراك العثمانيين بين التعاون تارة، والصراع تارة أخرى بسبب تداخل المصالح بين الطرفين، خاصة فيما تعلق بالأوضاع الداخلية للمغرب الأقصى، ورغبة العثمانيين الدائمة في التوسع نحو المحيط الأطلسي غرباً.

فقد سعى الأتراك العثمانيون منذ الوهلة الأولى التي دخلت فيها قواتهم إلى الموانىء والديار المغاربية في الجزائر وتونس وطرابلس على العمل على كسر شوكة القوى الأوروبية المسيحية [1]، ومنعها من تنفيذ مخططاتها لإحتواء الأراضي المغربية وخاصة في المغرب الأقصى. ومن ثم كان إرسالها شحنات السلاح التركية الوفيرة للمغاربة في أثناء جهادهم لتحرير السواحل والمدن المغربية.[2]

ولكن إزاء تطور القوة العسكرية المغربية فإن خلافاً قد حدث بين إتجاه حكام المغرب الأقصى من السعديين، وبين سلاطين آل عثمان الأتراك، ذلك لأن السعديين الذين كانوا يعتزون بنسبهم القرشي الشريف كانوا يرفضون الإعتراف بالخلافة العثمانية بإعتبار أن الأتراك أعاجم [3]، وسعوا إلى الترويج إلى فكرة الخلافة المغربية على سائر البلاد الإسلامية وخاصة البلاد المغربية [4]، كما رفضوا الوصاية الخارجية حتى ولو كانت من دولة إسلامية كبرى كالإمبراطورية العثمانية .

كما أن الخلافة العثمانية من جانبها حاولت مراراً بسط نفوذها على المغرب الأقصى، بعد أن إستتب لها الأمر في سائر بلاد المغرب بعد أن قامت بدور عظيم في تحرير سواحله من الإحتلال الإسباني[5]، فدخل فدخل الطرفان في تنافس شديد وفي علاقات حذرة بينهما، تطورت في أحيان كثيرة إلى الصراع المسلح.

وقد دُشنت العلاقات المغربية العثمانية بعهد محمد الشيخ السعدي منذ أن إلتجأ أبو حسون الوطاسي إلى الجزائر، فعمد محمد الشيخ إلى غزو تلمسان سنة 957هـ(1551م)[6]، وكان رد الأتراك أن إحتلوا فاس سنة 961هـ ونصبوا أبا حسون، ولكن لم يلبثوا أن إنسحبوا بعد الحصول على تعويضات هامة من جهة[7]، ولتركهم الجزائر بلا دفاعات هامة من جهة أخرى، مما فسح المجال للسعديين للسيطرة عليها مجدداً.

5- محمد العروسي المطوي، **السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي** دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986.ص 669.
2- عبدالفتاح الغنيمي، مرجع سابق 299.
3- عبدالعزيز سامح، مرجع سابق ص 176.
4- الغنيمي، نفس المرجع والصفحة السابقة.
5- عبدالعزيز سليمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، دار الفكر الإسلامي، بدون مكان وتاريخ النشر. ص 106.
6- عبدالهادي التازي، مرجع سابق ص 16.
7- ابراهيم حركات، مرجع سابق ص 341. الناصري، الإستقصا ج5 ص 28. عبدالعزيز سامح، مرجع سابق، ص 187.

وفي سنة 964هـ/1557م، تم إغتيال محمد المهدي على يد جماعة من الأتراك، مما أدى إلى توتر العلاقات المغربية العثمانية فترة من الزمن[1]، ثم هاجم الأتراك المغرب بجيش قاده حسن بن خيرالدين باشا، ولكنهم إنهزموا عند وادي اللبن، وذلك في عهد الغالب سنة 965هـ[2]، و لم يقبل الغالب بدوره الإعتراف بالخلافة العثمانية.

أما عبدالملك وأحمد المنصور فقد إلتجآ منذ وفاة والدهما إلى البلاط العثماني للسيطرة على العرش المغربي، فأمدهم الأتراك بجيش-كما ذكرنا سابقاً- قوامه خمسة آلاف مقاتل من أتراك الجزائر، وبفضل هذا الجيش سيطر عبدالملك على فاس وبويع سلطاناً، بينما إنسحب الأتراك مقابل تعويضات إلتزم الأخوان من قبل بادائها وكان ذلك سنة 983هـ[3]. وقد وقع خلاف حول ما اتفق عليه من قبل ما بين الأخوين والأتراك مما أدى بهم إلى تجهيز حملة ضد المغرب، توقفت بعد الإنتصار العظيم في معركة وادي المخازن[4].

ومنذ عهد المنصور الذهبي إتسمت العلاقات بالتوتر حيناً خاصة في حالة التدخل العثماني في شؤون العرش المغربي[5]، وبالتقارب والتعاون بعد تزايد الخطر الإسباني بعد ضمها للبرتغال سنة 1580م، وتبادل فيها الطرفان الكثير من الهدايا والسفارات.(الوثيقة رقم01 بالملاحق).

وقد تحسنت العلاقة بين الطرفين في أواخر عهد المنصور بسبب إنشغال السلطان العثماني بالحرب مع النمسا، والإضطرابات داخل البلاد العربية. بينما فترت العلاقة بعد وفاته بسبب إنشغال كلا الطرفين بمشاكله الداخلية.

3- ضعف مملكة صنغـــاي:

شهدت مملكة صنغاي بعد إقصاء السلطان الأسكيا الحاج محمد من الحكم سنة 1586م، حالة من التصدع في العلاقات داخل البيت الحاكم، ترتب عنها إنعكاس على الحالة السياسية والإقتصادية للمملكة، وظهر التناحر بين أبناء الأسكيا بغرض السيطرة على الحكم، وبدأ التدهور يظهر في أمور الدولة، وحدث التمرد من أمراء المقاطعات والقبائل[6]، فقد ثار "الصديق" والي منطقة تنبكتو، وقام بغزو

---

[1]- الهادي التازي، مرجع سابق ص 9، الناصري ، الإستقصاج5 ص 32.
[2]- الهادي التازي ، ص 30. الناصري، الاستقصا ج5 ص 39.
[3]- إبراهيم حركات، مرجع سابق ص 342.
[4]- عبدالعزيز سليمان، مرجع سابق ص 110.
[5]- الناصري، الإستقصا ج5 ص 95. عبدالعزيز سامح البر، مرجع سابق ص 265.
[6]- الهادي الدالي، مرجع سابق، ص 197.

"غاو" عام 1588م، على رأس قوات المقاطعات الغربية، ونصبته تمبكتو أسكيا ولكنه لم يصمد أمام أسكيا غاو الجديد "إسحاق الثاني"، الذي قمع الثورة بوحشية وأباد جيوش الغرب[1].

وهكذا إنقسمت مملكة صنغاي من الناحية المعنوية، وأصبحت تعاني من فوضى سياسية، وإقتصادية، وإجتماعية، مما أصبح يعرضها أكثر من أي وقت مضى للغزو الخارجي، وهذا ما إستغله المغاربة بزعامة احمد المنصور الذهبي، الذي جهز حملة عسكرية لغزو السودان إنتهت بالقضاء على المملكة.

الفرع الثاني: دوافع الحملة المغربية على السودان:

لقد هيأت الظروف الداخلية والخارجية للمغرب في عهد المنصور الذهبي الأجواء لهذا الأخير للتوجه جنوباً نحو السودان لتحقيق جملة من الأهداف والدوافع، تعددت مجالاتها سياسياً، عسكرياً، إقتصادياً، ودينياً.

1- الدوافع السياسية: ويمكن أن نجملها في النقاط التالية :

أ- الأجواء الدولية وعملية الغزو:

لا شك أن التطورات السياسية والتهافت الإستعماري والصراعات الدينية التي قادت عند نهاية القرن السادس عشر إلى مجابهات بين دول غرب أوروبا وفي جنوبها، قد فتحت الطريق أمام المنصور لتنفيذ مخططاته، فقد كان المغرب في مأمن عن الخطر والغزو، ولو لفترة محدودة.

ولكن هذه التطورات نفسها أدت إلى إقفال أبواب الشمال والشرق في وجه المغرب بعد ضياع الأندلس، وإمتداد الحكم العثماني إلى الجزائر، لأنه كان من مألوف الأمور عند ملوك المغرب من أيام المرابطين ثم الموحدين أن يتوسعوا في الأندلس أو الجزائر، إلا أن إستيلاء ملوك إسبانيا على بلاد الأندلس جعل التوسع هناك متعذراً، وإستتباب الأمر في الجزائر للأتراك حال دون الإنسياح شرقاً، ففي المشاورة التي عقدها المنصور لأخذ رأي نصحائه في غزو السودان- سنأتي على ذكرها لاحقا- أورد ما ذكرناه قائلاً:" فاعلموا أن المرابطين صرفوا عنايتهم لغزو الأندلس ومقاتلة الإفرنج ومن بذلك الساحل من أمم

---

[3]- س م سيسوكو، **الصنغي من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر، تاريخ إفريقيا العام،** المجلد4، اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1988. ص 208.

الأروام، والموحدون إقتفوا سبيلهم في ذلك وزادوا بحرب ابن غانية، والمرينيون كانت غالب وقائعهم مع بني عبدالواد بتلمسان، ونحن اليوم قد إنسدت أبواب الأندلس بإستيلاء العدو الكافر عليه جملة، وإنقضت عنا حروب تلمسان ونواحيها من الجزائر باستيلاء الترك عليها"[1].

وفيما كان المغرب منذ بداية النصف الثاني من القرن السادس عشر، يمثل بالنسبة إلى أوروبا الجسر الأكثر ملاءمة للعبور إلى إفريقيا الغربية والهند والعالم الجديد [2] عن طريق سواحله المترامية الأطراف، وبفضل موانئه العميقة، كان في نظر العثمانيين المنطقة الغنية الآهلة التي إستعصت على جيوشهم، والبلد العربي الوحيد الخارج عن دائرة خلافتهم[3].

ومعنى هذا أن المنصور كان يرى في إحتلال بلاد السودان منفذاً عسكريا وإقتصادياً للمغرب إلى الجنوب فرضته عليه الظروف.

ب- الحيلولة دون تطويق المغرب من الجنوب:

لقد إتجه جهد السعديين بشكل عام إلى تحرير السواحل المغربية في الشمال، أما في الجنوب فكان العمل بنظرهم وقائياً يرمي إلى منع العثمانيين من الوصول إلى وسط وغرب إفريقيا، وشل حركة المستعمرات البرتغالية التي قامت في منطقتي "أركان" و"غامبيا "[4]، ومنع القوات المتواجدة فيها من التوغل شرقاً والوصول إلى مصادر الذهب والملح، وبالتالي منع أي إمتداد نحو المغرب في المستقبل مع حرمانه من ثروات السودان التي يريدها لنفسه.

لقد لعبت هذه الجيوب الإستعمارية دوراً كبيراً في تحويل التجارة القائمة بين المغرب والصحراء وتزايد خطرها بالرغم من زوال دولة البرتغال الأم، إذ قامت بمهمات تجارية كثيرة أهمها تجارة العبيد ومبادلة الذهب بمصنوعات مختلفة، وكان هناك تبشير مسيحي، كما كانت هناك حملات عسكرية محدودة وتجارة لبيع السلاح إنطلاقاً من أربع مستعمرات صغيرة على الساحل الغربي لإفريقيا[5].

---

[1]- الناصري، الإستقصا ج5 ص 113.

[2]- ويقصد به الأمريكيتين، الشمالية والجنوبية.بحيث إحتلت البرتغال البرازيل وإسبانيا بقية أمريكا الجنوبية كلها.

[3]- محمد الغربي، **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، مكتبة الإسكندرية،2005. ص 88.

[3]- نزل البرتغاليون أول مرة على ساحل إفريقيا الأطلسي، في عهد منسا محمود الأول عام 1484، وبنوا أكواخاً من الخشب في رأس أركان شمال مصب نهر السنغال. وفي عام 1553م، في عهد حكم منسا محمود الثاني فقد إختاروا بعد إستكشافات طويلة، موقعاًمنيعاً في غامبيا السفلى وسط ساحل بلاد السنغال، ولكنهم واجهوا في هذه المرة مقاومة عنيدة من الماليين ثم أسسوا قلعة أخرى أطلقوا عليها إسم "مينا" في ساحل الذهب(غانا) لم تسبب لدى القبائل المجاورة أي قلق.

[5]- محمد الغربي، مرجع سابق، ص 149.

وقد فوجىء المنصور بحلول جيش إسباني مكان الحامية البرتغالية، في أركان عام 1588م، فلجأ إلى مفاوضات طويلة مع الإنجليز لمساعدته بأسطولهم على إحتلال الرأس، واستمرت تلك المفاوضات دون جدوى حتى أواسط عام 1600م[1].

وقد إكتفى المنصور خلال ذلك بإعتراض السفن المتجهة إلى الجنوب، حيث إستطاع أن يصادر الكثير من مدافع تلك البواخر قبالة سواحل أغادير، كما أنه واصل لمدة طويلة مهاجمة جزر الكناري بإعتبارها عقدة المواصلات الرئيسية نحو الجيوب الإستعمارية على الساحل الإفريقي[2].

وعموماً فإن الوجود الأوروبي على الساحل السوداني كان يقض مضاجع المنصور، ويشكل في نظره منطلق تهديد للمغرب، ولمشاريعه التوسعية، وقد أعطاه ذلك التهديد الفرصة المواتية ليظهر بمظهر الأمير المسلم المزاول لإحدى واجباته الدينية المقدسة.

ج- ربط المغرب بإمبراطورية كانم-بورنو[3] :

حصل تطور سياسي هام خلال القرن 10هـ/16م، نتيجة قيام دولة إسلامية في "برنو" في السودان الأوسط، وإتخذ حكامها سياسة الوفاق والتفاهم تجاه دول وحكام المغرب، وفي نفس الوقت وسعوا دولتهم لدرجة إصطدم معها نفوذهم بنفوذ الأسكيا في الغرب، ودخلوا معهم في صراع مدة من الزمن، ودفع كلاً من الحاكمين إلى البحث عن الوسائل والسبل التي تحقق له القوة وتكفل له النصر[4].

فقد أرسل ملك برنو إدريس الثالث (972-1005هـ/1564-1596م)، سفارة إلى المنصور الذهبي، تحمل الهدايا وكان من مهامها أن تقدم للمنصور خطاباً من الملك إدريس الثالث يطلب منه النجدة والمساعدة بالعساكر والأسلحة لمحاربة أعدائه الوثنيين في السودان [5]. فاستغل المنصور هذه الظروف لصالحه، مشترطاً على ملك برنو البيعة له كخليفة للمسلمين لتلبية طلبه، فبايعه إمبراطور برنوكانم سنة

---

[1]- عن العلاقات المغربية البريطانية، انظر: حركات، مرجع سابق ج2 ص ص 349-351. الغربي، مرجع سابق، ص 102.

[2]- ابراهيم حركات، مرجع سابق ج2 ص 419.

[2]- ظهرت هذه المملكة في الأراضي المحيطة ببحيرة تشاد وتقع عليها اليوم جمهورية تشاد وقسم من شمال نيجيريا، وقد إمتد نفوذها في أزهى عصورها من النيجر غربا إلى النيل شرقا ومن شمال الكامرون الحالية إلى طرابلس في ليبيا، ويعتقد أن كلا من كانم وبورنو كانتا مملكتين منفصلتين ثم إتحدتا تحت حكم واحد، وقيل أن كانم كانت في الشرق ثم تعرضت للضعف والغزو من طرف القبائل العربية التي إستوطنت منطقة النوبة، فهرب حكامها إلى غرب بحيرة تشاد وأسسوا مملكة بورنو، وصل إلى حكم هذه البلاد في منتصف القرن الحادي عشر أسرة يطلق عليها إسم السيفيين، نسبة إلى سيف بن ذي يزن في اليمن، وأسس هذه الأسرة " جمادي" ما بين(1075-1080م)،إنتشر الاسلام في هذه الربوع قبل ذلك في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، وقد تمتعت هذه المملكة في زمن قوتها بتنظيم سياسي وإداري دقيق، وتميز نظامها باللامركزية وكان على رأسها سلطان مقدس. وقد ربطتها علاقات إقتصادية وثقافية قوية مع بلدان الشمال الإفريقي. للمزيد عن مملكة كانم-بورنو أنظر:

- جاسم ظاهر، مرجع سابق ص51.
- اسماعيل ياغي، محمود شاكر.مرجع سابق ص194.
- ديرك لانجي، **ممالك تشاد وشعوبها، تاريخ إفريقيا العام المجلد الرابع**، اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت1988.ص 247-255.
- الهادي الدالي، مرجع سابق ص168.
- ابي فضل العمري، **مسالك الأبصارفي ممالك الأمصار** السفر4،تح حمزة عباس، المجمع الثقافي، أبوظبي 2002 ص 95.

[4]- ديرك لانجي، المرجع نفسه ، ص 267.

[5]- الناصري، الإستقصا، ج5 ص 104.

1582م، وكتبت البيعة بفاس ونقلت إلى "نجامينا" حيث أشهد الإمبراطور على نفسه وعلى رعيته بمنطوقها وتبعاتها[1](انظر نص البيعة بالوثيقة رقم02 بالملاحق) . ولكن المنصور برغم تنفيذ شرطه لم يف بوعده بإرسال الأسلحة والجنود خشية أن ترتد ضد المغرب.

ولهذا فقد قرر المنصور تطويق مملكة صنغاي من الشرق ليفتح الإتصال المباشر بينه وبين مملكة برنو الاسلامية، فالواضح إذاً أن المنصور لم يكن يفكر فقط بإمبراطورية السنغاي فقط بل كان تفكيره يتجاوزها إلى تخوم الشمال الإفريقي من مصر إلى الجزائر، وتمركزه على إمتداد الساحل الصحراوي الذي يحد تلك البلاد جنوباً[2].

ومن هنا نصل إلى النتيجة النهائية التي تبرر غزو المغرب للسودان، وهي الربط الجغرافي بين المغرب ومملكة برنو بإزالة الحاجز الذي يفصلهما ألا وهو مملكة سنغاي.

2-الـــدوافع الديـــــنية:

إستغل المنصور الذهبي بعض المسائل الدينية في تبرير حملته على السودان، ومن بينها قضيتي الخلافة والجهاد لنشر الإسلام، في ظاهرة إختلطت فيها السياسة بالدين وبالوطنية.

أ- إعتبارات الخلافة والإمامة:

وظف المنصور الذهبي مسألة الخلافة على المسلمين كحجة أساسية داخل المغرب وخارجه لتبرير إلحاق مملكة سنغاي بالمغرب، فقد كان يعتبر نفسه الخليفة الوحيد للمسلمين بالنظر إلى إنفراده بين ملوك المسلمين وأمرائهم بالنسب الهاشمي القرشي الشريف.[3]

ولقد أثير جدل كثير حول هذا الموضوع خلال كل أحقاب التاريخ المغربي، فكما كان الشأن بعد سقوط الدولة الإدريسية[4](974م)، حيث ظهر من كان ينفي الخلافة عمن لا ينتسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقد اندفع في عهد السعديين من كان ينفيها عن غير ملوك المغرب، وبالتالي تسقط عن ملوك الزنج .

---

[1]- الناصري، المصدر السابق، ص 106.

[2]- محمد الغربي، مرجع سابق، ص 153.

[3]- ورد في الحديث " الأئمة من قريش أبرارها أمراء أبرارها، فجارها أمراء فجارها".

[4]- إنفصل المغرب عن الخلافة الإسلامية في بغداد في سنة 788م، و أسس مملكة مستقلة عن العباسيين على يد الأشراف الأدارسة الهاربين من شبه الجزيرة العربية، ولم تنجح المحاولات لإعادته إلى الخلافة المشرقية في عهد الفاطميين، وفي عهد العباسيين الأخير حيث تسمى ملوك المرابطين والموحدين بأمراء المسلمين وتظاهروا في أول أمرهم بالولاء للخليفة في بغداد، ولم يكن ذلك سوى بغية الحصول على مؤيد قانوني لغزو أراضي غير مغربية.

وقد حدث تطور مهم في موضوع الخلافة عام 1517م، عندما إنتهت الدعوة العباسية بإلحاق مصر بالدولة العثمانية، فانبرى السعديون لفكرة إحياء مراسيم الخلافة بإعتبارهم أحق من غيرهم.[1]

وهكذا فقد إعتبر أحمد المنصور قضية الخلافة غطاءاً مناسباً لتحركه في السودان ونبه الأسكيا، ونبه كل المتصلين به أن الله وحده هو الذي يفرض على الأسكيا أن يبدي السمع والطاعة وينخرط بواسطة البيعة في سلك الجماعة .[2] كما صدر جميع رسائله التي وجهها إلى علماء السودان وأعيانه وقادته فيما كان يندبهم إلى تسهيل مهمة الجيش السعدي الغازي بعد الحمد والثناء بالآية الكريمة: ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنوفيه أجراً عظيماً﴾[3].

وقد مر بنا أن الحاج محمد اسكيا ملك سنغاي (898-935هـ/1493-1528م) أثناء أدائه لفريضة الحج، لقي في طريقه بمصر الخليفة المتوكل(العباسي)، والذي ألبس الأسكيا القلنسوة والعمامة ومنحه لقب "خليفة بلاد التكرور"، ومعنى هذا قيام منافس على المنصب الروحي لسلطان المغرب.[4]

ب- الجهاد في إفريقيا لنشر الإسلام:

يعتبر الجهاد في سبيل تحرير السواحل المغربية الأساس الذي قامت عليه الدولة السعدية، كما أن سقوط الأندلس وغزو البرتغاليين للسواحل الإفريقية في الجنوب أعطى للمنصور فرصة لإستغلال المد العاطفي والنفسي للمغاربة في توجيه بعض الحملات العسكرية، وخاصة ما أخذ منها وجهة السودان، حيث كان يقال دائماً أن تلك البلاد تعج بالوثنيين وتحتاج إلى من يرشدها إلى طريق الحق.

ولكن هذه المبررات فندها كثير من المؤرخين، معتبرين أن الجهاد كان قضية ثانوية في حملة المنصور وذلك لأمرين:

أولاً: أن المنصور كان يعرف أنه سيواجه جيوشاً إسلامية، وأن المناطق المراد إخضاعها، وكلها تقريباً ضمن إمبراطورية السنغاي هي أراضي تعود للمسلمين في مجملها من حيث السكان [5]، وكانت تحكم وفق الشريعة الإسلامية بواسطة حكومة الأسكيا وعماله، وقد توفرت المقومات الدينية الضرورية

---

[1]- محمد الغربي، مرجع سابق ص 106.

[2]- أورد ابن تيمية في كتابه **الإمامة والسياسة** ص243:"أن مصدر سلطة الإمام هو الله تبارك وتعالى".

[3]- سورة الآية

[4]- نقولا زياده، مرجع سابق، ص 375.

2- اليفرني، **نزهة الهادي في أخبار ملوك القرن الحادي**، ط2 مكتبة الطالب، الرباط 1988. ص94، وذكر مايلي أيضاً:" وولى السودانيون الأدبار وحق عليهم البوار وحكمت في رقابهم سيوف جودروجيوشه، حتى كان اهل السودان ينادون نحن مسلمين، نحن إخوانكم في الدين، والسيوف عاملة فيهم....."

في كل ذلك فالجوامع في كل المدن والقرى، ورجال الدين لهم المقام الأرفع في الدولة [1]، وينالون من الإحترام والتبجيل من الأساكي والحكام والعامة بالقدر الذي لم يحظ به رجال الدين في المغرب نفسه.

كما أن ما لحق بهؤلاء من الأئمة والقضاة والنخبة المفكرة وطلبة العلم وغيرهم من أذى أثناء ثورة تنبكتو التي قامت في وجه المغاربة بعد وقت قصير من وصولهم إلى السودان، بل وتهجير بعض أفراد هذه الطبقة فيما بعد إلى المغرب بغية إبعاد خطرهم وتقليل نفوذهم[2]، ضف إلى ذلك العبث بما وقعت عليه يد الجيش المغربي والعامة من كتب وتحف ومتاع[3]، قد خلف آثاراً سلبية جداً لازالت آثارها إلى اليوم.

كما أن إنتشار المحرمات بعد وصول المغاربة أكثر مما كان عليه الحال من قبل بسبب إقتصار الحملة على الذكور العزب أو الذين تركوا زوجاتهم في المغرب، وإنتشار شرب الدخان وتجارة الرقيق وشرب الخمر وتعاطي الميسر[4]، كلها أمور فندت مزاعم المغاربة، بل وتسببت في فتنة بين العلماء سواء في المغرب أوالسودان[5]. كما أساءت للعلاقات العربية الإفريقية المتينة والتي إمتدت لعصور طويلة، مما استغله الأوروبيون منطلقا لتشويه صورة العرب المسلمين، والمغاربة منهم على وجه الخصوص.

ثانياً: أن أحمد المنصور –لعدم إهتمامه بنشر الإسلام– لم يوجه ضمن الحملة أشخاصاً مؤهلين للقيام بالدعوة الإسلامية، بل أكثر من ذلك فإن الحملة لم تتوفر على أئمة ووعاظ للجيش نفسه من بين آلاف الخبراء الذين رافقوها.

فقد ضمت الحملة مجموعة من القادة كانوا كلهم أجانب غالبيتهم من إسبانيا وعلى رأسهم جودرباشا قائد الحملة، وأخيه محمود بن زرقون، وكانوا من بين الذين حكموا السودان فلم تكن لغتهم هي العربية، بل إن أغلبهم مشكوك في إسلامهم، فقد ذكر أنهم أسلموا بضغط من السعديين.[6]

وضمت أيضاً جنوداً كانوا هم أيضاً في الغالب من الأندلس، وبرغم حماسهم للدين الإسلامي إلا أنهم لم يكونوا مؤهلين للقيام بالدعوة إلى تعاليمه. كما ضمت الحملة الصناع والأطباء والعمال والخدم الذين لم يبرحوا المدن الكبرى في السودان، بل إن أكثرهم عاد إلى المغرب بعد الحملة[7].

3– الدوافع الإقتصـــــادية:

---

[1]- أنظر الفصل الأول من الدراسة.
[2]- الناصري، الإستقصا ج 5 ص 130.
[3]- الغربي، مرجع سابق، ص 133.
[4]- نفسه ص 134.
[5]- الناصري، الإستقصا ج 5 ص127.
[6]- إبراهيم حركات، مرجع سابق ج 2 ص 414.
[7]- الغربي، مرجع سابق ص 131.

لقد تحدث المنصور الذهبي لمجلسه بصراحة كبيرة عن غنى السودان الغربي، وضخامة ثرواته، وما سوف تدره تجارة الصحراء على بلاده، إذا ما صارت للمغرب. هذه الثروات التي لفتت سلاطين المغرب منذ عهد بعيد، وكانت تلك الخيرات متعددة الأشكال وأبرزها الذهب كما ذكرنا سابقاً، والملح والعاج ومختلف المعادن، والعبيد.

وفي إشارة عن خيرات السودان قال المنصور لأعضاء مجلسه :"إن تجار الصحراء لا ينقطعون ذهاباً وعودةً منها محملين بكميات كبيرة من التجارات المحملة على الإبل، و لم يحدث أن إنقطع لهم صدور أو ورود، وإذا كان هذا شأن التجار، فما البال بشأن إجتياز جيوش أمير المؤمنين ذات الإستعداد والأهبة"[1].

بل ذهب المنصور أبعد من ذلك حين إستفتى جمعاً من العلماء في المغرب، فأفتوه بأن "النظر في المعادن مطلقاً إنما هو للإمام لا لغيره، وأنه ليس لأحد أن يتصرف في ذلك إلا عن إذن السلطان"[2].

وكان الدافع الإقتصادي هو الأهم، لرغبة السعديين في السيطرة على تجارة الصحراء مع السودان وخاصة في مادة الذهب، وكذا تعويض تكاليف الحروب التي خاضوها ضد أعدائهم، وكان للمنصور ما أراد فقد أوردت المصادر التاريخية أنه حصل على غنائم كثيرة، فروى اليفرني أنه:"ولما فتح عليه مماليك البلاد السودانية، حمل له من التبر ما يغير الحاسدين ويحير الناظرين، حتى كان المنصور لا يعطي في الرواتب إلا النضار الصافي والدينار الوافي وكانت ببابه كل يوم أربعة عشر ماية مطرقة تضرب الدينار دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الأقراط والحلي وشبه ذلك، ولأجل ذلك لقب بالذهبي لفيضان الذهب في زمانه"[3].

وقد أورد آخر أنه :"دخل لدار السلطان إثني عشر مائة مملوك بين الجواري والغلمان وأربعون حملاً من التبر وأربعة سروج من الذهب وأحمال كثيرة من العاج ...وذخائر السودان، فتذخر من ذلك مولاي أحمد الذهبي وقوي ملكه وبقيت جباية السودان تأتيه في كل سنة "[4].

4- الدوافع العسكرية:

1- الغربي، المرجع السابق، ص 117.
2- الناصري، الاستقصا ص 111.
3- اليفرني، نزهة الحادي ، ص 95 .
4- نقولا زياده، مرجع سابق ص 384.

لقد شكل الموريسكيون[1] مصدر قلق للمنصور الذهبي، طيلة حكمه وكانوا بعد ذلك من العوامل التي ساهمت في زوال حكم السعديين، ولهذا إستخدمهم في الإدارة والمعامل والمزارع والجيش، وجعلهم عماد حملته على السودان بهدف التخلص منهم وقطع دابر الفتنة التي قامت بسبب بعض عناصرهم، لأنهم مع مرور الوقت شكلوا تكتلات دينية ذات خلفيات سياسية[2].

كما أن المنصور الذهبي إستغل عدم تكافؤ القوة بين المغرب ومملكة سنغاي في السودان لغزوها [3]، فقد كان جيش السعديين منظماً ومجهزاً بأحدث التجهيزات، أما جيش صنغاي فكان يضم أصنافاً من المرتزقة والعبيد والمتطوعين بلا تنظيم ولا تأطير محكم.

الفرع الثاني: وقائع الحملة وموقف المغاربة في السودان منها:

1- التحضـــــــير للحملة :

أول ما قام به المنصور قبل إرسال الحملة لغزو السودان أمران أراد أن يبرر بهما حملته شرعاً، أولهما أنه إستجاز عالمين من علماء مصر هما: الإمام العارف بالله أبوعبدالله محمد بن الشيخ أبي الحسن البكري، صاحب كتاب المسالك والممالك، وأبي عبدالله محمد بن يحي المصري الشهير ببدرالدين القرافي صاحب ذيل الديباج، وقد أجاز العالمان للمنصور القيام بالحملة [4].

والأمر الثاني فهو مشاروته لأهل الحل والعقد في دولته، فقد عقد مجلساً للشورى تحدث عنه الناصري نقلاً عن الفشتالي بقوله:"شاور المنصور أصحابه وجمع أعيان دولته، وإلتقى أهل الرأي والمشورة ......، فقال لهم المنصور:‹ إني عزمت على منازلة أمير السودان ....لأن بلاد السودان وافرة الخراج كثيرة المال

---

[3]- الموريسكيون هم سكان الأندلس الذين فروا من بطش الإسبان خاصة في عهد الملك فيليب الثاني، فقد تعرضوا للإضطهاد ومورست عليهم كافة انواع التنكيل والتعذيب فانتشروا في سائر بلاد المسلمين إلى مصر وتركيا والشام، إلا أن مناطق شمال المغرب العربي إستقبلت القسط الأكبر منهم، وقد ساهموا بشكل كبير في نقل المؤثرات الحضارية التي كانت سائدة في الأندلس إلى بلدان المغرب.

[2]- الغربي، مرجع سابق ص 157. حركات، مرجع سابق ص 323.

[3]- الغربي ،لمرجع سابق، ص 161.

1- جاء في رسالة البكري:" لقد وصل إلى المثل العديم المثال، المزري نظامه بعقود الآل، فإذا به السحر إلا أنه حلال، ولو إدعى أحد أن من معجزات أحمد صلى الله عليه وسلم أن يمد الله كراماً كاتبين في زمان نجله أمير المؤمنين أحمد بكتاب كريم على أسلوب قويم يرسله إلى محب قديم من النبعة والصميم لم تكذب دعواه، فما من خارق في الأمة إلا وهومن معجزاته صلى الله عليه وسلم دال على علاه، وأما ما شرفني به من طلب الإجازة فالبيت والحديث له، ولكن رب أب أرسل إلى إبنه على يد عبده عطاء فقبله، وإليه بأمره حمله، وحيث وقع الأمر فأمر مولانا حتم، وطاعته غنم فمولانا مجاز من هذا العهد، من جميع ما يجوز للعبد، بجميع ما يجوز له وعنه روايته بشرطه المعتبر عند أهل الأمر، وكذلك مجاز أهل العصر إجازة عام بعام، ليكون أبناء الوقت جميعاً على مائدة فضل مولانا وتحت ظلال ذلك الإنعام، فإنه هو السبب في تحصيل ذلك المرام وكتب تحريراً في رابع عشر ربيع الثاني سنة إثنتين وتسعين وتسعمائة، محمد بن أبي الحسن الصديق سبط آل الحسن". أما الإمام القرافي فقد أجازه إجازة عامة بسط فيها بالقول ثم ختمها بالأبيات التالية : أجزت لمن تفضل وإستجازا وبادر لأقتنا خير وحـــازا

وأبرز في سلوك العلم حـالا به من فضل مولانا يجازى

أمام كامل غوث البرايـــــا أمير المؤمنين حـوى مجازا

للمزيد انظر: الناصري، الاستقصا، ج5 ص 115- 116.

يتقوى بها جيش الإسلام.... ›"، ومضى المنصور يبرر أسباب حملته للسودان بما مضى ذكره من الدوافع والأسباب، لكن الحاضرين في المجلس حذروه من مغبة التورط في السودان وعارضوه بادىء ذي بدء فقالوا"‹ أن ذلك رأي عن الصواب منحرف ....، وذلك لأن بيننا وبين السودان مهامه فيحا تقصر فيها الخطا، وتحار فيها القطا[1]، وليس فيها ماء ولا كلا، فلا يتأتى السفر فيها ولا إعتساف شيء من طريقها مع كونها مخوفة مملوءة الجوانب ذعراً، وأيضاً فإن دولة المرابطين على ضخامتها، ودولة الموحدين على عظمتها، ودولة المرينيين على قوتها لم تطمح همة واحد منهم لشيء من ذلك....وحسبنا أن نقتفي أثر تلك الدول... ›"، فغضب المنصور لذلك وإتهمهم بالضعف، وبرر ذلك بالقوافل التجارية التي تخوض الصحاري على ضعفها، وإنشغال الدول السابقة بحروب اعدائهم في الشمال والشرق، ومازال بهم حتى وافقوا على الحملة، ومما يبدو أن الحملة قد تم التحضير لها مسبقاً، وإنما عقد المجلس لإصباغ أمر المشورة والإجماع عليها.[2]

2- وقائع الحمـــــــــلة :

بعد تهيئة الجو الملائم للحملة، إشتغل المنصور بتجهيز آلة الحرب وما يحتاج إليه الجيش من آلة السفر ومهماته، وأمر القواد بأن يقوموا حصص القبائل وما يحتاجون إليه من إبل وخيل وبغال، وأخذ هو بنفسه يقوم آلة الحرب من المدافع والعجلات، التي تحملها والبارود والرصاص، وتقويم الخشب واللوح والحديد والسفن والبراميل.....، وإستمر الحال إلى ان إستوفى المنصور أمر الغزو في ثلاث سنين.[3]

إنطلقت الحملة بعد أن عقد المنصور لواءها لجودر باشا، وجعل معه عشرة قواد لمساعدته في مهمته، وكان بينهم واحد تركي وثلاثة أندلسيين يغلب على الظن أن إثنين منهم من الأسرى المسيحيين على حسب ما أورده السعدي.

وقد إختلفت المصادر التاريخية حول تعداد العساكر في الحملة بين مبالغ ومعتدل، فقد ذكر الناصري أن العدد كان نحو إثنين وعشرين ألفاً، فيما ذكر السعدي أن العدد ثلاثة آلاف من الرماة ما بين أصحاب الخيل والرجل ومعهم من الأتباع ضعفها، ولكن يبدو أن العدد لم يتجاوز الأربعة آلاف موزعين كالآتي:

---

[1]- كناية عن بعد المسافة بين المغرب و بلاد السودان.

[2]-الناصري، نفس المصدر: ص 113-114. نقولا زياده، مرجع سابق ص ص 377-378.

[3]- الناصري، الاستقصا، ج5 ص 121.

حملة البنادق (وأكثرهم من الأندلس)	2000
حملة البنادق الفرسان	500
حملة الرماح	1500

وكان إلى جانب ذلك 1600من الأتباع، وقد رافق الحملة ثمانية آلاف من الإبل وألف من الخيل وإحتاج إلى 180خيمة، وحملوا معهم 300 قنطار من البارود، ومثلها من الرصاص.[1]

خرج الجيش من مراكش في ذي الحجة عام 998هـ/ أكتوبر 1590م، قاطعاً مسافة كبيرة قدرها البعض بحوالي 2040كم، فاحتاج إلى 135 يوما بما فيها أيام الراحة لبلوغ مقصده. وقد هلك نصف الجيش في الطريق بسبب الجوع والعطش والتعب[2]. وكانت آثار الجهد بادية على الجند، فكان لزاماً على جودر أن يريحهم في أول محطة [3]، خصوصا وأن جيش الأسكيا لم يظهر للعيان بعد، وهذا ما قام به مستفيدا من خصوبة المنطقة، وغناها بالموارد لتعويض ما فقده، ثم دخل "تنبكت"[4] وتخطاها قاصداً "غاو" عاصمة مملكة سنغاي.

ومن جهة اخرى فقد إستنفر الأسكيا جنوده لملاقاة الجيش السعدي، وقد روى اليفرني ذلك قائلاً:"وكان لما سمع إسحاق سكية بخروج الجيوش وتوجهها إليه حشر جنوده وبعث في المدائن حاشرين وجمع جموعاً عديدة ويقال أنه جمع مائة ألف وأربعة آلاف مقاتل".[5]

كما يروي أحداث الموقعة التي جرت بينهما قائلاً:"فلما إلتقت الفئتان نكص إسحاق على عقبه، إنتشرت جموعه وفل غربه ودامت الحرب من لدن الضحى إلى قرب العصر فطحنتهم رحى الحرب وصيرتهم كأعجاز نخل خاوية ونجا إسحاق بنفسه...، وكان ذلك كله في السادس عشر من جمادى الأولى عام 999هـ(12مارس 1591م)، ولما فر إسحاق تبعه جودر بعد أن إستولى على تنبكت وسائر ما يواليها من المدائن والقرى وبعث إلى المنصور يخبره بالفتح وبهدية عظيمة فيها عشرة آلاف مثقال ذهباً، ومئتان من الرقيق وغير ذلك"[6]، وقد لعب الفارق الكبير في موازين القوى دوراً كبيراً وحاسماً في إنتصار جيش السعديين كما سبق وان ذكرنا.

---

[1]- نقولا زياده، مرجع سابق ، ص 380.
[2]- المرجع نفسه، ص 381.
[3]- الهادي الدالي، مرجع سابق ص 203.
[4]- إسم " تنبكت" هو شطران تن إسم مكان، وبكتو إسم إمرأة عهد إليها الطوارق بحراسة بئر كانت في ذلك المكان، إتخذه الطوارق مركزاً لتربية مواشيهم في فصل الجفاف بالسودان، حوالي القرن 9م، حيث حفروا بئراً وتكاثرت الآبار بعد ذلك، وصار التجار يلتقون في ذلك المكان ثم تحول إلى سوق للتبادل التجاري بين الشمال الإفريقي والسودان الغربي أنظر: مسعود علي، مرجع سابق، ص105.
[5]- اليفرني، نزهة الحادي، مصدر سابق ص 193.
[6]- نفســـه ص 194.

و لم تفلح محاولات الأسكيا في طلب الصلح مع جودر قائد الجيش السعدي، الذي رجع بالجيش إلى تنبكت، وقد حنق المنصور على جودر لمجرد انه فكر بقبول الصلح مع الأسكيا، فعزله وعين محمود بن زرقون ليتولى إمارة الجند في السودان.هذا الأخير الذي سارع إلى الإجهاز على باقي مملكة سنغاي وقتل الأسكيا، وقد ذكر ذلك الناصري في الإستقصا قائلاً:" إنهزم السودان من سماع رعد المدافع وإرتفاع القنابل في الجو وهدير الطبول، وتبعتهم العساكر يقتلون ويأسرون إلى أن غشيهم الظلام ورجعوا بالغنائم والسبي....وسار محمود في إتباع إسحاق إلى ان لحقه ببعض الجهات فأوقع به وقعة شنعاء .....فهزمه وقتله فيمن معه من جنده وأتباعه، وتمهدت له البلاد وإستولى عليها إستيلاء كلياً وكتب بخبر الفتح إلى المنصور"[1].

بعد إنتصار الجيش السعدي وإستتباب الأمر للمنصور، خاب أمل المغاربة القادمين بعد إكتشافهم أن مصادر الذهب لم تكن في تلك المناطق، إنما كانت إلى الغرب منها في أماكن بعيدة المنال عن الجيوش المغربية، فلم تكن ثروة السنغاي في إستخراجه إنما كانت في التحكم في تجارته، بل إن الذهب من ذي قبل كان يتم مبادلته بالملح ومختلف المواد التجارية فيستفيد منه التجار، ولكن أصبح بعد الغزو يصادر ويرسل باسم السلطان.

كانت أهم مشكلة واجهت المغاربة في حملتهم على السودان هي مشكلة الإحتفاظ بالبلاد التي احتلوها إذ يبلغ طولها 1500كم[2]، وهي جزء صغير من البلاد السودانية المترامية الأطراف، الأمر الذي ييسر لها مساعدة من الجوار في حالة حدوث ثورة، كما أن تنظيم الإدارة في هذه الحالة كان أمراً صعباً، كما كان للتغيير المستمر في الباشوات(الحكام) أثر كبير في تعثر الإدارة، إلا أن البلاد نعمت بنوع من الإستقرار لفترة قصيرة ما بين (1008-1012ه/1599-1603م) بعد تعيين حكام إسميين من آل إسكية [3]. ولكن وفاة المنصور ألقت بالمغرب في أتون الخلافات والحروب الأهلية بين أبنائه، فاضطرب الوضع في السودان تبعاً لذلك .

3- موقف المغاربة بالسودان الغربي من الحملة :

أما عن موقف العناصر المغربية المقيمة في السودان من الصراع الذي نشأ بين سلاطين المغرب وملوك السودان، بسبب التنافس على خيرات السودان وخاصة الملح والذهب، فقد تمثل اولاً في الموقف الذي

[1]- الناصري، الإستقصا، مصدر سابق ص 123.
[2]- نقولا زياده، مرجع سابق، ص383.
[3]- نقولا زياده، مرجع سابق، ص 384.

إتخذه الطوارق، الذين تعتبر ملاحة "تغازا" في أراضيهم، فهم ينقادون للطرف الذي يحافظ على مصالحهم الناشئة من الإشتغال في تعدين الملح والإتجار فيه.

ومن هذا المنطلق نجد ان الطوارق لا يتورعون عن الإنضمام للسلطان المغربي أحمد المنصور لمساندته ضد الإسكيا، إذا ما تعلق الأمر بفقد عملهم في ملاحة تغازا.[1]

كما سعى المنصور إلى إستمالة العلماء المغاربة في السودان فاهتم بشكل خاص بقاضي تنبكت محمود بن عمر، وأرسل إليه في سنة 998هـ/1581م طالباً إليه الدخول في طاعته، لأنه كان محبوباً من الناس، مسموع الكلمة وجميع أهل السودان يثقون بفتواه وبقدرته على إقامة الحجة، وعدم التخلي عن الإهتداء بالكتاب والسنة، وطلب منه المنصور بيعته وفرض طاعته على الأحمر والأسود والإنخراط تحت إمارته والإئتمام بإمامته،[2] فكان القاضي محمود بن عمر في مقدمة المؤيدين للحملة.

أما عامة الناس من المغاربة من أهل تنبكت فلم تظهر منهم أية مقاومة للقوات المغربية حين إقتربت من العاصمة "غاو".

المبحث الثاني: الوجود الإجتماعي المغربي ببلاد السودان الغربي:

دراسة الدور الإجتماعي للعناصر المغربية في السودان الغربي، وتحديدها، لهو أمر مهم لمعرفة مدى أهمية مكانتها الإجتماعية في السودان الغربي، ومدى تأثيرها في المجتمع السوداني وكذلك مدى تأثرها به. وسنتعرض لذلك في هذا المبحث بدراسة التغلغل المغربي في السودان ، وأهم فئاته الإجتماعية وتأثيره هناك.

المطلب الأول: تغلغل القبائل المغربية في السودان الغربي:

[1]- عبلة محمد سلطان، مرجع سابق، ص 62.
[2]- الافراني، نزهة الحادي، مصدر سابق ص 93.

تؤكد الشواهد التاريخية أن منطقة الشمال الإفريقي قد تعرضت إلى موجات من الهجرات البشرية المتتالية منذ قرون عديدة قبل الإسلام، وقد وفدت هذه الهجرات من شبه الجزيرة العربية .[1] وهذا يدل على أن حركة تعريب منطقة الشمال الإفريقي ترجع إلى ما قبل الإسلام في المنطقة حوالي القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، وببلوغ الدولة العربية الإسلامية ذروتها وخاصة بعد فتح الأندلس تطلع العرب إلى نشر الإسلام فيما وراء الصحراء جنوباً.

وإنتشار الإسلام والثقافة العربية في السودان الغربي مرتبط إلى حد كبير بالجهود الكبيرة التي لعبتها قبائل صنهاجة التي وفدت على المنطقة من الشمال الإفريقي. وقد إنتشر الإسلام بين بطون صنهاجة بشكل مبكر وتوج بحركة المرابطين الجهادية.[2]

كما أن الهجرات الجماعية لقبائل بني هلال وبني سليم في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وإنتشارهم في أرجاء الشمال الإفريقي قد أدى إلى نشر الإسلام والثقافة العربية بين أهل المنطقة وإلى إستعراب أهلها إستعراباً كاملاً[3]، ومع سقوط مملكة غانة على يد المرابطين بدأت مرحلة جديدة في تاريخ السودان توجت بقيام مملكتي مالي وسنغاي الإسلاميتين.

وقد وقع عبء أحداث هذه التغيرات الهامة على عاتق قبائل صنهاجة بفروعها، والتي إمتدت هجراتها إلى تلك المناطق، وقد أورد ابن خلدون ذلك بقوله:"...منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها ...وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزاً، واتخذوا اللثام خطاماً تميزوا بشعاره بين الأمم وفي تلك البلاد كثروا وتعددت قبائلهم ...كلهم ما بين البحر المحيط بالمغرب إلى غدامس من قبلة طرابلس وبرقة"[4].

وتعتبر قبائل الطوارق أحد فروع قبائل صنهاجة، وقد لعبت دوراً كبيراً في تاريخ منطقة السودان الغربي، ولازالت إلى غاية اليوم تشكل جزءاً هاما من البنية السكانية لها، وخاصة في الأجزاء الشمالية منها[5].

كما إنطلقت مجموعة صنهاجية أخرى نحو الجنوب الغربي، وأوغلت في بلاد السودان الغربي حيث الأماكن الوفيرة المياه، والمراعي الخصبة، وأسسوا مدينة "أودغشت "[6] والتي إتخذوها عاصمة لهم [7]، وقد

1- سعيد بن فايز السعيد، **الجذور التاريخية للهجرات العربية إلى المغرب العربي**، مؤتمر العلاقات بين دول الخليج العربية ودول المغرب العربي، مؤسسة الملك عبدالعزيز، الرياض 2004. صفحات متفرقة.

2- أمطير سعد غيث، **التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي**، دار الرواد ، بيروت، ب ت ن. ص 32.

3- حسن خضيري أحمد، **علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ب ت ن، ص 257.

4- ابن خلدون، ديوان العبر، مصدر سابق ج 6 ص 181.

5- محمد سعيد القشاط، مرجع سابق. ص ص 17-21.

6- لا وجود لهذه المدينة اليوم ومكانها حسب بعض الإشارات التاريخية شرق مدينة تكانت بجمهورية موريتانيا الحديثة.

7- ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ص 227.

شهدت هذه المدينة ، والتي كانت تعتبر حلقة وصل بين شمال إفريقيا وبين السودان الغربي، حركة تجارية ترجمتها كثرة أسواقها التي إشتهرت بتجارة الذهب.[1]

وقد لعبت القبائل الصنهاجية دوراً كبيراً طيلة حكم مملكة غانة، فقد كانوا هم عماد الحكم والتجارة والإدارة، كما كانوا هم عماد الدولة المرابطية ومؤسسوها حتى سميت باسمهم [2]، وخاصة قبيلة "لمتونة" التي ينحدر منها البطل العظيم يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين.

ولما قضت هذه الأخيرة على دولة غانة، وجدت العناصر المغربية الفرصة مواتية للإندفاع نحو السودان الغربي، وأخذت تتدفق على مر القرون، حتى أصبحوا كثرة، وظلوا على هذا الحال من الإندماج في المجتمع السوداني، وتطور هذا الأمر إلى ما يشبه التحالف إلى أن سقط السودان الغربي في يد الجيش السعدي.[3]

ونتيجة لهذا التواصل الحضاري عبر العصور، تعمقت الروابط بين المغاربة وأهل السودان، فحصلت مصاهرات بينهما وإرتبطوا برباط الدم، فنجد عائلات مغربية وأخرى مغربية سودانية منها: عائلة "تعلي"، وعائلة"الخضر"(قدم جدهم من فاس وكان كاتباً للملك سني علي)، والعائلات "التواتية"، وعائلة "الجراري"، وعائلة "الفيلالي"(في تنبكت وجني وغاو)، وعائلة "البلبالي"(استقرت في تنبكت)، وعائلة "محمد الفاسي"(نزحت من فاس واشتغل أبناؤها بالتعليم)... [4].

المطلب الثاني: الفئات الإجتماعية للمغاربة في السودان الغربي:

إنقسمت العناصر المغربية التي إستقرت بالسودان الغربي إلى ثلاث فئات هي : فئة العلماء، وفئة التجار، وفئة العامة. وبرغم أن دخول التجار سبق العلماء للبلاد السودانية، إلا أن مكانة العلماء كانت أرفع ومقدمة على غيرهم، بحكم مترلتهم الدينية والروحية.

1- فئة العلمـــــــــــــاء:

وهم القائمون على الدين المشتغلون بعلومه، وتشمل فئتهم الفقهاء، والمفسرين، ورواة الحديث، والنحويون، وقراء القرآن، والقضاة وخطباء المساجد....، وقد إحتل العلماء مكانة رفيعة في المجتمع

---

[1]- أمطير سعد، مرجع سابق، ص 34.
[2]- نجيب زبيب، مرجع سابق، ص 231.
[3]- عبلة محمد سلطان، مرجع سابق، ص 186.
[4]- الهادي الدالي، مرجع سابق، 195.

السوداني سواء في عهد غانة ، أو في عهد المرابطين، ولما إنتقل الحكم من أيديهم إلى سلاطين مالي ، إحتفظوا بمكانتهم وحظوتهم في البلاط الملكي، بل كانوا من خاصتهم وأهل مشورتهم وكانوا يغدقون عليهم بالأموال والعطايا. وكانت التقاليد في مملكة مالي الإسلامية تحفظ لهم هيبتهم بين الناس، كما تمتعوا بحب الناس لهم من أهل السودان الغربي، لفضلهم الكبير في التعليم.

ولذلك شهدت دولة مالي وصول علماء من جميع انحاء المغرب إلى مدنها، من تلمسان وبجاية ومراكش و فاس. وكان سلاطين مالي على دراية بقيمة علماء المغرب، فاستقدموهم وتفقهوا على أيديهم[1]، وأخذوا عنهم المذهب المالكي[2].

وبالرغم من أن سلاطين مملكة سنغاي ساروا على نهج سلاطين مالي في إستقدامهم العلماء وإجلالهم وإكبارهم ومنحهم العطايا والهدايا والمرتبات الطيبة من السلطان، حتى تمتعت هذه الفئة بالثراء برفقة القضاة والأئمة، إلا أن العلماء المغاربة المقيمين في "تنبكت" قد تعرضوا لمحنة شديدة على يد سني على سلطان مملكة سنغاي، الذي إتهمهم بدعم أعدائه الطوارق آنذاك [3].

2- فئة التجـــــــــار:

تمتعت طبقة التجار الذين أقاموا في السودان الغربي بثراء عظيم في كل المدن التي نزلوها [4]، ففي غانة كان أثرياء التجار من المغرب الأقصى، وفي "ونقارة" كان أكثر التجار شراء للذهب هم تجار "ورجلان"، ووصفوا في "ولاته" قبل أن ينتقلوا إلى تنبكت بأنهم ذوو الأموال[5]، كما حققوا نجاحاً عظيما في "جني" وكل المدن التي كانوا يرتادونها.

وإذا كان نجاح هؤلاء التجار يلحق بهم، ويعود عليهم بالنفع والثراء نتيجة لإجتهادهم ومثابرتهم، فإن الفضل يعود لهم في إنعاش السوق السودانية وتطورها إلى حد كبير، وذلك منذ عهد دولة المرابطين التي مهدت الطريق أمامهم، ونشرت الأمن والأمان في دروبهم ومسالكهم، دون أن تفرض عليهم أي نوع من أنواع الضرائب[6].

---

[1]- العمري، مسالك الأبصار، مصدر سابق، ص 107.

[2]- نسبة إلى الإمام مالك(97-179هـ/715-795م) ولد في الحجاز، وإعتمد في استخراج الأحكام على ظاهر النص، فسمي أتباعه بالظاهرية لأنهم جعلوا أحكامهم مختصرة في النصوص بالإجماع، وهو ماعرف بالمصالح المرسلة، أي كل مصلحة ضرورية للمجتمع يحصل بها نفع أو تدرأ ضررا ولا تعارض النص، كتب الامام مالك كتاباً في الفقه والحديث سماه الموطأ، سمي هكذا لأنه صنفه بناء على طلب من الخليفة العباسي المنصور، وطأه للناس ، أي أوضح الشرع له أو لأن فقهاء المدينة واطؤوه عليه أي وافقوه عليه، وقد تلاءم المذهب المالكي مع عقلية أهل الحجاز والمغرب والأندلس وسكان المناطق التي لم تكن أهل جدل ونظر، ومن كتب المالكية: المدونة الكبرى لإبن سحنون، ومختصر الفقه المالكي لابن اسحاق. مراجع متفرقة.

[3]- اشتهر سني على بالتنكيل برجال الدين والفقهاء، دخل تنبكت عام 873هـ/1469م فأفسد فيها وأحرقها وقتل من أهلها الكثير، وكانت في ذلك الوقت تحت حكم سلطان الطوارق وإسمه"أكل"و الذي شعر برغبة سني علي بقتل فقهاء جامع سنكري بتنبكت فعمد إلى تهريبهم إلى بير(ولاتة)، وكان من بين الهاربين علماء آل آقيت الصنهاجية وهم من كبار فقهاء تنبكت.، ولكن جنود سني على لحقوا بهم وقتلوا خيار فقهاء جامع سنكري بتنبكت، وتعرض من بقي منهم للتنكيل والإذلال، ولكن الأمور رجعت إلى نصابها بعد وفاته وقيام أسرة الأساكي فعادت للعلماء مكانتهم.

[4]- الحسن الوزان، مصدر سابق، ص 42.

[5]- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 8.

[6]- ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص 108.

وبعد عهد المرابطين لقي هؤلاء التجار على مدى السنين والعهود من ملوك السودان الغربي، وحظوا بكل إمتياز، حتى أصبحوا من ذوي الجاه، وكانت لهم من الجهة الرسمية كافة الحقوق التي تضمن إحترامهم ومعاملتهم كأبناء البلاد الأصليين. والإختلاف الوحيد الذي كان قائماً بينهم وخاصة المجتمع السوداني أن ثراءهم كان نقدياً، أما الخاصة فكان ثراؤها أصولياً أي ضياع وعقارات[1].

3- فئة العـــــــــــامة:

إنتقلت إلى السودان بعض الطوائف من عامة أهل المغرب، من صغار التجار والحرفيين والصناع، ومن يعملون بمجال الزراعة، فقد وُجد كثير منهم في جني وتنبكت ونياني عاصمة مالي.

وكان أكثر الصناع في كل من نياني وتنبكت من حاكة القماش (الخياطين) ، أما الزراع والرعاة فأغلبهم كانوا موجودين في منطقة جاو، حيث تنتشر المناطق الزراعية خاصة مادة الدخن[2]. وكان هؤلاء العامة من المغاربة يلقون رعاية من السلطان تفوق رعايته لعامته من السودانيين.

وقد صادف ابن بطوطة في رحلته من عامة مسوفة من يعمل بالزراعة ببعض مناطق ولاتة، أو في سقاية القوافل وتزويدها بالطعام، أو في حراستها، وككشافين وأدلاء.[3]

وبهذا فقد شكل العامة من المغاربة في السودان رفقة نظرائهم من السودانيين، طبقة الإنتاج الأولي في البلاد، فقد كانوا يشكلون مع بعض ثلث طبقة العامة في السودان أما الثلثين الباقيين فكانوا من العبيد والأقنان من السودانيين[4]، الذين كان بعضهم يعملون عند المغاربة الأغنياء كخدم.

---

[1]- عبدالقادر زبادية، مرجع سابق، ص 118-119.
[2]- الحسن الوزان، نفس المصدر، ص 544.
[3]- ابن بطوطة، مصدر سابق، ص ص 431-432.
[4]- عبلة محمد سلطان، مرجع سابق، ص 195.

الفصل الثالث

الوجود الإقتصادي المغربي ببلاد السودان الغربي

تمهيد:

ليس هناك من سبيل إلى إنكار الدور الذي عرفته الحياة الإقتصادية في إقليم السودان منذ وصول المغاربة وإلى الوقت الذي حل فيه الجيش الفرنسي بتلك الربوع، وإذا كانت الدراسات الأجنبية التي نشرت حول هذا الجانب الهام لا تتسم بالوضوح المطلوب وخاصة فيما يتصل باستغلال المغرب لخيرات السودان وبقضية الذهب السوداني، فإننا لم نجد مبررا علميا لذلك القصور سيما وأن تلك الدراسات الأجنبية نفسها لم تستطع أن تخفي الآثار العميقة والإيجابية للمجهود المغربي في الميدان الإقتصادي.

لقد أثر الوجود المغربي في السودان على نحو لا يقبل التأويل أو الشك في الأسس البنيوية للإقتصاد السوداني مما أدى إلى إحداث تغيير جذري في كمية ونوعية الإنتاج وفي التصنيع والتجارة، كما ساهمت ظروف الأمن والتنظيم الإداري الجديد والقوانين التجارية في تطور ونمو إقتصاديين كبيرين.

وقد إشتهرت بلاد السودان بتجارة الذهب، وبمساهمته الفعالة في تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى، بينه وبين الشمال الإفريقي، كما أن خصوصيات أرض السودان الغربي، وبيئتها، ومناخها، أغدقت على البلاد خيرات زراعية وحيوانية وسمكية ومعدنية وفيرة.

ومن هبات الطبيعة للسودان الغربي، أن أراضيه وقعت في حزام السفانة الملائم للزراعة، وتربية الحيوانات، كما أن الطبيعة أنعمت عليها بمصادر المياه الوفيرة، وقوامها الأمطار، ونهري النيجر والسنغال، فضلا عن خصوبة التربة، ووجود المعادن الثمينة.

المبحث الأول: الدور المغربي في التجـــــــارة.

المطلب الأول: التجارة الداخلية :

قام التجار المغاربة بدور كبير في إنعاش التجارة الداخلية في أسواق السودان الغربي، إذ كانوا مستقرين ومسيطرين بتجارتهم على هذه الأسواق المنتشرة على الطريق التجاري الممتد من الشمال إلى الجنوب عبر دروب صنهاجة، وكان هذا الطريق يبدأ من أودغشت وينتهي ببلاد غانة.

1- أسواق المغاربة في السودان الغربي:

أودغشت: هي أقدم الأسواق التي أسسها بربر صنهاجة وأشهرها، وكانت تضم أعداداً كبيرة من التجار المغاربة[1]، ممن كانوا على درجة كبيرة من الثراء، مما أتاح لأودغشت أن تكون أكثر الأسواق إزدحاماً وضوضاءاً، وقد إختصت أودغشت ببيع بعض السلع النادرة والمطلوبة لكل من أهل المغرب والسودان الغربي مثل العنبر، والمسبوكات من الذهب الخالص الذي كان معروفاً بالإبريز[2].

ولاتـــه: تقع في الشمال الغربي من تنبكتو ومعناها الأرض المرتفعة[3]، ويقال انها بنيت على أنقاض مدينة قديمة تسمى"بيرو" ولهذا يشير إليها بعض المؤرخين باسم "بير" أو "بيرو"[4].

بعد إضمحلال أودغشت وسقوط غانة على يد قبائل الصوصو في 600هـ/ 1203م، هاجر التجار إلى ولاته وسرعان ما نالت شهرة أودغشت من قبل، وإحتلت دورها كبوابة غربية لعبور التجار إلى السودان الغربي، وذكرها ابن بطوطة الذي زارها باسم"إيولاتن" وقال عنها:"... ثم وصلنا إلى مدينة ايولاتن في غرة شهر ربيع الأول، بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة وهي أول عمالة السودان... ولما وصلنا جعل التجار أمتعتهم في رحبة، وتكفل السودان بحفظها "[5]، وما لبث ولاته أن أصبحت سوقا كبيرة يرد إليها التجار من سائر البلاد المغربية والسودانية، كما أصبحت مترل ومسكن أثرياء تجار المغرب[6]، والراجح أن أثرياء التجار قد لمسوا قدراً كبيراً من الأمان على أموالهم وأرواحهم وتجارتهم، هذا الأمان الذي حدثنا عنه عنه ابن بطوطة إذ قال :"فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من

1- عبلة محمد سلطان، العناصر المغربية، مرجع سابق ص 91.
2- البكري، المغرب ، ص 164
3- أحمد شلبي، مرجع سابق، ج 6 ص 198.
4- السعدي، المصدر السابق، ص 21.
5- ابن بطوطة ، مصدر سابق ، ص 660
6- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص 536.

سارق ولا غاضب، مع عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان، ولو كان بالقناطير المقنطرة، إنما يتركوه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه"[1] .

ولكن منذ بداية عصر سني على في عهد دولة صنغى بدأ التجار يتركون ولاته وينتقلون شيئاً فشيئاً إلى تنبكت ، وقد أدى ذلك إلى إنتهاء دور ولاته كمركز تجاري، وظهور تنبكت كأعظم مركز تجاري في المنطقة.

تنبكت: تقع عند الأطراف الجنوبية للصحراء الكبرى، في شمال جمهورية مالي الحالية، وقد حدد الحسن الوزان موقعها بقوله:"...على بعد إثني عشر ميلا من أحد فروع النيجر"[2]، وأصبحت مقراً ومركزاً لجميع التجار، فأقام فيها تجار المغرب وتجار صنهاجة، وتجار الطوارق، وتجار مصر وذلك بفضل موقعها حيث قامت على منحنى نهر النيجر [3]، كما أصبحت تزخر بكثير من الدكاكين التجارية والورش الصناعية، والراجح ان تنبكت حققت أوج عظمتها وإزدهارها بما كسبته من تجارة المرور بالمدينة حتى أصبحت قبلة الصادر والوارد.

وقد زارها الحسن الوزان في بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، ووصف إزدهار الحياة فيها وخاصة من الناحية التجارية، حيث يوجد بها دكاكين كثيرة للصناع والتجار، وتصل إليها الأقمشة الأوروبية عن طريق التجار العرب المغاربة [4]، وكانت تنبكت آنذاك مقسمة إلى أحياء يسكن كل حي من هذه الأحياء تجار بلد من البلدان التي كانت قوافلها تقصد السودان الغربي، فهناك حي خاص بتجار غدامس وحي خاص بتجار توات، وهناك حي يسكنه خليط من التجار الآخرين [5]. هذا إلى جانب كونها سوقاً لبيع الخيول العربية الأصيلة التي تصل إليها مع القوافل التجارية، وتعرض على الملك لينتقي منها حاجته، ويعرض الباقي في الأسواق للبيع[6].

وبصفة عامة يمكن القول بأن تنبكتو كانت على درجة كبيرة من الإزدهار الإقتصادي، بحيث أصبحت متحكمة في تجارة الذهب والملح بفضل موقعها الجيد. وقد تميزت أسواق تمبكتو بطابعها العربي الإسلامي، حيث كان يغلب على الأسواق في المدن العربية الإسلامية الكبرى تقسيمها إلى

1- ابن بطوطة، مصدر سابق، ص 672.
2- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 164.
3- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص 210.
4- الوزان، المصدر السابق، ص 165.
5- زبادية ، مرجع سابق، ص 102.
6-زبادية، المرجع السابق، ص 167.

أقسام حيث يختص كل قسم بنوعية معينة من البضائع، كما أقيمت الأسواق التجارية في أيام معلومة من كل أسبوع، وذلك تقليداً لأسواق المغرب[1].

تغـــازا: تقع هذه البلدة في جنوب المغرب بقرب البحر المحيط، على الطريق الرئيسي للقوافل بين المغرب وتنبكتو الذي إشتهر بطريق الذهب [2]. وكان منجم ملح تغازا يقع في أرض مسوفة من صنهاجة الصحراء، ولذلك ظلت تغازا على مدى قرون تحت سيطرة المسوفين، وكان يقوم بإستخراج الملح منها عبيد لهم يقيمون في تغازا إقامة دائمة، ويتردد عليهم تجار مسوفة وغيرهم، من تجار جنوب المغرب الأقصى، يحملون إليهم الطعام، لندرته في تغازا وغالباً ما يكون من التمر أو لحوم الجمال ، والراجح أن تجار مسوفة قد جعلوا من تغازا محطة إلتقاء التجار القادمين من المغرب، بالتجار القادمين من السودان[3].

ظلت تغازا تحت سلطة المغاربة المسوفيين والطوارق، حتى ضمت إلى مملكة سنغى في عهد الأسكيا محمد (898هــ/1493م- 935هــ/1528م)[4]، وكانت أطماع السعديين في الإستيلاء على تغازا مبكرة ، أي ترجع إلى عهد القائم بأمر الله السعدي وأحمد الأعرج الذي تدخل عام 1526م في توات مطالباً سنغاي بتسليم معدن تغازا. وقد تضاعفت أطماعهم في الإستيلاء على تغازا منذ عهد الأسكيا اسحاق الأول (1539-1549)، وبلغت ذروة هذه الأطماع في عهد أحمد المنصور السعدي الذي أقدم على الإستيلاء على سنغاي عموماً عام 1591م.[5]

ومن خلال ما سبق تبرز الأهمية القصوى التي كانت تتمتع بها تغازا كمركز تجاري هام يؤمه التجار من الشمال الإفريقي لأخذ الملح إلى المراكز التجارية السودانية في الجنوب، ويؤمها التجار السودانيون لترويج مادة الذهب وغيرها من المنتجات السودانية والتزود ما أمكنهم من واردات الشمال الإفريقي وغيرها من السلع والبضائع التجارية التي كان ينقلها التجار العرب المغاربة إلى هناك.

توات: تعتبر توات من أبرز المراكز التجارية التي تقوم بتنظيم القوافل التجارية وتوفير مواردها، كانت تقع في واحة غنية يتزود فيها التجار بالغذاء والماء العذب، كما يتم فيها تبادل الأدلاء وتغيير الجمال، ونالت توات شهرتها في عهد دولة مالي، حيث كانت مركزاً يقصده التجار المغاربة الحاملين معهم كافة السلع السودانية وغيرها، بفضل موقعها على الطريق التجاري الذي يربط السودان

1- أمطير سعد غيث، مررجع سابق، ص 131.
2 - القزويني، مصدر سابق، ص 25.
3- ابن بطوطة، مصدر سابق ، ص 658.
4- عبلة محمد سلطان، مرجع سابق، ص 94.
5- أمطير سعد غيث، مرجع سابق، ص 124.

الغربي مع تلمسان[1]. ونظراً لتميز أسواق توات بأنها ملتقى القوافل التجارية فقد إحترف معظم أهلها التجارة، وجنوا منها أرباحاً طائلة .

وقد أشار إليها ابن خلدون[2]، مما يؤكد أنها كانت مزدهرة في عهد مملكة مالي الإسلامية، حيث أكد على دورها الهام في تنشيط التجارة إلى بلاد السودان، وظلت توات تحتفظ بأهميتها في تنشيط التجارة الصحراوية حتى في أيام مملكة سنغاي الإسلامية، إذ أنها تعتبر مركزاً لإنعاش التجارة الصحراوية، ومركزاً يقصده تجار الشمال الإفريقي وجنوب أوروبا لعرض وترويج بضاعتهم .

وقد وصف الحسن الوزان توات قائلاً:"... تحتوي على أربعة آلاف عائلة ولها تربة خصبة لزراعة الحبوب والشعير.... ويزرعون قصب السكر بكميات كبيرة تكفي حاجاتهم ويصدرون الباقي لتجار المغرب والسودان وعندهم كميات كبيرة من التمر".

وقد إمتهن أهل توات التجارة — كما ذكرنا-، وهاجروا من أجلها وإستقروا في بعض مناطق السودان الغربي، وتوجد بعض الإشارات التاريخية تؤكد أن عددا من التواتيين هاجروا إلى مدن السودان الغربي الرئيسية وإستطاع هؤلاء المهاجرون أن يكونوا جاليات كبيرة في كل من تمبكتو وجاو وغيرهما، وقد إلتقى الفقيه محمد بن عبدالكريم المغيلي بأفراد هذه الجالية عندما زار مملكة سنغاي في عهد الأسكيا محمد الكبير حوالي عام 1502م، ووجدهم يشكلون نسبة كبيرة من التجار والفقهاء العرب هناك[3].

وبرغم أن العرب المسلمين كانوا يحتكرون تجارة القوافل عبر الصحراء، ويقومون بدور الوسيط مع أهالي السودان الغربي والأوسط، فقد وجدت جاليات يهودية إرتكز نشاطها في الواحات الصحراوية حيث كان هناك تجمع كبير للتجار اليهود في توات، أيام الأسكيا محمد الكبير.[4]

جـــــــاو* : تقع جاو على الضفة اليسرى لنهر النيجر، والراجح أن هذه المدينة كانت قائمة أثناء القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ولقد سكنها تجار مغاربة عرب وبربر من زناتة، وقال عنها البكري:"أهلها مسلمون وحواليها مشركون ....وهي اكثر البلاد ذهباً"، وكان أهلها يتبايعون بالملح والودع والنحاس[5]. ومع بداية القرن 9هـ/16م أصبحت جاو من أشهر الأسواق الدولية في

---

[2]- للمزيد انظر: ابن خلدون: ديوان العبر، مصدر سابق ج 6 ص 117-118
- عبدالقادر زبادية، مرجع سابق، ص216.
- أمطير سعد، مرجع سابق ص 89-90 .

- ابن خلدون، مصدر سابق، ج6 ص 117-118 . [2]

[3]- زبادية، مرجع سابق، ص 216. جميلة التكيتك، مرجع سابق، ص 116.

[4]- Jonson. H , **A history of the Colonization of Africa by alien Races**, Combridge.1913,p39-40.

* تكتب "جاو" و"غاو" و"جاغ"و"كاغ"و"كوكو" انظر السعدي، مصدر سابق، صفحات متفرقة.

[5]- البكري، مصدر سابق، ص 179.

عالم التجارة، وذاعت شهرتها في تجارة الرقيق الذي خصصت له ساحة يقام فيها سوق كبير يباع فيه.[1]

وكان أهل جاو متمتعين بثراء كبير لإنشغالهم بالتجارة، إذ كان يقصدها عدد لا يحصى من السودانيين، الذين يجلبون كميات كبيرة من الذهب ليشتروا السلع التي يجلبها التجار المغاربة إلى السودان من المغرب وأوروبا.[2]

ونظراً لشهرة جاو بأنها العاصمة السياسية والإقتصادية لمملكة سنغاي الإسلامية ، فقد كان رجال الدولة والتجار يشكلون الأغلبية قياسا بطلاب العلم والفقهاء والمعلمين، كما إشتهرت جاو بكثرة عدد سكانها، فقد قدر عددهم وقتئذ، بخمسة وسبعين ألفاً في حين لم يزد عدد سكان تمبكتو على الثلاثين ألفاً، لأنها عاصمة مملكة سنغاي الإسلامية مما جعلها تصبح المدينة الأولى في عدد السكان[3].

سوق جني : من أهم وأشهر الأسواق التجارية التي قامت في السودان الغربي وإزدهرت في عهد سلطنتي مالي وصنغي ، والفضل في ذلك يرجع التجار المغاربة الذين إتخذوها محطة لهم يتبادلون فيها الملح بالذهب، فأثروا ثراءً عظيماً من هذه التجارة التي تتم بين أرباب الملح القادمين من تغازا، وأرباب الذهب القادمين من "بيط" ، ولهؤلاء التجار المغاربة أيضاً يعود فضل معرفة أهل جني تجارة الأقمشة القطنية التي يتبادلونها مع تجار البربر على سبيل المقايضة مع القمشة الأوروبية والنحاس والأسلحة (اشهرها الخناجر).[4]

سوق تكدا[5]: كانت غالبية سكان تكدا من التجار المغاربة وذلك عندما زارها ابن بطوطة في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الخامس عشر الميلادي [6]، وذكر أن زعيم المغاربة فيها يدعى سعيد بن علي الجزولي، ووجد ابن بطوطة أن هؤلاء التجار يسيطرون في تكدا على تجارة النحاس الذي يستخرج فيها ويسبك فيها، وهم يشرفون على هذا العمل الذي يقوم به خدامهم أما دور التجار فكان الإتجار في النحاس، وهم يصنعون منه رقائق يشترون بها الطعام من اللحم والذرة والسمن والقمح، ويشترون به الحطب والعبيد والخدم، لأنهم يحملونه لبلاد البرنو ويأتون منها بالجواري الحسان، والفتيان والثياب.

---

[1]- الحسن الوزان، مصدر سابق، ص544.
[2]- نفسه ، ص 543- 544.
[3]- زبادية عبدالقادر، مرجع سابق، ص 108.
[4]- الحسن الوزان، مصدر سابق، ص 537.
[3]- كانت تكدا في الوقت الذي زارها فيه ابن بطوطة داخلة في حدود دولة مالي ، لكنها كانت مستقلة ولها ملك إسمه إزار، وكانت اكبر المراكز التجارية للطوارق سادة الصحراء وحراس طرقها وحالياً تقع على نحو 180كم شمال غرب أغادس الحالية .
انظر: رجب عبدالحليم، **الإسلام والدول الإسلامية في السودان الأوسط** الموسوعة الإفريقية، المجلد 2، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، القاهرة، 1997. ص 214.
[6]- ابن بطوطة، مصدر سابق ص 679.

ولقد ذكر العمري أن النحاس منذ ايام منسى موسى كان يستخرج ويصنع ويجعلون منه قضباناً تباع في سائر بلاد السودان وكان منسى موسى يأخذ عليه المكوس.[1]

2- المعاملات التجارية للمغاربة :

تعددت الوسائل التي تعامل بها تجار المغرب في مدن السودان الغربي مع كل من تجار مصر والمشرق والدول الأوروبية، وأغلب الظن أن التجار المغاربة هم الذين قاموا بدور الوسيط في نقل التجارات والسلع المصرية وسلع أهل الشام التي يأتون بها إلى أسواق وموانىء المغرب إلى أسواق السودان الغربي، وعلى سبيل المثال كانت سبتة ملتقى التجار الأغنياء الذين يبتاعون المراكب بما فيها من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة. اما بالنسبة لأوروبا فكان التجار المغاربة من أهل المغرب الأقصى هم الوسطاء الذين يحملون سلع الأندلس لمبادلتها بالذهب والصمغ الذي بأودغشت.[2]

اما فيما يخص التعاملات التجارية فإنه بالرغم من أن التجار المغاربة في بلاد المغرب كانوا يتعاملون بالعملات من الدراهم او الدنانير[3]، إلا أنه في البداية وقبل القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، كان معظم التعامل يتم بأسلوب المقايضة القائم على مبادلة سلعة بأخرى داخل المدن السودانية وكان ذلك يتم دون أن يتواجه الطرفان، وكل منهما يعرض سلعته ثم ينسحب، فإذا قبل كل منهما سلعة الآخر فقد تمت الصفقة، وقد أطلق المؤرخون على هذا النوع من المقايضة التجارة الصامتة التي كانت تعتمد على الذهب كسلعة رئيسية إلى جانب بعض السلع الأخرى التي قد تختلف من مدينة لأخرى، أما المحطات التجارية على أطراف الصحراء فيتم فيها البيع بحضور الطرفين وسلعتهم الرئيسية هي الملح.[4]

وخلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، تطور أسلوب التجارة في السودان الغربي وإبتعد إلى حد كبير عن المقايضة العينية [5]، فاستعملت العملات في بعض المدن السودانية والغالب على تلك العملات أنها لم تكن مسكوكة، وفي عهد ملوك صنغى كانت خزائنهم تمتلىء بكميات كبيرة من العملات وسبائك الذهب [6]، ولم يرد ذكر التعامل بالفضة إلا مرة واحدة عند ابن بطوطة [7] وهم

---

[1] - العمري، **مسالك الأبصار**، السفر الثالث، ج 4، ص 47.
[2]- البكري، المغرب، ص 157- 158.
[3]- القلقشندي، صبح الأعشى، ج 5 ، ص 177.
[4]- البكري، مصدر سابق ، ص 173. وابن بطوطة، مصدر سابق، ص 658.
[5]- الادريسي، نزهة المشتاق، ص 28.
[6]- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص 541.
[7]- ابن بطوطة، مصدر سابق، ص 658.

يتبايعون بالنحاس في تكدا حيث تقوم صناعة النحاس فيشترون برقائقه اللحم والحطب، وبقضبانه الغليظة العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح، وقد تزيد قيمة النحاس على قيمة الذهب في بعض الأوقات ثم تنخفض [1]. وقد كان هناك أيضاً تعامل بقطع الحديد التي تزن أحياناً رطلاً أو جزءاً من الرطل.[2]

أما في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، فقد نجح التجار المغاربة في تأسيس نظام إستطاع أن يربط حركة التجارة في أسواق السودان الغربي، بحركة التجارة في بلاد المغرب عن طريق نظام الوكالة (التوكيلات التجارية)، وقامت بهذا الدور أسرة مغربية من تلمسان هي أسرة "آل المقري"، حيث مهدوا الطريق أمام قوافلهم، وحفروا فيه الآبار، وأمنوا تجارتهم، وعقدوا شركة بينهم جعلوا فيها جميع ما ملكوه من أموال، وأقاموا بهذه الشركة فروعاً في كل من تلمسان وولاته وسجلماسة، فكان الوكيل التلمساني يبعث إلى الوكيل الصحراوي بما يطلبه من سلع، فيبعث له الوكيل الصحراوي سلع الصحراء من جلود وعاج وجوز وتبر. أما الوكيل السجلماسي فيقول عنه المقري:"كلسان الميزان يعرفها بقدر الخسران والرجحان، ويكاتبها بأحوال التجار والبلدان حتى إتسعت أحوالهم".[3]

وفي سبيل توحيد وتحديد قيمة المعاملات، حددت لأول مرة في السودان الغربي قيمة المثقال الذهبي بما يقابله من الودع رسمياً، فكان مثقال الذهب يصرف بأربعمائة ودعة فقط، وعين لذلك شخص معين، وأما إيفاؤهم على التعامل بالودع، فإنما كان لحاجة بعض أهالي القرى والمناطق النائية، المضطرة للتعامل به[4]. ثم عرفت بعض العملات المضروبة في المغرب طريقها إلى السودان الغربي، بعد أن كثر التعامل بها ببلاد المغرب، أما الذهب فقد إنخفضت قيمة المثقال عند مجيء المغاربة السعديين، فأصبح مثقال الذهب يصرف بثلاثة آلاف ودعة بينما قبل مجيئهم كان مثقال الذهب يصرف بأكثر من ذلك كما ذكرنا من قبل [5]، كذلك زادت أسعار الجواري، إلى جانب زيادة في بعض السلع كالتمر والأقمشة، بينما إنخفضت أسعار السلع المغربية مثل الجلد المدبوغ، والملح.[6]

3- أوضاع التجار المغاربة في السودان الغربي:

[1]- القلقشندي، صبح الأعشى ، ج5، ص 291. ابن بطوطة ، مصدر سابق 679.
[2]- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص 537.
[3]- المقري، نفح الطيب، ج 5 ، ص 205.
[4]- عبدالقادر زبادية، مرجع سابق، 189-199.
[5]- الحسن الوزان، مصدر سابق، ص 541.
[6]- السعدي ، تاريخ السودان، ص 314.

حقق التجار المغاربة في أسواق السودان الغربي شهرة واسعة، كما حققوا ثراء كبيراً، وذلك منذ عهد مملكة غانة، التي كانت عظمتها مبينة على إشتغال أهلها بالتجارة مع التجار القادمين إليها من بلاد المغرب، الذين أقاموا بغانة وكونوا طبقة من الأثرياء [1]. وكان من بين هؤلاء ، التجار السجلماسيون الذين إحتكروا أسواق السودان الغربي منذ أزمان بعيدة [2]، إلى جانب صغار التجار المغاربة المتجولين بالبلاد، والذين كانوا يزاولون نشاطهم التجاري في محلات يستأجرونها في غانة[3].

وفي حين حقق التجار المغاربة ما حققوه من ثراء، وجمعوا ما جمعوه من أموال، إلا أنهم تعرضوا على مدى قرون للضرائب التي كان يفرضها عليهم حكام السودان، فقد إمتلأت خزائن ملوك السودان الغربي بما فرضوه على التجارات الداخلة والخارجة، منذ أواخر القرن الخامس الهجري [4]، حين حين كتب البكري عن غانة وذكر سير ملوكهم في تنظيم الجباية على القوافل الواردة والصادرة، وإستمر هذا الأسلوب متبعاً في مالي ثم في صنغى.

ففي عهد ملوك مالي إستطاعوا تحقيق أرباح وفيرة بفرضهم رسوماً على العمليات التجارية والصفقات، التي تعقد على بعض السلع، مثل الخيول المجلوبة من المغرب، وكذلك على المنسوجات الأوروبية الحريرية المصبوغة، وبخاصة إذا كانت باهضة الثمن، بالإضافة إلى أن ملوك مالي قد فرضوا رسوماً على إستخراج وتعدين النحاس[5].

وقد سار ملوك صنغى على نهج ما كان يفعله ملوك مالي، ففرضوا مثل هذه الرسوم والمكوس[6]، إلى إلى أن جاء المغاربة السعديون إلى السودان الغربي، فنقلوا القناطير المقنطرة من الذهب الذي جلبه تجارهم من السودان الغربي على عهد المنصور، الذي كان يستخدمه في الإنفاق في الجهاد وبناء الدولة، لذلك نجده شأنه شأن كل الحكام المغاربة يهتم بتأمين الطرق التي تجتازها القوافل التجارية في الصحراء، كما لم يخف المنصور عن مجلس الشورى الذي انعقد لمناقشة أمر فتح السودان الغربي، أن أحد دوافعه كانت السيطرة على تجارة الصحراء [7]. ولتلك الأهمية فقد بدأ المنصور في تأسيس مدينة "المحمدية" في ملتقى طرق القوافل في شوال 986هـ/1578م[8].

---

[3]- أشار الحسن الوزان في معرض حديثه عن مركز تنبكت التجاري عن هؤلاء التجار الأثرياء فقال."أصبح السكان واسعي الثراء، لاسيما الذين إنتقلوا للإقامة في البلاد" انظر: الحسن الوزان، مصدر سابق، ص 540.

[2]- ابن حوقل، صورة الأرض، ص 91-99.

[3]- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 225.

[4]- البكري، المغرب، ص 174-176.

[5]- العمري، مسالك الأبصار، السفر الثالث، ج 4، ص 47-48.

[1]- جاء ضمن شكوى الأسكيا للإمام المغيلي" كان السلطان يأخذ المكس ولا يردع المفسدين". محمد عبدالكريم المغيلي،أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي، ص47

[7]- اليفرني، نزهة الحادي، ص 91.

[8]- الفشتالي، مناهل الصفا، ص 253-254.

أما التجار المغاربة فقد حظوا في عهد السعديين في السودان الغربي، وبخاصة في عهد المنصور بمكانة متميزة وعظيمة، وهو الذي أشاد بدورهم في تحقيق الرواج الإقتصادي الكبير لكل من المغرب والسودان الغربي، ولذلك لجأ المنصور إلى ضم بعض هؤلاء التجار إلى حملته التي توجهت إلى بلاد السودان كأدلاء، لأنهم أكثر المترددين على الطرق المؤدية للسودان الغربي، وأكثرهم علماً بالصحراء وكيفية إجتيازها.

وبالرغم من الدور العظيم الذي لعبه التجار المغاربة في التحول في النظام التجاري في بلاد السودان وتطويره إلى ما يمكن إعتباره إقتصاد دولة منظم، فقد نسب إلى بعضهم السلبيات التي نقلوها معهم، مثل إنتشار ظاهرة الغش التجاري، وكان المجتمع السوداني نفسه يعاني من تفشي هذه الظاهرة في كل السلع حتى الذهب والفضة، يضاف إليها النحاس، وخلط اللبن بالماء، إلى غير ذلك مما يلجأ إليه بعض التجار من أجل تحقيق المكاسب والأرباح بتطفيف الميزان بالزيادة أوالنقصان [1]. ومثل هذه المخالفات من أهم الأسباب التي دعت قادة المنصور في السودان الغربي، عندما إستقروا في البلاد إلى توجيه نداءات لأرباب التجارات يحثونهم فيها على التقيد بقوانين الشرع. [2]

المطلب الثاني: التجـــــــــارة الخارجية :

كان للمغاربة دور كبير في نقل التجارة الخارجية للسودان الغربي، وعلى الرغم من أن ثمة أحوالاً أخرى مثلت صعوبات في طريق التبادل التجاري بين التجار المغاربة في السودان الغربي والتجار الأجانب في كل من عصري المرابطين والموحدين، وهي الحروب مع نصارى الأندلس فقد كانت التجارة بينهم لا تزدهر إلا في سنوات الهدنة التي كثيراً ما كانت تخترق [3]، فتقل السلع الداخلة إلى المغرب والسودان الغربي. أما فيما عدا ذلك فلم تتوقف حركة القوافل التي تحمل سلع السودان الغربي إلى المغرب عن السير، بفضل جهود حكام المغرب في توفير أسباب الأمن للتجارة مع السودان والمشرق وأوروبا.

1- الطرق التجارية وحركة القوافل:

---

[4]- حاول حكام السودان قبل الحملة مقاومة هذه الظاهرة، ولقد إستعان الأسكيا محمد سلطان صنغى بالإمام المغيلي، الفقيه والقاضي المغربي، وأعلمه بوجود مثل هذه الأمور ببلاده، وطلب معرفة رأي الدين في كيفية القضاء على مثل هذه الظواهر المتفشية في المجتمع السوداني، وجاء إستفساره في صورة أسئلة مما تضمنه كتاب أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي.

[2]- الفشتالي، مناهل الصفا، ص 300.

[3]- ابن عذارى، البيان المغرب، ج 4، ص 91-92.

لقد تعددت الطرق والمسالك التجارية عبر الصحراء بين شمال إفريقيا وغربها ووسطها، حيث تعتبر العلاقات الإقتصادية أقوى الروابط في تاريخ الإتصال بين هاتين المنطقتين، وتعتبر الطرق أهم وسيلة لهذا الإتصال.

وإشتهرت عدة طرق للقوافل، كانت تبدأ من مراكش وتلمسان وتونس وطرابلس ومصر متجهة ناحية الجنوب، فتجتاز الصحراء الكبرى وتصل إلى المراكز الرئيسية في غربي إفريقيا.

يتراوح عدد جمال القافلة الواحدة بين ألف وثلاثة آلاف جمل محملة بمختلف السلع، وتستغرق الرحلة في ذهابها وإيابها فترات طويلة قد تمتد إلى شهورعديدة، وعادة ما تبدأ القافلة المتجهة إلى سنغاي رحلتها في أوائل الشتاء تحسباً لإشتداد الحرارة في الصحراء في زمن الصيف [1]. و لم تبق هذه الطرق ثابتة عبر القرون، فهناك ظروف سياسية وغيرها عملت على تغيير القوافل لمسالكها من وقت لآخر، ولكن الإتجاهات عموماً بقيت ثابتة إذ أن بعض المراكز لم تفقد قيمتها لسبب أو لآخر، وإن من أهم مؤثرات ضعف الحركة التجارية أو قوتها مدى الضمانات الأمنية التي تتوفر للقوافل، وقد كان على القوافل أن تؤدي إتاوات عن حق مرورها أو دخولها إلى أسواق الأراضي السودانية، إضافة إلى حقوق مشابهة تؤدى في المراكز الشمالية [2]. ومع أن نطاقاً صحراوياً مقفرا يفصل بين منطقة الشمال الإفريقي وبين السودان الغربي، إلا أن هذا الحاجز لم يقف جسراً يستحيل عبوره، إذ لعبت حركة التبادل التجاري والإتصال السكاني دوراً كبيراً في تواصل وتنمية العلاقات الحضارية والتبادل الإقتصادي، الأمر الذي أعطى الصحراء الكبرى أهمية قصوى في مسار تاريخ المناطق الواقعة شمالها وجنوبها. و لم تحجب الصحراء الكبرى، رغم وعورة مسالكها ودروبها هذا التواصل الحضاري، بل ظلت بمثابة البحر المحيط الذي يربط بين ساحلين، وكانت سفن الصحراء (الإبل) وسيلة الإتصال الهامة منذ القرون الميلادية الأولى وحتى القرن العشرين [3]. ورغم قسوة العوامل الطبيعية فإن طرق القوافل عبر الصحراء الكبرى لعبت دوراً هاما في نقل المؤثرات الحضارية إلى قلب القارة الإفريقية وإلى أقسامها الغربية، كما كانت أيضاً طرقاً سلكتها الهجرات المتتابعة والمتبادلة بين شمال الصحراء وجنوبها نتيجة لعوامل متنوعة، وبإتساع نطاق الهجرة والإستيطان قوي أثر العرب في حياة أهالي السودان الغربي، كما ترسخت المؤثرات العربية الإسلامية نتيجة لإعتناق نسبة كبيرة منهم للدين الإسلامي، كما

---

[1]- بوعزيز يحي، **"طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوروبيون خلال القرن التاسع عشر" تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر"**، بغداد المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية ، 1984م، ص 131.

[2]- جميلة التكيتك، مرجع سابق، 114-115.

[3]- أمطير سعد غيث، مرجع سابق، ص 114.

إتخذت مجموعات كبيرة منهم اللغة العربية وسيلة للتخاطب والتفاهم فضلاً عن أنها أصبحت لغة الثقافة والعلم، ومن أبرز هذه القوافل:

- الطريق الغربي ويمتد من سجلماسة إلى ولاته ثم إلى تمبكتو وجني وجاو.

- الطريق الذي يمتد في المنطقة التي اصطلح الباحثون على تسميتها "المغرب الأوسط" وهي الجزائر اليوم، ويمتد من تلمسان إلى توات إلى تمبكتو.[1]

- الطريق الذي يبدأ من ورقلة إلى جاو، ويتصل هذا الطريق ببعض الموانىء الجزائرية على ساحل البحر المتوسط ومنها بجاية وسكيكدة وغيرها.

- وهناك أيضا الطريق الذي ينطلق من واحة الجريد بتونس وغالباً ما تمر قوافله بورقلة أوسوف أو غدامس .

- كذلك الطريق الذي يبدأ من طرابلس الغرب على الساحل الليبي ويمر بغدامس ويمر بفزان وينتهي إلى بورنو وجاو.

- وهناك أيضاً، طريق يبدأ من مصر ماراً بواحة سيوة وزويلة فتادمكة فجاو إلى تمبكتو[2].

وقد أعطى الرحالة والجغرافيون أهمية كبرى لمعالجة موضوع طرق القوافل، فمنهم من قدر المسافات بالمراحل والأيام ، ومنهم من قدرها بالأميال.

وكانت أهمية طرق القوافل العابرة للصحراء تتغير طبقاً لقيام الدول وإنهيارها، وإنتقال مركز الثقل السياسي والإقتصادي، ففي عهد مملكة غانة كانت الطرق الغربية أكثر أهمية، وبإنهيارها وقيام مملكة مالي إنحرفت هذه الطرق شرقاً، وبقيام مملكة صنغاي زاد إنحراف هذه الطرق ناحية الشرق وأصبحت نهاية الطرق تمبكتو وجاو، وعقب سقوط مملكة سنغاي عام 1000ه/1591م، قلت أهمية الطرق الغربية ونشطت الطرق الشرقية عند قيام ممالك الهوسا[3].

ومن هنا يتضح أن بلاد السودان الغربي قد ربطت مع الشمال الإفريقي بشبكة من الطرق المختلفة والتي عبرت دروبها القوافل التجارية والهجرات البشرية المختلفة مما كان سببا في تدفق المؤثرات العربية الإسلامية المختلفة صوب تلك البقاع.

---

[1]- عبدالقادر زبادية، مرجع سابق، ص 214.

[2]- زبادية، مرجع سابق، ص 214.

[3]- أمطير سعد غيث، مرجع سابق، ص116-117.

2- المراكز التجـــــــــارية :

نظراً للحركة التجارية المزدهرة التي إنتظمت بين بلاد السودان الغربي وبين مناطق الوطن العربي، أقيمت العديد من المدن التجارية على جانبي الصحراء الكبرى، وبالذات في المناطق التي كانت تمر بها طرق القوافل التجارية الرئيسية العابرة للصحراء. وقد كانت هذه المدن بمثابة مراكز إستقرار للتجار الذين يقومون بنقل وتوزيع المنتجات المتداولة بين الشمال الإفريقي وجنوب أوروبا والمشرق العربي وبين السودان الغربي، وقد شكلت هذه المراكز والمحطات التجارية شرياناً للمعاملات الإقتصادية بين المنطقتين وأماكن لإمتزاج الأفكار تأثيراً وتأثراً، وهذه المراكز قسمان مراكز تقع على الجانب الشمالي للصحراء ومراكز على الجانب الجنوبي، وقد مر بنا ذكر بعضها مثل ولاته، تنبكت، تغازا، توات وجاو، ولهذا سنتعرض لمراكز اخرى لا تقل أهمية عن سابقاتها وهي "غدامس" ،"تادمكة،"سجلماسة" "ورقلة"و"فزان " .

غدامس: تقع غدامس عند إلتقاء الحدود الليبية مع كل من تونس والجزائر، وإشتهرت كمركز تجاري هام، حيث أصبحت ملتقى الطرق التجارية للقوافل القادمة من مدن سواحل الشمال الإفريقي، ثم تتفرع منها عدة إتجاهات نحو بلاد السودان الأوسط والغربي. وإلى جانب خدمة القوافل إشتهرت غدامس أيضاً بصناعة الجلود، وقد وصفها الحسن الوزان بقوله:"...غدامس منطقة كبيرة مسكونة، حيث القصور العديدة، والقرى المأهولة، على بعد نحو ثلاثمائة ميل من البحر المتوسط، سكانها أغنياء ، لهم بساتين نخل وأموال، لأنهم يتاجرون مع بلاد السودان، يدبرون شؤونهم بأنفسهم، ويؤدون خراجاً إلى الأعراب"[1]، وقد إشتهرت غدامس بإتصالاتها المتعددة مع بلاد السودان الغربي، وقد كانت قوافلها التجارية تجوب بلاد السودان، وقد سافر ابن بطوطة صحبة أحد هذه القوافل[2].

تادمكـــة : تحدث عنها البكري واصفاً:"... وتادمكة أشبه بلاد الدنيا بمكة، ومعنى تادمكة هبة مكة وهي مدينة كبيرة بين جبال وشعاب، وهي أحسن بناءاً من مدينة غانة ومدينة كوكوا، وأهل تادمكة بربر مسلمون وهم يتنقبون كما يتنقب بربر الصحراء."[3]

---

[1]- الحسن الوزان، مصدر سابق، ص 146.
[2]- ابن بطوطة، مصدر سابق، ص 452.
[3]- البكري، مصدر سابق، ص 181.

يتضح من هذه الإشارات التاريخية الأهمية الكبرى التي كانت تتمتع بها تادمكة، وأن إمتداد الهجرات العربية الإسلامية إليها كان منذ ما قبل القرن الحادي عشر الميلادي، وهو التاريخ الذي كتب فيه البكري مصنفه الكبير "المسالك والممالك"، وأنها ضمت خليطاً من العناصر الإفريقية والعرب المغاربة، فقد ذكر ابن حوقل أن ملوكها:"سودان ابيضت أبشارهم وألوانهم".[1]

ويدل هذا على إختلاط العناصر السكانية والإقبال على الإستقرار في تادمكة، وتحسن الوضع الإقتصادي والأمني فيها حتى صارت في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أحسن عمراناً وبناءاً من غانة، ورغم أن ابن بطوطة لم يتعرض لتادمكة بعد خروجه إلى تكدا من كوكو ثم شمالاً نحو الصحراء الكبرى، ويبدو أن ذلك لم يكن لضعف أهمية تادمكة، وإنما لأن ابن بطوطة تلقى رسالة السلطان بفاس، فسارع لتلبية أوامره وقفل راجعاً، و لم يكمل زيارته للمنطقة وإستقصاء أخبارها ووصف أحوالها [2]، وعموماً فقد ظلت تادمكة مركزاً تجارياً هاماً حتى أواخر القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي[3].

سجلماسة : تعد سجلماسة ثاني مدينة تشيد بالمغرب الإسلامي بعد القيروان وعاصمة أول دولة مغربية مستقلة عن الخلافة بالمشرق، والمتمثلة في إمارة بني مدرار الخارجية الصفرية، فقد أجمعت بعض المصادر التاريخية، أن سجلماسة بنيت سنة 140هــ/757م.[4]

وتعتبر سجلماسة أهم مركز شمالي في تجارة القوافل، فهو مركز إنطلاق القوافل وتحركها إلى بلاد السودان الغربي حيث تسير إلى تغازة، ويصفها ابن حوقل بأنها كانت مركزاً تجارياً هاماً فيقول:"...ويقارب القيروان سجلماسة، في صحة الهواء، ومجاورة البيداء مع تجارة غير منقطعة منها إلى بلد السودان، وسائر البلدان وأرباح متوافرة ورفاق متقاطرة ..."[5]، فالتجارة هي مصدر الثروة الكبيرة التي تجمعت بالمدينة، وخاصة الثروة الذهبية التي كانت بأيدي سكانها وخاصة التجار.

ويقول ياقوت الحموي في معجم البلدان عن ذلك "وأهل هذه المدينة من أغنى الناس وأكثرهم مالاً لأنها على طريق من يريد غانة التي هي معدن الذهب ولأهلها جرأة على دخولها "[6]، وقد حافظت

---

[1] - ابن حوقل، مصدر سابق ص 105.
[2] - ابن بطوطة، مصدر سابق، ص 454.
[3]- أحمد إلياس حسين، **الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس عشر كما عرفها الجغرافيون العرب** رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، غير منشورة، جامعة القاهرة: كلية الآداب، 1977م، ص 137.
[4] - البكري، مصدر سابق، ص 142-150. المراكشي، بيان المغرب، مرجع سابق، ص 150-156.
[5] - ابن حوقل، مصدر سابق، ص 99.
[6] - ياقوت الحموي، مصدر سابق، ص 192.

سجلماسة على مكانتها التجارية لعدة قرون، وذكر المقدسي أيضاً بأنها "صحيحة الهواء كثيرة الثمار والأعناب والزبيب والفواكه والحبوب والرمان، كثيرة الغرباء وبها معادن الذهب والفضة".[1]

كما تعتبر سجلماسة حلقة وصل بين المدن المغربية في الشمال وبين المدن السودانية في الجنوب، فهي مركز تجاري نشط فقد كانت على صلة تجارية مستمرة، وتعتبر ميناءاً صحراوياً تتجمع فيه بضاعتان ثمينتان هما الذهب والرقيق، فنجد أن جميع القوافل التجارية القادمة من المراكز التجارية الشمالية والمتجهة نحو بلاد السودان أوالعائدة منها تمر بسجلماسة، فهي بذلك مركز حساس من مراكز التجارة الصحراوية(انظر الملاحق، الخريطة رقم 05).

ورقـــــــلة: تقع في صحراء الجزائر الآن(انظر الملاحق، الخريطة رقم 05)، وصفها الحسن اوزان بأن بيوتها جميلة، فهي واحة واسعة ويكثر بها النخيل وتعتبر مركزاً تجارياً هاماً ونقطة إتصال حيث تربط المغرب الأوسط بالسودان الغربي، أما مظاهر الحياة فيها، كما وصفها الوزان فتزخر بكثرة الصناع، وكان سكانها على درجة من الغنى بسبب علاقتهم بمملكة أغادس، وقد يأتي إليها الباعة والتجار بمنتوجاتهم لإبدالها بالسلع السودانية التي تأتي لها، حيث يستقبلون إستقبالاً طيباً، وأهم سلعهم القمح واللحم والملح والسمن والأقمشة الصوفية والكتانية والأسلحة وغيرها.[2]

فـــــــــزان : يصفها الوزان على أنها:" منطقة كبيرة تقوم فيها قصور ضخمة وقرى كبيرة، وكلها مأهولة بأناس أغنياء بالمال وبحدائق النخيل وهم واقعون فعلاً على تخوم أغادس وصحراء ليبيا التي تتاخم مصر..."[3]، وقد أكد الوزان إتصال فزان بالسودان الغربي، فهي مركز تجاري هام من مراكز التجارة والتي تقع عليه طرق القوافل التي كانت تذهب للسودان الغربي،[4] فالتجارة فيها نشطة وعلاقاتها طيبة، فكل منتوجات البلاد الشمالية الإفريقية بطرابلس وتونس ومصر الزراعية والصناعية التي كانت تشحن إلى الجنوب والقوافل التي كانت تحمل مصنوعات ومحصولات الجنوب إلى الشمال تمر كلها بفزان، وحتى طرق التجارة بين تنبكتو ومصر كانت تمر أيضاً بفزان .

ومن هنا يمكن القول أن فزان بفضل توسطها لطرق القوافل الآتية من الغرب إلى الشرق، ومن الشمال إلى الجنوب، قد لعبت دوراً نشطاً في الحركة الإقتصادية المنسابة من مملكة سنغاي وإليها، منذ مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.

---

[1] - المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 231.

[2] - الوزان، مصدر سابق، ص 508.

[3] - الوزان، المصدر السابق، ص 516-517.

[4] - قاسم جمال زكريا، **"كتاب وصف إفريقيا وتاريخها للحسن محمد الوزان"**، حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة مج 11، 1968م، ص 292.

3- السلع التجـــــــــــــــارية:

أدى النشاط الإقتصادي إلى إزدهار المراكز التجارية وإلى توسع حركة تبادل السلع التجارية بين المنطقتين، كما تنوعت مصادر هذه السلع وأنواعها، ويمكن تصنيفها إلى سلع واردة إلى السودان الغربي، وسلع صادرة منه.

أ- **السلع الواردة** : وصلت إلى السودان الغربي انواع متعددة من السلع بعضها من البحر الأبيض المتوسط وبعضها الآخر من الصحراء ومن أهم هذه السلع:

المـــــلح: كان الملح يشكل مادة تجارية وذلك للحاجة الماسة إليه وقد أشار إلى ذلك الكثير من الجغرافيين والرحالة والمؤرخين ومنهم ابن بطوطة الذي أشار إلى أهمية الملح بقوله:"...وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة، يقطعونه قطعاً ويتبايعون به "[1]، وكان الملح يستخرج من منجمي أوليل وتغازا اللذين تحدث عنهما البكري بقوله:"...ومن غرائب تلك الصحراء معدن ملح بينه وبين سجلماسة مسيرة عشرين يوماً تحفر عنه الأرض كما تحفر عن سائر المعادن والجواهر ويوجد تحت قامتين أو دونهما من وجه الأرض ويقطع كما تقطع الحجارة... ومن هذا المعدن يتجهز بالملح إلى سجلماسة وغانة وسائر بلاد السودان والعمل فيه متصل والتجار إليه متسايرون وله غلة عظيمة ومعدن للملح آخر عند بني جدالة بموضع يسمى أوليل على شاطيء البحر."[2] ويبدو أن الملح كان مادة ذات أهمية كبيرة لدى السودانيين، ولا تقل أهميته عن إهتمام العالم بالذهب في ذلك الوقت، وكان يحمل من الصحراء إلى مراكز التجارة الكبرى على طرق الصحراء الجنوبية حيث يوضع في الداخل[3].

وبسبب المسافة التي يقطعها عبر الصحراء على ظهور الجمال وإزدياد الطلب عليه من داخل السودان إرتفعت قيمته بصورة كبيرة، وقد إتفق الجغرافيون العرب على أن الملح كان السلعة الأولى التي يدفع السودانيون الكثير في سبيل الحصول عليها .[4] وكانت الممالك والمراكز التجارية على طرق الصحراء الجنوبية توليه إهتماما كبيراً وتيسر كل السبل للحصول عليه.

النحـــــاس: حرص أهالي السودان على الحصول على النحاس، الذي إستخدموه في أغراض مختلفة، وقد حصلوا عليه من خلال مبادلاتهم مع التجار المغاربة العرب، وقد توفر معدن النحاس في كل من السوس وتادلى وتكدا. وتحدث عنه إبن بطوطة قائلاً:" ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عنه

---

[1] - ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 441.

[2] - البكري، مصدر سابق، ص 171.

[3] - أمطير سعد غيث، مرجع سابق ، ص136. الهادي الدالي، مرجع سابق، ص 324.

[4] - جميلة التكيتك، مرجع سابق، ص 137.

الأرض ويأتون به إلى البلد، فيسكبونه في دورهم" [1]، كما تحدث عن استخدام النحاس كعملة تستعمل في البيع والشراء فقال"....فإذا سبكوه نحاساً أحمر، صنعوا منه قضباناً في طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ...، يشترون برقاقها اللحم والحطب، ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح"[2]، واستخدم النحاس أيضاً في الزينة كحلي وصنعوا منه الأقنعة والتماثيل.

الأقمشة والأصباغ: شغف أهل السودان بإقتناء الأنواع المختلفة من الأقمشة والمنسوجات البديعة الصنع الواردة من الشمال الإفريقي والمشرق العربي وحوض البحر الأبيض المتوسط، رغم أنهم تعلموا صناعة النسيج وذلك بسبب توفر مادة القطن الذي إستوردوا بذرته من الشمال الإفريقي، لكن يبدو أن الكميات التي أنتجوها لم تكن تكفيهم مما دعاهم إلى إستيراد هذه المنتجات عبر القوفل التجارية الوافدة على بلادهم، وقد وصف البكري أهالي تادمكه وملكهم بالقول:"...ويلبسون الثياب المصبغة بالحمرة من القطة والفولى وغير ذلك وملكهم يلبس عمامة حمراء وقميصاً أصفر وسراويل زرقاء "[3]. كما وصف ابن بطوطة ملابس أهل ولاته بأنها :"ثياب مصرية حسان".[4]

الكــــــــتب: كانت الكتب من أبرز السلع المتداولة ويجني منها التجار أرباحاً طائلة بسبب الإقبال الشديد لأهالي المنطقة على إقتنائها وقد كانت أسعارها مرتفعة وسوقها رائجة [5]، وكانت الكتب ترد من المغرب ومصر والمشرق العربي. وقد عرف السودان الغربي معظم المؤلفات المعروفة آنذاك في الوطن العربي والعالم الإسلامي [6]. ورغم إنتشار حرفة الوراقين كتقليد لواقع الحال في المغرب ومصر وقيام السودانيين بوضع العديد من المؤلفات وفي شتى صنوف المعرفة [7]، غير أن عملية استيراد الكتب والمتاجرة فيها لم تتوقف.

سلـــــع أخرى : وصلت إلى السودان الغربي عبر الصحراء الكبرى العديد من السلع الأخرى مثل: القمح الذي كان يزرع في بعض مناطق السودان الغربي ولكنه لا يكفي حاجة الإستهلاك، ومع أنه لم يكن الغذاء الرئيسي للسكان آنذاك، إلا أنه كان لابد من سد النقص الذي عانى منه السكان، فلجأ التجار إلى إستيراده من بعض أقاليم الوطن العربي. وقد أشار البكري إلى أن القوافل التجارية كانت

[1] - ابن بطوطة، مصدر سابق، ص 453.
[2] - نفسه ، ص 454.
[3] - البكري، مصدر سابق، ص 181.
[4] - ابن بطوطة، مصدر سابق، ص 442.
[5] - الحسن الوزان، مصدر سابق، ص 541.
[6] - أمطير سعد غيث، مرجع سابق، ص 140.
[7] - جميلة التكيتك، مرجع سابق، ص 139. محمد الغربي، مرجع سابق، ص 450.

تحمل القمح والزبيب والتمور إلى أودغست[1]، وقد وصلت إلى المنطقة التمور وبعض أدوات الزينة مثل العطور والأصداف [2] والاسورة والختم[3] والودع[4]، والفخار والأدوات الخزفية الراقية الملونة والتحف المعدنية[5] والخيول[6].

ب- **السلع الصادرة من السودان الغربي:** من أهم السلع التجارية التي لعبت دوراً هاماً في تجارة الصحراء، والتي كانت تمثل الصادرات الرئيسية لممالك السودان الغربي مايلي:

الذهب: معدن الذهب من أهم السلع المحلية التي إشتهر بها السودان الغربي، وكان وراء تنشيط حركة التبادل التجاري عبر الصحراء الكبرى منذ أيام مملكة غانا، بيد أن أهميته قد زادت، نتيجة للشهرة التي إكتسبتها مملكة مالي، على إثر حجة منسا موسى المشهورة إلى الأراضي المقدسة عام 1324م، والتي أنفق فيها ما حمله مائة جمل من الذهب الخالص، علماً بأن الجمل الواحد كان يحمل ثلاثة قناطير[7]. وقد وقد أدى ذلك إلى توافد التجار والعلماء الأجانب إلى السودان الغربي الذي برزت أهميته العالمية، وظل هو المصدر الرئيسي للذهب حتى إكتشاف الأمريكيتين [8]. وكان ذهب السودان ينتج من مناجم "ونجاره" التي إشتهرت بتواجد معدن الذهب فيها وبكميات كبيرة، حيث تعتبر المنبع الرئيسي للذهب وسميت بأرض الذهب.

وتحدث الوزان عن وفرة الذهب والثراء الكبير الذي ظهر به ملوك السودان الغربي بقوله:"...ويملك الملك خزينة كبيرة من النقود والسبائك الذهبية "[9]. ورغم أن مناجم الذهب كانت تقع في الأجزاء الجنوبية من بلاد السودان الغربي، والتي كانت في أحيان كثيرة خارج سيطرة الممالك الإسلامية في السودان الغربي، غير أن هذه الممالك كانت تسيطر على الطرق المؤدية إلى مناطق الذهب، فقد سيطرت مملكة مالي ثم مملكة سنغاي على هذه الطرق وأقامت علاقات تجارية مع الشمال الإفريقي. وفي أواخر القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي رأى الأشراف السعديون في المغرب الأقصى أن الظروف مواتية للسيطرة على مناطق الذهب والطرق المؤدية إليه، وذلك بسبب التفكك والإضطرابات التي كانت تعيشها مملكة سنغاي، وبالرغم من النجاح العسكري الذي أحرزه المنصور السعدي فإن عائده من الذهب كان ضئيلاً، وبإنتهاء سنغاي عام 1000هـ/1591م، انتهى عصر

---

[1] - البكري، المصدر السابق، ص 158.
[2] - الإدريسي، المصدر السابق، ص ص 66.
[3] - القزويني، مصدر سابق، ص 19.
[4] - البكري، المصدر السابق، ص 179.
[5] - السيد عبد العزيز سالم، **المغرب الكبير في العصر الإسلامي**، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة. 1966. ص 573.
[6] - القلقشندي، مصدر سابق، ج 5 ص 287.
[7] - ابن خلدون، مصدر سابق، ج5، ص 932.
[8] - جميلة التكيتك، مرجع سابق، ص 134.
[9] - الوزان، مصدر سابق، ص 166.

الذهب عبر الصحراء[1]، وذلك لإخفاق السعديين في إستغلال مناجمه بالصورة المطلوبة، ثم إن المنطقة سرعان ما وقعت تحت نفوذ الإستعمار الأوروبي.

والخلاصة أن الذهب والمتاجرة فيه قد لعبت دوراً كبيراً في نمو العلاقات بين الشمال الإفريقي والشرق العربي وبين السودان الغربي لعدة قرون، وساعدت على إزدياد الإتصال بين شعوبها وإنتشار الإسلام والحضارة العربية في السودان الغربي.

الرقيـــــــق: كان الرقيق يمثل أحد السلع التجارية الهامة في العالم منذ أقدم العصور، وكانت بلاد السودان الغربي أحد مصادر الرقيق الوارد إلى شمال إفريقيا ومناطق حوض البحر الأبيض المتوسط [2]، وقد تصدرت تجارته وتصديره إلى الشمال والشرق إهتمام المغاربة من التجار المقيمين في بلاد السودان الغربي(انظر الملاحق، الخريطة رقم 06)، نظراً لكثرة الإقبال على شرائه لما يدره عليهم من أموال [3]. ويلاحظ أن منطقة السودان الغربي كانت أكثر المناطق الإفريقية تعرضاً للإستتراف على إثر تطور حركة الكشوف الجغرافية وإكتشاف الأمريكتين، والغريب أن المستشرقين الأوروبيين يلمزون العرب بتهمة تجارة الرقيق وإستتراف القدرات البشرية للقارة الإفريقية، في حين تاجر العرب كغيرهم في الرقيق تجارة عادية، لأسباب معلومة تتعلق بحاجتهم للرقيق لأسباب إجتماعية كخدم في البيوت، و لم يكن الرقيق الإفريقي فقط بل كان الرقيق الأوروبي هو المفضل للعمل في الجيوش، ومن ثم لم يرتبط الرق في العالم العربي باللون، كما كان الحال في أوروبا، حيث كان الرقيق مع مطلع العصور الحديثة أسود[4].

ولا يمكن بأي حال من الأحوال مقارنة تجارة الرقيق العربية طوال تاريخها بتجارة وقنص الرقيق من قبل دولة أوروبية واحدة مثل البرتغال أو بريطانيا أو فرنسا أو إسبانيا أو هولندا[5]، ففي الحالة الأوروبية الأوروبية كان الطلب على الرقيق ضخماً وهائلاً [6]، بحكم الحاجة لهم للعمل في الأمريكيتين، وهو ماجعل خمس سكان الولايات المتحدة الأمريكية اليوم من الأفارقة السود، كما تختلف تقديرات المؤرخين لأعداد الرقيق الذي نقله الأوروبيون من إفريقيا طوال الفترة الممتدة من الثلث الأول من القرن الخامس عشر الميلادي[7]، وحتى إلغاء تجارة الرقيق في المستعمرات الإفريقية في أواخر القرن التاسع

---

[1] - زبادية، مرجع سابق، ص 53.
[2] - بنمليح عبدالإله، **الإسترقاق في الغرب الإسلامي بين الحرب والتجارة**، صفحات متفرقة.
[3] - نفسه ص 48.
[4] - شوقي الجمل، مرجع سابق، ص 128-130.
[5]- جمال حمدان، **إستراتيجية الإستعمار والتحرير**، القاهرة 1968ص 104.
[6]- **"الرق بإفريقيا"** مجلة البحوث التاريخية العدد 2، ليبيا، 1986. ص 15.
[7]- شوقي الجمل وعبدالله ابراهيم، **تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر**، الرياض : دار الزهراء، الطبعة الثانية 2002. ص 51.
دونالد ويدنر، تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة راشد البراوي، القاهرة: مكتبة الوعي العربي، 1962. ص 63-70.

التاسع عشر بل وحتى مطلع القرن العشرين، حيث ذكر بعض الباحثين الأفارقة ومنهم الرئيس الغاني الأسبق الدكتور كوامي نكروما أن هذه الأعداد تصل إلى مائة مليون نسمة [1]، بينما لا تتكرر هذه الظاهرة في العالم العربي، رغم جواره الجغرافي لإفريقيا، وطول عهد التعامل الإقتصادي معها[2].

كذلك لم يكن الرق في العالم العربي حائلاص دون الرقي والتقدم الإجتماعي للرقيق، فالرقيق صاروا حكاماً وسلاطين، مثلما كان حال كافور، وسلاطين الدولة المملوكية في مصر من بعده، بينما كان الرقيق مطحوناً لا حقوق له في الحضارة الأوروبية، وكفلت الشريعة الإسلامية عتق وتحرير الرقيق كمبدأ، وحسن معاملتهم كسلوك ديني. أما الحضارة الغربية فلم تكفل هذه الحقوق إلا متأخراً [3]، ولازالت بقايا العصر العبودي كامنة في بنية هذه الحضارة من خلال الممارسات العنصرية القائمة على أساس التفرقة بسبب اللون والعقيدة والإنتماء الحضاري.

سلـــــــع أخرى : إلى جانب تصدير الذهب والرقيق، ساهم السودان الغربي أيضاً بتصدير عدد من السلع الأخرى ، التي إعتمدت عليها تجارة الصحراء مثل الدخن، وريش النعام والشب والقطن والكولا والعاج والجلود والفول السوداني والعنبر وغيرها.[4]

المبحث الثاني: الدور المغربي في الزراعة والصناعة:

1- الدور المغربي في الفلاحة والصيد:

تعتبر أقاليم السودان التي كانت مشمولة بالحكم المغربي مطلع القرن الحادي عشر الهجري، ضمن الإقليم المداري الجاف ، ورغم التباين بين مناطقها الشمالية والجنوبية من حيث المظاهر النباتية، ودرجات حرارة الليل والنهار ونسبة الرطوبة وكمية الأمطار فإن طابع الجفاف على تفاوته عند الإنتقال من خط عرض إلى آخر يبقى هو المميز لكل تلك الأقاليم، ولكن المجرى المائي الهام المتمثل في نهر النيجر يغير المناظر في الحيز الذي يجري فيه أو يدفع إليه مياه فيضانه، وهكذا فإن حوض النهر لم يقدم فقط إمكانية إقامة زراعة كثيفة ولكنه سمح بالتحكم في مياه النهر وجرها إلى أماكن بعيدة، وإتخاذ أجود المزارع واستنبات مختلف الأشجار المثمرة منذ فجر التاريخ الإفريقي، ولا شك أن المناخ

---

[1] - سيد فليفل، **الخلفية التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية عبرالصحراء الكبرى**، ندوة العلاقات العربية الإفريقية، طرابلس: جمعية الدعوة الإسلامية، 1999. ص 61.

[2] - نفسه ص 63.

[3]- شوقي الجمل وعبدالله ابراهيم، مرجع سابق ص 53-54.

[4] - الهادي الدالي، مرجع سابق 322- 323. جوزيف كي زربو، **تاريخ إفريقيا السوداء**، القسم الثاني ، ترجمة يوسف شلب الشام، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، 1994. ص 634.

الحار والتربة الرسوبية المكونة في الغالب من طمي النهر قد ساهما مساهمة قيمة في ذلك الجهد الفلاحي.

كما أن الزراعة تمثل الحرفة الرئيسية، والمصدر الأساسي لعيش الغالبية العظمى من أهل السودان الغربي، وذلك لوجود معظم الأقاليم المأهولة بالسكان في منطقة السفانا، التي تتمتع بخصوبة التربة ووفرة المياه. وقد ساهم عدد من حكام السودان الغربي، وفي طليعتهم أسكيا الحاج محمد الكبير في تطوير الإنتاج الزراعي، وإدخال أساليب جديدة لإستصلاح الأراضي وتحسين الحبوب، ورفع معدلات الإنتاج، مستفيداً من صلات بلاده الوثيقة بالشمال الإفريقي.

والزراعة في السودان الغربي هي عبارة عن مزارع للقطاع العام والخاص ، وكان لحكام سنغاي مزارع خاصة بهم، يعود منتوجها لهم، فعلى سبيل المثال مزارع السلطان أسكيا داوود، الذي كان يشغل فيها عبيده، ويشرف عليها رئيس خدمه، ويحصل من المزرعة الواحدة على ألف صينية.[1]

ويبدو أن مجيء المغاربة إلى السودان وتوطيد العزم على الإستقرار فيه كان بركة ورحمة على القطاع الفلاحي، ولم تكن حملة السعديين تتكون من الجنود فقط، كما رأينا من قبل، بل كانت تضم أيضاً الخبراء والفنيين الذين كان لهم دور مهم في تغيير الوجه الإقتصادي للسودان.

وقد أتت الخبرة الأندلسية في ميدان الفلاحة أكلها بالسودان في كل بقعة إمتد إليها الحكم المغربي، وأخذت المزارع السودانية وخاصة في الغرب شكل البساتين الأندلسية فشهدت تطوراً مهما من ناحية الإنتاج الغذائي وكان يشرف على تلك البساتين فلاحون من المغرب .[2] وتجلى ذلك التحول أيضاً في نظام الإستغلال الحثيث للأرض وفي التجاوب مع إمكانياتها في العطاء فاستغلت سفوح الجبال وشقت بالمساطب والقنوات، وبرع الأفارقة في الزراعة على سفوح الجبال وقممها، وأتقنوا صيانة التربة على مهاوي التلال، وبنوا نظماً زراعية معقدة ونقلوا من أهل الشمال الإفريقي النظم الإجتماعية والقدرات الفنية، وأضافوا إليها ما حذفوه في السابق، وطوعوا كل هذا لتجربتهم هم أنفسهم، ثم إخترعوا ما إحتاجوا إليه من أدوات وفنون على هدي ما إقتبسوه من الشمال.

ولا شك أن الأندلسيين الذين إنتقلوا إلى السودان مع حملة جودر باشا، أو بعدها قد لعبوا دوراً مهماً في التطور الملموس الذي شهدته الفلاحة السودانية، فقد تفرق الأندلسيون في البوادي واستنبطوا المياه

---

[1] - الهادي الدالي، مرجع سابق، ص 268.

[2] - محمد الغربي، مرجع سابق، ص 472.

وغرسوا الأشجار وعلموا أهل البادية أشياء لم يكونوا يعرفونها فكثرت مستغلاتهم وعمت الخيرات، ومال أهل الحواضر إلى المدن فاستوطنوها فكثر أهل الصنائع[1].

وفي ميدان الري نجد أن الوسائل التي أدخلها المغاربة من أضناف وأغراس لم تكن معروفة في السودان، وما إجتهدوا فيه لتجويد المزروعات التي كانت موجودة قبل مجيئهم، وما بذلوه من جهد لترويض أجناس الحيوان، ومقاومة الأوبئة الضارة به عن طريق البيطرة التي عمل فيها أطباء مختصون وخبراء وكذلك الأدوية وأصناف التطعيم[2].

أما فيما يخص تربية الحيوانات وصيدها، فكانت الحيوانات المستأنسة منها من مستلزمات الحياة السودانية، وإشتهرت بتنوعها وإختلاف أشكالها وخواص جلودها ولحومها لإختلاف طبيعة الأقاليم في السودان[3]، وقد جلب المغاربة أنواعاً منها فتناسلت في تلك البلاد وأعطت سلالات جيدة، وكان الماعز وكلاب الحراسة وأصناف الحمام في طليعة ما جلبه المغاربة، أما الحصان العربي فقد أدخله الجيش المغربي إلى تلك البلاد و لم يكن يوجد قبل إحضاره سوى نوع متوحش صغير الهيأة يدعى "كيمراس"، و لم تمر سوى سنوات قليلة حتى تناسلت الخيول المغربية من الصنف المحلي وأعطت نوعاً لا يتأثر بلفح الهواء ولا بلسع الحشرات القاتلة، وأهم الحيوانات الأليفة في بلاد السودان على عهد المغاربة نجد الأغنام، البقر، الحمير، الجمال، الدواجن، النحل، ومختلف أنواع الأسماك التي كانت تصطاد من نهر النيجر[4].

2- الدور المغربي في الصناعات والحرف:

عرفت الصناعات المحلية إزدهاراً كبيراً في السودان الغربي، فقد كانت صناعة الخشب من الصناعات الواسعة الإنتشار في المنطقة، فمن خشب أشجار الأبنوس والخيزران صنعوا الأبواب ، والنوافذ، والأعمدة، وأدوات الصيد، والحرب من نشاب ودبابيس ورماح ونحوها.[5]

ولقد عمل السكان في صناعة الفخار وتشكيله، فصنعوا منه أدوات للطبخ، وحفظ الحليب، عرفت عندهم بالقدح. كما كانت عندهم صناعة القرب التي كانت تصنع عادة من جلد الماعز ، ومن الصناعات المترلية التي كانت منتشرة صناعة الدلاء التي تستخدم لسحب الماء من البئر، كما طور

---

[1] - المقري، نفح الطيب، ص 764.

[2] - Dupuis-yakoula ‘**industries et principales professions des Habitants de la region de Tambouctou** - Paris 1921p 183-184

[3] - الهادي الدالي، مرجع سابق، ص 276.

[4] - محمد الغربي، مرجع سابق ، ص 474.

[5] - الإدريسي، مصدر سابق ص 20.

الأهالي بشكل كبير صناعة النسيج، وخاصة بعد وجود المواد الأولية لهذه الصناعة منها الصوف والوبروالقطن.[1]

كما أن صياغة الذهب والفضة كانت من الصناعات المهمة في السودان الغربي، حيث إشتهرت بها مدينة تنبكت وسهل، كما إنتشرت عندهم صناعة الحدادة حيث تصنع أدوات الفلاحة والصيد والأسلحة وغيرها.

ولكن برغم تنوع الصناعات والحرف ببلاد السودان الغربي، فإنها لم تكن تستغني عن المصنوعات النحاسية والحديدية والزجاجية، والمنسوجات بأنواعها القطنية والحريرية التي كانت تردها من المغرب.[2]

وتطورت صناعة دبغ الجلود، وكثر محترفوها، حيث تعددت الصناعات الجلدية، فصنعوا القرب والملابس والنعال والسروج وأغمدة السهام والآلات الموسيقية، وخاصة الطبل الذي كان من أهم الآلات الموسيقية، لدى سكان السودان الغربي، وقد جلبوا له مواد الصباغة من المغرب، ومن مدينة غدامس بليبيا، وقد نشطت حرفة الصباغة في العهد المغربي، وحتى أواخر القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، حيث كان قسم كبير من سكان سنغاي يلبسون خلال فصل الشتاء الجلود المصبوغة[3] .

المبحث الثالث: آثار الوجود الإقتصادي المغربي على بلاد السودان:

ساهم المغاربة بما لا يدع مجالاً للشك، في تطور وتنمية الإقتصاد السوداني فقد كانوا هم أبرز منفذ للسودان إلى الشمال، بل كانت بلاد المغرب شريان الحياة الذي تنتقل عبره الروافد الحضارية إلى السودان الغربي، ويمكن تلخيص أهم آثار الوجود الإقتصادي المغربي فيما يلي:

كان الأثر الأول للوجود المغربي في السودان هو الوحدة الإدارية بين أقاليم السودان، ففي عهد الأساكي الخمسة السابقين للحكم المغربي كانت إمبراطورية السونغاي التي وحدها الأسكيا الحاج محمد قد تفرقت إلى ممالك وإمارات وأقاليم إقطاعية، وحتى في فترات السلم والأمن التي كانت تسود تلك الأقاليم في بعض الأحيان، فإن القيود التعسفية التي كانت تفرض على التجارة جعلت إنتقال السلع بين جهة وأخرى يكتنفه التعقيد . وتمثلت تلك القيود في فرض الضرائب عند أبواب المدن وأخذ الغرامات،

---

[1] - الهادي الدالي، مرجع سابق، ص 289.
[2] - محمد الغربي، مرجع سابق، ص 491.
[3] - نفسه، ص ص 500-505.

والإتاوات الباهظة لخزائن الحكام. ويضاف إلى تحقيق الوحدة في عهد المغاربة عودة الأمن والنظام وإختفاء قطاع الطرق الذين كانوا في السابق يوالون السطو عل القوافل البرية والسفن التجارية.[1]

ثـــانياً: تزايد إقبال التجار على نقل بضائعهم من وإلى المغرب، فالأوضاع خلقها النزاع المستمر على مناجم الملح حيث إنعكست سلباً على التواصل التجاري بين الجانبين ومع إختفاء ذلك النزاع وأسبابه والأوضاع التي نتجت عنه أخذت التجارة في الإتساع والنمو وبدأ الحديث عن القوافل التي تضم آلاف الجمال التي كانت تقطع الصحراء من الجهتين.

ثـــالثاً : تحول المعاملات التجارية من المقايضة إلى التعامل النقدي، وهوأمر أثر بكيفية ملموسة على النمو الإقتصادي في السودان، فذهب السودان لم يكن كله يذهب إلى خزائن السلطان بل كان القسم الأعظم منه يدخل دار السكة في تنبوكتو ويضرب مثاقيل ودنانير لم تكن تشبه لا في الشكل ولا في الوزن مثيلاتها في الشمال.

رابــعاً: إدخال الموازين والمكاييل والمقاييس إلى السودان على يد المغاربة وقد أدى ذلك إلى وحدة المعايير السودانية وخضوعها جميعاً للدقة المطلوبة في ميدان التجارة والمعاملات الأخرى وإلى كبح الغش والتدليس وإسقاط الوساطات والمزايدات التي كانت إحدى عيوب التجارة السودانية القديمة.

خامساً : تنظيم الأسواق المحلية على شاكلة ما كان يوجد في المغرب ، فبينما كانت الأسواق الكبرى تعقد كلما قدمت قافلة أو همت أخرى بالتوجه إلى الشمال، وكانت الأسواق الصغرى عبارة عن إتصالات بين القبائل للمقايضة. وأصبحت هناك أسواق يومية في كل المدن الكبرى، وأسواق أسبوعية في القرى تعقد فيها البيوع على أساس التعامل النقدي بضمانة أكيدة وموثوقة من بيت المال بتنبوكتو.

سادســـاً: ظهور الصناعات التحويلية والكمالية على نحو لم تعرف له السودان نظيراً من قبل، ولقد كان للأعداد الكبيرة من الصناع المهرة الذين صحبهم جوذر باشا معه إلى السودان أو الذين توافدوا بعد ذلك إلى البلاد الأثر المحمود في خلق صناعات جديدة وتحسين الصناعات البدائية التي كانت معروفة قبل مجيء المغاربة إلى السودان.

سابعــاً : نقل بذور ومزروعات جديدة إلى السودان بما في ذلك أنواع من الحوامض والبطيخ الأحمر والقمح الصلب والتبغ وقصب السكر، وكذلك تحسين المزروعات التي كانت موجودة عن طريق تنظيم الدورة النباتية، وإختيار الأماكن الصالحة لكل نبتة وإستخدام السماد الحيواني المركب، وضمن هذا المجال

---

[1]- محمد رزوق، **العلاقات العربية الإفريقية في القرن السادس عشر**، مجلة المؤرخ العربي، بغداد، العدد 31، 1987. ص 110.

نذكر الأعمال الهامة في ميدان الري وشق القنوات وتحويل روافد نهر النيجر التي أنجزها المغاربة، و لم يمر على مجيئهم إلى تنبوكتو سوى بضعة أشهر[1].

[1]- محمد رزوق،المرجع السابق، ص 111.

الفصل الرابع

الوجود الثقافي والفكري المغربي ببلاد السودان الغربي

تمهيد:

لقد دخلت المؤثرات العربية الإسلامية إلى السودان الغربي بصورة رئيسية من الشمال الإفريقي، عبر الصحراء الكبرى، وسهل تقدمها وتوسع رقعتها في تلك البقاع تصاعد النشاط الثقافي والتجاري، وإزدهار طرق القوافل التجارية بين شمال القارة وجنوبها، وأصبح دور العرب المسلمين واضحاً في فتح المراكز التجارية في الأماكن التي إرتادوها، فضلاً عن توثيق علاقاتهم الإقتصادية والثقافية مع الأهالي السودانيين، الذين وجدوا منهم ترحيباً وإحتراماً كبيرين لما تحلوا به من صدق وأمانة في تعاملاتهم وتصرفاتهم ويمكن القول: إن الحركة الثقافية في السودان الغربي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين إرتبطت إرتباطاً قوياً بنشاط العرب المغاربة التجاري والثقافي، وإليهم يرجع الفضل في نشر الإسلام والثقافة العربية لدى أهالي السودان الغربي.

المبحث الأول : العلاقات الثقافية بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي.

لم تتأثر قضية التبادل الثقافي عبر الصحراء بما كان يجري من تحولات سياسية في السودان والمغرب معاً في فترة الدراسة، فقد إنتهت مالي كإمبراطورية، وقامت محلها مملكة السنغاي، أما في المغرب فقد برز شرفاء مجاهدون في جنوب البلاد وأقاموا لهم دولة هي دولة السعديين، وأخذت العلاقات السودانية المغربية في العهدين الجديدين أشكالاً إيجابية تمخضت عن إرتباط عضوي سياسي وإقتصادي وحضاري.

1- الحركة الفكرية بين الشمال الإفريقي وبلاد السودان:

توارد على بلاد السودان عشرات من العلماء المغاربة، وإستقبلت جامعة القرويين العشرات أيضاً ممن لمع إسمهم في تاريخ البلدين معاً، وإزدهرت تجارة الكتب وحفلت خزائن مدن السودان بكل ما كان معروفاً من كتب في مختلف الفنون، وبارك الأساكي الحركة العلمية والثقافية العربية وشجعوها واحترموا

العلماء والفقهاء، وأسقطوا عنهم وظائف للسلطنة وغراماتها ومنعوا عنهم ظلم الحكام بحيث كان للأسكيا وحده حق النظر في أية شكوى ضد عالم أو فقيه[1] .

واعتقد أهل السودان الولاية في العلماء ونسبوا لهم الكرامات وكانوا يقيمون الأضرحة لمن مات منهم ويتقدمون بالذبائح إلى تلك المقامات، وسنورد في هذا الجانب مظاهر التأثير المغربي في الحياة الثقافية والفكرية السودانية، مركزين على فئة العلماء، والتعليم والكتب، وكذا الحركة الإصلاحية التي ظهرت في فترة الدراسة.

أ- أشهر علماء السودان الغربي وتراثهم العلمي : سنورد نبذاً عن أهم رجالات العلم في هذه الفترة مستهدفين إبراز الأهمية التي أصبحت للثقافة العربية ولرجالها.

- **محمد بن عبد الكريم المغيلي:** هو محمد بن عبدالكريم المغيلي التلمساني، ولد بمدينة تلمسان عام 790هــ/1388م، من أسرة عريقة تربى في فترة شبابه في "توات" في الصحراء وإنتقل إلى فاس بهدف الدراسة، وكانت له مع علماء فاس مساجلات أخذت شكل الخلاف، وإشتهر بعدائه ليهود توات، أخذ عن الإمام عبدالرحمن الثعالبي، والشيخ يحي بن بدير وغيرهما وأخذ منه جماعة كالفقيه ايد احمد والشيخ العاقب الأنصمني ومحمد عبد الجبار الفجيجي وغيرهم[2].

إرتحل إلى السودان حيث أصبح من أعظم الأساتذة في بلاد "تكدة" و"غاو"وكانوا"، واتصل هناك بالأسكيا الحاج محمد وتذاكر معه في جملة من المسائل الفقهية، وألف في السودان عشرات الكتب والشروح وحشى بعض المؤلفات الأخرى، ذكر صاحب الديباج واحداً وعشرين منها، وأهم تلك المؤلفات: مغني اللبيب في شرح مختصر خليل، واكليل مغني اللبيب، والمنسيات، وأسئلة الأسكيا الحاج محمد وأجوبة المغيلي عليها[3].

كان الإمام المغيلي يميل إلى الدراسة المنهجية التي أبانت عن قدر كبير من سعة الإطلاع، وكما إشتهر بتعدد المدارك، فقد عرف بتعصبه لمذهبه وعدائه لغير المسلمين، ويعود له الفضل في أنه أول من أخضع المعارف الإسلامية في السودان لمحك النقاش وللأخذ والرد، ودفع العلماء والحكام إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة، ووسع دائرة النقاش العلمي بحيث أصبح يشمل مناطق لم تكن العلوم الدينية قد وصلتها على الشكل المنهجي[4]. وكانت له مراسلة مع جلال الدين السيوطي في علم المنطق[5]، كما كانت له

---

[1] - محمد المغربي، بداية الحكم المغربي، مرجع سابق، ص 514.
[2] - مسعود علي، مرجع سابق، ص 138. الهادي الدالي، مرجع سابق ص 203.
[3] - محمد المغربي، مرجع سابق، ص 514، محمود كعت، مصدر سابق ص 73.
[1]- من بين القضايا التي أثارت الخلاف بين علماء السودان تحليل أوتحريم بعض الذميين، والصلاة في الأضرحة، ودفن الأموات في المساجد. أحمد بابا، نيل الإبتهاج ، مصدر سابق، ص 577.
[5] - المصدر نفسه، ص 577.

مراسلات مع محمد بن يوسف السنوسي حول عداء المغيلي لليهود بعد أن قتلوا إبنه بمدينة توات[1]، توفي المغيلي في توات عام 909هـ/1503م[2].

- **صالح بن محمد أندي عمر المعروف بالشيخ العمري:** كان من أهل الفضل والعلم، عرف عند السلاطين بتحقيره لما عندهم، يشفع للمساكين عندهم فلا يردون شفاعته على كل حال، وألف شرحًا على مختصر خليل[3] .

- **أبوالقاسم التواتي** : جاء مع جماعة من علماء وشرفاء تافيلالت بالمغرب، وإبتنى داراً بالقرب من المسجد الجامع كان يستقبل فيه طلبة العلم وقد كان الأسكيا الحاج محمد يصلي وراءه، ويطلب دعاءه، وأنشأ مقبرة تنبكت الكبرى ، وعندما توفي بتنبكت عام 922 هـ كان يوجد بتلك المدينة خمسون عالماً من توات[4].

- **عبدالرحمن بن علي بن أحمد القصري ثم الفاسي السفياني:** ولد بمدينة القصر الصغير على البحر المتوسط وهو شيخ الإمام المنجور أشهر علماء المغرب في بداية عصر المنصور الذهبي، قال عنه المنجور:"هو الفقيه الأستاذ المحدث السند المحقق الرحالة أخذ عن شيخ الجماعة ابن غازي والشيخ زروق بفاس"[5] أخذ علم الحديث بمصر ثم ذهب لبلاد السودان ودخل "كانو"وغيرها فعظموه، ثم عاد إلى فاس سنة 1518م حيث أصبح من علماء جامع الأندلس يدرس الموطأ والكتب الستة المعتمدة في علم الحديث، له عدة تآليف وتوفي سنة 1549م[6].

- **محمود بن عمر بن محمد آقيت:** من مواليد تنبكتو عام 1463م، عين قاضياً وهوابن خمس وثلاثين سنة، وكان يدرس مدونة الإمام سحنون ورسالة أبي زيد وألفية ابن مالك، وكان أول من بدأ بتدريس مختصر خليل وألف في ذلك كتاباً من جزءين، وجادل علماء مصر وناقشهم عندما كان في طريقه إلى الحج عام 1509م، ومن بينهم إبراهيم المقدسي والقلقشندي، وعاد إلى بلاده ليزاول التدريس.[7]

- **عبدالله بن عمر بن محمد آقيت** : كان أستاذاً في ولاته ثم في تنبوكتو، متضلعاً في العلوم الشرعية وكان مهيب الجانب لورعه وزهده، وقوي الحافظة[8].

---

[1] - الهادي الدالي، ص 205. وايضا: وانظر: يحي بوعزيز: **تاريخ إفريقيا الغربية الاسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين**، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر 2009، ص 66-67.

[2] - مسعود علي، مرجع سابق ص 141.

[3] - السعدي، مصدر سابق، ص 36

[4] - نفس المصدر والصفحة.

[5] - مسعود علي، مرجع سابق، ص 141.وانظر أيضاً: أحمد بابا التنبكتي، **نيل الإبتهاج بتطريز الديباج** تقديم عبدالحميد الهرامة، ليبيا 1989 ص 176.

[6] - محمد المغربي، مرجع سابق ص 516.

[7] - المغربي ، نفس الصفحة، السعدي، مصدر سابق، ص 76.

[8] - أحمد بابا، المصدر السابق، ص 161.

- **محمد بن أحمد التكراتي** : اشتهر "بأيد أحمد" كان فقيهاً عالماً محققاً محدثاً، قرأ ببلده على يد الحاج أحمد بن عمر بن آقيت، ثم رحل إلى تكدة فلقي بها المغيلي، وحضر دروسه، ثم ارتحل إلى الشرق صحبة الفقيه محمود بن عمر بن آقيت[1]، ثم دخل السودن حيث رسمه الأسكيا في القضاء، وكان مدرساً في بعض مساجد تنبوكتو، مات عام 1529م وعمره دون الستين[2].

- **مخلوف بن علي بن صالح البلبالي** : درس في ولاته مبادىء العلوم ورسالة أبي زيد في الفقه، وأخذ عن الشيخ عبدالله بن عمر بن محمد آقيت في ولاته، سافر إلى المغرب وحضر بفاس ودرس على يد ابن غازي ثم عاد إلى السودان للتدريس بكانو وكاشنا[3]، حيث كانت له نوازل وأبحاث مع الفقيه العاقب الأنصمني، ثم دخل تنبكت ودرس بها ثم رحل مرة أخرى إلى المغرب، فدخل مراكش ودرس بها ثم عاد إلى بلاده وتوفي بعد عام 940هـ[4].

- **الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت** : كان أكبر الإخوة الثلاثة الذين عرفوا بالعلم في تنبكت، وصفه أحمد بابا بأنه كان فقيهاً نحوياً لغوياً عروضياً بارعاً حافظاً معتنياً بتحصيل العلم، ونسخ كتبه وكتب عدة دواوين، وجمع كثيراً من الفوائد والتعاليق[5].

- **العاقب بن عبدالله الأنصمني المسوفي** : ولد بتوات ودرس على المغيلي في مسقط رأسه وعلى الإمام السيوطي في مصر، ألف أربعة كتب في الفقه، مات عام 1543م[6].

- **محمد بن محمود بن عمر آقيت** : ولد بتنبكت سنة 909هـ، وصفه أحمد بابا بأنه"كان ثاقب الذهن صافي الفهم ومن دهاة العلماء تولى القضاء بعد أبيه فأسعفته السعادة فنال ما شاء الله من دولة ورئاسة.... وكسب من الدنيا عرضاً وطولاً".[7]

- **أحمد بابا التنبكتي** : هو أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن أقيت الصنهاجي الماسني السوداني التكروري التنبكتي[8]، ولد في مدينة تنبكت عام 963هـ/1556م، نشأ في أسرة علمية مشهورة، ويعرف قومه ببني آقيت كانت لهم الصدارة وتوارثوا رياسة العلم مدة طويلة تقرب من مائتي سنة، وقد ترجم لعدد منهم في كتابه نيل الإبتهاج بتطريز الديباج[9].أسهم أحمد بابا في إغناء المكتبة

---

[1] - مسعود علي، مرجع سابق ص 143. السعدي، مصدر سابق ص 39.
[2] - المغربي، المرجع السابق ص 517.
[3] - السعدي، المصدر السابق، نفس الصفحة.
[4] - أحمد بابا، مصدر سابق ، ص 608.
[5] - نفسه ص 137. مسعود علي، مرجع سابق ص 144.
[6] - أحمد بابا، مصدر سابق، ص 353.
[7] - نفسه ، ص 597.
[8] - هو عالم مشهور وردت ترجمته في العديد من المؤلفات والكتب المعروفة والمتداولة، ومن شهرة هذا العالم قامت منظمة الإسيسكو بعقد ندوة علمية عنه بمناسبة مرور أربعة قرون على وفاته، عقدت بمراكش 22-25 صفر 1412ه/2-5 سبتمبر 1991م.
[9] - مسعود علي، مرجع سابق ص 148. يحي بوعزيز ، مرجع سابق، ص 161.

العربية بمجموعة من الكتب والرسائل العلمية والشروح والفتاوى إلى جانب الإجازات العلمية، وهي تدل على سعة علمه وإطلاعه ومعرفته لكتب الحديث والفقه والتاريخ والتراجم، وقد بلغ مجموع ما ألفه 39 كتاباً ورسالة.[1]

لقد نال هؤلاء العلماء وغيرهم الدرجة الرفيعة في المجتمع السوداني، من الحكام إلى العامة، ومع بداية الحكم المغربي للسودان عام 1591م، بدأت حلقة جديدة من الصراع بين السياسيين والعسكريين من جهة، والطبقة المثقفة من جهة أخرى، و لم يكن إجتهاد الحكام المغاربة في الحفاظ على للعلماء على مراكزهم الإجتماعية وعلى التقدير والإحترام بالقدر الذي لا يؤدي إلى إرباك العمل السياسي والإقتصادي، والذي يهمنا هنا هو إنعكاس ذلك التجاذب أو الصراع على الحياة الفكرية وما تركه من آثار عليها.

وقد أوردنا سابقاً النكبة التي تعرض لها علماء تنبوكتو، والتي أدت إلى إنتكاسة علمية وألحقت ضرراً بسيطاً بالحركة الفكرية في السودان الغربي لبعض الوقت، كما حدث من قبل عندما هجر سني علي علماء تنبكتو إلى بير وولاته وقتل منهم من قتل، ولكن الثقافة العربية الإسلامية كانت من العمق والإنتشار بحيث صمدت في الأزمتين معاً وتابعت طريقها بعد زوال الظروف التي كانت معاكسة لها.

لقد أنزل الحكم المغربي ضربة مؤلمة بفئة محصورة ومحدودة من علماء تنبكتو شملت عائلة آقيت الصنهاجية التي كان لرجالها نفوذ في المجتمع السوداني، والتي اتهمت بخلق المتاعب للجيش المغربي، وقد أعدم بعض العلماء والشرفاء مع أتباعهم ونقل أقل من مائة منهم إلى مراكش مصفدين بالسلاسل، وجمعت الكتب والتحف والودائع التي كانت تحويها دور أولئك العلماء ووجهت إلى المغرب أيضاً.

ولقد ساهم أولئك المهجرون في الحركة العلمية بالمغرب، فأخذوا وأعطوا، وألفوا في كثير من الأغراض، ولكن أهم مادة إمتاز بها نشاطهم العلمي هي التراجم[2]، ذلك لأنهم وجدوا من المصادر حول أعلام الإسلام ما لم يكن متوفراً لهم في بلادهم فأعانهم ذلك على إغناء المكتبة المغربية والسودانية بالجديد والطريف في هذا الميدان، وكانت المؤلفات السودانية التي وضعت بمراكش تستنسخ ويتهافت التجار على شرائها لبيعها في السودان.

ب- الكتب والمؤلفات :

---

[1] - نفسه ، ص 150،

[2] - احمد السيد الباز ، الحياة العلمية والثقافية في بلاد السودان الغربي في عهد دولتي مالي وصنغي، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، 1994. ص 149.

إن أهم ما يلاحظ على الحركة الفكرية في السودان بعد مجيء المغاربة هو ظهور مناح وأغراض فكرية متنوعة بعد أن إنحصر العمل العلمي في السابق على النواحي الدينية واللغوية والمنطق. وقد ظهر مؤرخون سودانيون ندين لهم بكل الفضل في أغلب ما نعرفه اليوم عن تاريخ السودان من أمثال أصحاب: تاريخ السودان، وتاريخ الفتاش، وتذكرة النسيان، وبرز كتاب التراجم وعلى رأسهم أحمد بابا، ومؤلفون في الأصول والتفسير والمسائل وعلوم اللغة، وأدباء وشعراء أعطوا للحركة الفكرية دفقاً جديدا ونفساً لم تعرفه تلك البلاد قبل إحتكاكها الواسع بالمغرب.

ولقد أصبح السودان بحق يساهم بالقدر الذي لا ينكر في إغناء الفكر العربي ودفع الثقافة العربية بالنسبة للقارة الإفريقية كلها، بل وأصبحت بعض تآليف علماء السودان تدرس في جامعات المغرب والمشرق، وتصدر للتدريس مفكرون سودانيون بتلك الجامعات أيضاً، وقد ذكر أحد الباحثين أن أستاذاً سودانياً متضلعاً في التفسير كان يعلم تلك المادة في جامعة الأزهر[1].

وقد ظلت مؤلفات العلوم الشرعية وعلوم اللغة أساسية في الحركة الفكرية والعلمية السودانية خلال الفترة التي نعالجها، ورغم ظهور مؤلفات وحواشي وشروح لبعض أمهات الكتب المعروفة فإنه لم يبد عليها إبداع متميز لا من حيث الموضوع ولا في أسلوب العرض والتحليل[2]، ولعل ما كان يظهر على الأعمال الفكرية الشرعية من إلتزام بالقوالب القديمة في النقل والإسناد يرجع في الأساس إلى الحافظة والخوف من التحريف والخشية من ولوج ما يمكن أن يحمل على المؤاخذة والتعنيف، وليس أكثر من المذهب المالكي الذي كان مذهب المغرب والسودان حرصاً على النقل الدقيق والعرض الأمين، ومن هنا صدر تقييم إثر تقييم على المدرسة الشرعية السودانية فاتهمت بالتقصير وبالمعرفة السطحية لأغراض الشريعة[3].

كما ظهرت كتب التاريخ والرحلات بشكل لافت في السودان، ومما ينبغي الإشارة إليه أنه لم يصل إلى علم من إهتموا بتاريخ بلاد السودان منذ القديم أن أبناء تلك البلاد قد وضعوا كتباً مستقلةً في التاريخ أو الرحلات قبل الحكم المغربي، وقد ذكر السعدي في كتابه تاريخ السودان أن التاريخ السوداني لم يكن مدوناً قبله، وكان عبارة عن قصص تروى في الأسمار والمجالس وتتناول حياة الرؤساء مع أبنائهم ووفياتهم، وسير الصحابة والصالحين، ولكن كل ذلك إندثر و لم تعد الأجيال اللاحقة تلقي له بالاً[4].
والأمر الذي لا ريب فيه هو أن فن التاريخ مستقلاً أومشوباً بآداب الرحلات وتراجم الرجال لم تعرفه

---

[1] - Guilley ‘L’Islam dans l’Afrique occidentale’ Paris. 1912, p62

[2] - محمد المغربي، مرجع سابق، ص 521،

[3] - أحمد الباز، مرجع سابق، ص 101.

[4] - محمد المغربي، مرجع سابق، ص 530- 531.

تنبوكتو إلا منذ أواخر القرن السادس عشر، وقد ظهر على التوالي: محمود كعتو وعبدالرحمن السعدي، ومؤرخ مجهول ترك لنا كتاباً قيماً درج فيه على طريقة التراجم.
كما كانت كتابة تراجم الملوك والرؤساء والقضاة والعلماء من أبرز ما إهتم به الكتاب والمؤرخون السودانيون فالحديث عن الماضي كأحد مستلزمات المجالس، وتعلق السودانيين بأنباء البطولات وأخبار العظماء أعطت لهذا الجانب أهميته وأبرزته إلى جانب علوم اللغة والعلوم الشرعية.

أما عن الآداب وفنون الكتابة، فقد وجد المغاربة عند حلولهم بالسودان نمطاً من الآداب شعراً وقصصاً وطرفاً يستمد أصالته من الحكايات الإفريقية وقصص البطولات والحروب، ولكنه لم يكن مكتوباً بل يلقى في حلقات القصاصين بالأسواق ويدار في المجالس، وينقل بالرواية من مكان إلى آخر ومن شخص لأشخاص آخرين، وكانت هناك محاولات سجلت على الورق لم تبلغ شأواً يمكن الإعتداد به، كما لم تتجاوز بعض المدن السودانية[1].

إعتنى السودانيون بإقتناء الكتب وإستنساخها وتملكها،واستوى في ذلك الملوك والعلماء والتجار الذين لم يفرطوا في متعة تكوين خزائن في بيوتهم، وذكر كعتو أن الأسكيا داوود كان سلطاناً مهيب الجانب فصيح اللسان، وإنصرفت همته إلى مهاداة علماء تنبوكتو بالكتب التي كان له نساخ ينقلون له أمهاتها ومشاهيرها، وأصبحت له خزائن من وراء ذلك[2].

ومع إتساع الحركة الفكرية في السودان مع نهاية القرن السادس عشر، وإتساع إستيراد الكتب من المشرق والمغرب وتشجيع الحكم المغربي بعد قيامه بالسودان على الترويج للثقافة العربية، وتوفر الورق[3] وزيادة أعداد المتعلمين، أصبح الكتاب يلاقي رواجاً كبيراً فيقتنيه أكثر الناس للإنتفاع به أو للتبرك والزينة[4]. وكانت أثمان الكتب مرتفعة بالقياس إلى مراكش أوفاس، وأغلى الأثمان كان يدفع في الكتب المغربية مثل المعيار للونشريسي، وأرجوزة المغيلي مع شروحها[5].

وكانت أهم مكتبات السودان الغربي هي تلك التي إمتلكها آل آقيت، فقد إقتنوا معظمها من التجارة ومما كان يجلبه الحجاج معهم من المشرق، ويبدو أن قسماً مهماً منها قد وجهه الباشا محمود إلى المغرب، ولكن تلك الكتب أعيدت لأصحابها أو بيعت وإستقرت في الزوايا والخزائن الصحراوية، وقدر أحمد بابا مؤلفات مكتبته التي كانت أقل من مكتبات أسرته كتباً وأهمية بألف وستمائة مجلد[6]، ونجد في

---

[1] - المغربي، مرجع سابق ، ص 542- 543.
[2] - محمود كعت: **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس** نشر هوداس ودولافوس، باريس 1913م. ص 94.
[3] - كان في فاس كما أوردت المصادر والمراجع أكثر من مائة معمل لصناعة الورق وفي مراكش أكثر من ذلك.
[4] - كعت، المصدر السابق، ص 108.
[5] - Ch .Andre Julien ‘**Histoire d’afrique du nord**’ payot. Paris 1952.T2.P 122.
[6] - أحمد بابا، مصدر سابق، ص 341.

كتب التاريخ السوداني ذكراً للخزائن التي إمتلكها أكثر العلماء من أمثال بوغيوعيو ومحمد بن محمود آقيت. وإعتنى أهل الصحراء بجمع نوادر الكتب في قراهم وواحاتهم مثلما فعل أهل سوس وأهل السودان.

ج- التعليـــــــــــــم :

حظي التعليم في السودان الغربي برعاية كبيرة من الحكام والأهالي نظراً لما كان يتيح لطالبه من مكانة مرموقة في المجتمع بعد تحصيله ولإرتباطه بالمقومات الدينية ولما كان يتمتع به العالم من تقدير وإحترام من الحكام وتقديس من العامة، وقد حظيت تنبكت وجامعتها بسمعة مدوية في العالم الإسلامي مثلما حظيت به فاس، والقاهرة والقيروان[1]، وقد توافد الطلبة على تنبكت من مراكش والجهات السودانية البعيدة.

وكان الطلبة بعد المرحلة الأولى يدرسون الكتب على الأساتذة السودانيين ثم يذهب عدد منهم إلى المغرب الأقصى، حيث يحضرون مجالس العلم بفاس أو مراكش أو القيروان أو إلى مصر والحجاز للدراسة وأداء فريضة الحج، ويجتهد أولئك الطلبة في الحصول على إجازات مكتوبة من بعض أساتذتهم أو على إجازة علمية جزئية أو عامة، لأن ذلك يفتح لهم الأبواب للتدريس أو لشغل وظائف أخرى في بلادهم، وكما كان الشأن في المغرب، فإن الطلبة المغاربة كانوا يلقون المساعدة من تجار المدينة وأخيارها ويقدم لهم الطعام والكسوة من أموال الوقف المخصص لهم أومن صندوق المحكمة الشرعية[2].

وكان أغلب الأساتذة اللامعين من قبيلتي مسوفة وصنهاجة المغربيتين الصحراويتين أو من توات وفاس، أما المعلمون فكان أغلبهم من أبناء السودان، وقد ذكر السعدي:" أن تنبكت ما أتتها العمارة إلا من المغرب سواء في الديانات أوالمعاملات"[3].

والواقع أنه منذ نهاية القرن السادس عشر لم يعد التعليم في الحواضر الإسلامية مقتصراً على الجوامع فقط[4]، ومقصوراً على طبقة من الطلبة المحظوظين الذين كان أغلبهم ينتسب لعائلات العلماء نفسها، فبينما كنا نسمع أن طالب علم أخذ عن والده أوجده أوأحد أقربائه، أصبحنا نلاحظ إختلاف الأسماء وتنوعها، كما أخذت المدارس الأولية مكانتها الثابتة في توجيه الصبيان نحو المراحل الأعلى وبرزت أنواع من التعليم لها صلة بالصناعات وهوالذي كان يؤهل المتدرب على أن يبدع في قطاع من القطاعات

---

[1] - أحمد فتوح عابدين، **الحواضر الإسلامية في غرب إفريقيا في القرنين السادس والسابع عشر**، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، 1989م، ص 256.

[2] - مسعود علي، مرجع سابق، ص 125.

[3] - السعدي، مصدر سابق، ص 21.

[4] - أحمد السيد الباز، مرجع سابق، ص 51.

وينال شهادة تخرج كان يحمل معها لقب "الفا" أو المعلم فتتاح له الفرصة لأن يدخل المعترك العلمي وأن يصبح أستاذاً في فنه[1].

ولعله من المفيد أن نعطي فكرة واضحة عن كل نوع من أنواع التعليم الذي شاع في المراكز الحضارية في السودان الغربي.

- **التعليم الأولي:** هذا النوع من التعليم ينهض بمهمة تدريب الصبية على القراءة والكتابة فعندما يبلغ الطفل السابعة من العمر يعهد به والده إلى "السيد" بقصد تعليمه مبادىء القراءة والكتابة العربية وتحفيظه النصف الأخير من القرآن، ويجتهد في تلقين الصبي الصلوات الخمس ولكن أداءها لا يصبح إجبارياً إلا في سن العاشرة حيث يتعرض الصبي للضرب وأنواع العقاب إذا لم يواظب على تأديتها في أوقاتها ويكون الأب هوالمسؤول عن مراقبة ولده في صلاتي المغرب والعشاء[2].

وكان التعليم في السودان الغربي يبدأ بتحفيظ الصبية القرآن الكريم في الكتاتيب والمساجد التي كانت منتشرة في المدن والقرى، وقد وصفهم ابن بطوطة بحرصهم الشديد على تعليم أبنائهم وتحفيظهم القرآن الكريم، حتى إنهم كانوا يقيدونهم في سلاسل حديد حتى يحفظونه[3]. ومع تحفيظهم القرآن الكريم كانوا يتعلمون مبادىء العبادات والتوحيد وقواعد اللغة العربية ويستعين الصبيان بالألواح الخشبية بصبغة، حيث تزال كتابتها بالماء*.

وعندما ينهي الصبي دراسته على هذا النحو ينتقل إلى مرحلة دراسة أعمق من الأولى.

- **التعليم المتوسط[4]** : تنتهي مرحلة التعليم الأولي عادة بحفظ بعض المبادىء الفقهية وبختم القرآن الكريم كله أوجزء منه وتكون حلقة ختم"جزء الرحمن" مناسبة لتكريم الطفل حيث يخرج من الكتاب مع أفراد عائلته وبقية الصبيان تتبعهم الموسيقى والزغاريد إلى البيت الذي يعد فيه الأب وجبة الطعام.[5]

ولقد كان التعليم بجميع أطواره يجري في المساجد أو الجوامع، وفي نهاية عهد الصنغاي بدأ ظهور الكتاتيب القرآنية، وإتخذت الدور والمخازن التجارية المهجورة كأمكنة لإحتضان الصبيان المقبلين على التعليم الأولي[6]، وإختصت الدور بتعليم البنات في الغالب، فكانت الفقيهات يتولين العناية بهن وحتى

---

[1] - مسعود على، المرجع السابق، ص 126.

[2] - الهادي الدالي، مرجع سابق، ص 163. أحمد فتوح، مرجع سابق، ص 257.

[3] - ابن بطوطة، مصدر سابق، ص 690.

* مازالت طريقة الألواح الخشبية موجودة إلى الآن تستعمل في تدريس القرآن الكريم في معظم مدن وقرى السودان الأوسط والغربي.

[4] - مسعود علي، مرجع سابق، ص 128.

[5] - كعتو، مصدر سابق، ص 180. أحمد فتوح عابدين، مرجع سابق، ص 180.

[6] - احمد السيد الباز، مرجع سابق، ص 51.

ببعض الصبية الذكور[1]. وكان التعليم في القرى الصحراوية كأروان وولاته إجبارياً على الذكور والإناث من أبناء الزوايا أو البيوتات العلمية، فإذا بلغ الصبي سن الخامسة يحفظوه الحساب من الواحد إلى العشرة، فإن تعلم ذلك يدخل الكتاب الملحق عادة بالمسجد ويبدأ دروسه بتعلم الحروف وحف الآيات القرآنية، ثم ينتقل الصبي إلى القراءات أوتجويد القرآن ثم يبدأ في دراسة المتن على شيخه[2]، وكان النظام المتبع في الصحراء هو المشارطة، أي أن المعلم ينال أجره من التمر أو الحبوب أو الحيوان بعد وصول الصبي إلى مرحلة معينة في تعليمه، وقد عرف نظام المشارطة هذا في مدن السودان أيضاً، واختص به المعلمون والشيوخ الصحراويون[3].

- **التعليم العالي وأماكنه :** لم يكن هذا النوع من التعليم الذي كان يتم في الجوامع، قاصراً على الطلبة، بل كان في إمكان المستمعين أن يأخذوا أماكن لهم في الصفوف الخلفية للحلقة[4]، وتحت أعمدة الجامع كانت تنصب كراسي لجلوس الأستاذ وهي أعلى من كراسي الوعاظ والفقهاء، وكان الأساتذة يفتحون باب المناقشة مع طلابهم في النوازل ويمتحنونهم فيما تعلموه في نهاية كل درس[5]، ويعتبر ويعتبر صبرهم على تبليغ أدق المسائل ولجوئهم لأبسط الطرق في ذلك من مستلزمات نجاح الأستاذ وشدة تمرسه بمادة التدريس، وكان بعض المدرسين يطلب من تلامذته تسجيل النقاط الجديدة والأفكار والملخصات فيثبتون ذلك في هوامش الكتاب أو في دفتر خاص[6].

لقد اعتبرت جميع مساجد المدن السودانية أمكنة للتدريس، ولكن شهرة "سنكري أو سنكوري" في تنبوكتو ضاهت شهرة جامعتي القرويين والزيتونة في فاس وتونس، وكان ذلك الجامع بمثابة جامعة لإفريقيا السوداء[7]، ويأتي بعده جامع سيدي يحي(وهو عالم مغربي من سوس وقد بني المسجد في جوار قبره)، ثم جامع "خالد" الذي درس فيه شيوخ التعليم المتوسط في الغالب[8].

ومن هنا نستنتج أن المراحل التعليمية في السودان الغربي كانت متشابهة إلى حد كبير لمراحل التعليم في العالم العربي والإسلامي آنذاك.

أما عن التعليم المهني والحرفي، فإنه يستنتج من الإشارات المقتضبة التي وردت في بعض المصادر التاريخية، ومن أمثلة ذلك ما أورده الحسن الوزان الذي زار تنبكت ووصفها بأنها مدينة عظيمة الشأن وفيها الكثير

---

[1] - محمد المغربي، مرجع سابق، ص 550.
[2] - الهادي الدالي، مرجع سابق، ص 165.
[3] - مسعود علي، المرجع السابق، نفس الصفحة.
[4] - الهادي الدالي، مرجع سابق، ص 166.
[5] - احمد السيد الباز، مرجع سابق، ص 85.
[6] - محمد المغربي، مرجع سابق، ص 553.
[7] - السعدي، مصدر سابق، ص 62.
[8] - كعتو، مصدر سابق، ص 38.

من الدكاكين المملوءة بالسلع والبضائع من مختلف المنسوجات والكتب، وفيها عدد كبير من الحياكين والحدادين والجزارين.[1]

أما عن إرسال البعثات العلمية للخارج، فقد حرص ملوك السودان الغربي المسلمون على إرسال أفواج متتالية من الطلاب الأفارقة إلى المنارات العربية الإسلامية في الشمال الإفريقي ومصر، وأهمها: القاهرة، طرابلس، فزان، القيروان، فاس، وغيرها لينهلوا من منابعها ثم يعودوا إلى أوطانهم لينشروا الإسلام واللغة العربية في ربوعها.[2]

د- التصوف والحركة الإصلاحية :

إرتبط التصوف في بلاد السودان بالتصوف الإسلامي العربي منذ بدايته وتأثر بنظريات المتصوفين الأندلسيين والمغاربة منذ عهد الغانيين، وقد تأثرت مناطق السودان الغربية بالرباطات التي أدخل المرابطون فكرها إلى تلك الجهات وغدت الفكرة الصوفية ترتبط بالعمل الجهادي وبالتطلع إلى الحكم لإقامة حكم إسلامي مرتكز على الكتاب والسنة، وفي عهد الماليين تسللت إلى الصوفية عناصر متوسطة العلم إهتمت بالسلوك أكثر من الأفكار، فتحول رجال التصوف إلى أولياء تنسب إليهم الخوارق والكرامات.

وإذا كنا لا نعرف أن كتب الفلاسفة والصوفية قد وصلت جلها إلى السودان وأحدث بعضها ما أحدثه في المغرب من صراعات تمثلت في مقابلات إتسمت بالعنف بين المؤيدين والمنكرين[3]، فإننا نلاحظ نلاحظ مما وصلنا عن الزهاد والنساك السودانيين أن الإنحراف عن مبادىء الصوفية البريئة كان هو القاعدة، ولا شك أن إمعان الشعوب السوداء في تصديق الخرافات القديمة وتسليمها بالخوارق قد ساهم أيضاً في الإساءة إلى المعنى الحقيقي للصوفية، و لم يخل أي مصدر سوداني من تراجم وأحداث تظهر طبقة من الناس بمظهر التبتل والتقشف والزهد، كما أن الحديث عن الربط والزوايا يتردد في تلك المصادر بشكل لا يحمل على الشك بأن الحركة الصوفية في السودان سارت بنفس القوة التي عرفها المغرب وإن بدا عليها نوع من الشذوذ يجده المتصوفة على العموم خروجاً عن الصوفية الحقة[4]. إن حالة الفساد التي التي عمت الطبقة الحاكمة في آخر عهد الصنغاي، ونمو الروح الجهادية ضد النصارى الذين كانوا يحتلون سواحل المغرب والسودان من جهة أخرى، قد أديا في أواخر القرن السادس عشر إلى بروز طبقة من المتصوفة أغلبهم من أصل مغربي نادوا بتغيير المنكر ومساندة المسلمين والإعتناء بالدين ومن أبرزهم

---

[1] - الوزان، مصدر سابق، ص 165.

[2] - أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 206.

[3] - عبدالرحمن السلمي، **الطبقات الصوفية**، مؤسسة دار الشعب، بدون م ن ، الطبعة الثانية، 1998. صفحات متفرقة.

[4] - عبلة سلطان، مرجع سابق، ص 179.

سيدي يحي، والمغيلي وبعض علماء آل آقيت، وكان أولئك المفكرون يتجولون في البلاد داعين إلى مناهضة الكفار وتجنب الفساد والرجوع إلى جادة الشرع. وقد كان للعلماء في نهاية القرن السادس عشر نفوذ كبير على العامة،ولكنهم فضلوا نصح الدولة ودعوتها للإهتمام بالدين. كما أن نظرة السودانيين إلى الزوايا والمريدين كانت نظرة تقديس وتقدير، حيث اتخذت الأضرحة في تنبكتو وغيرها أمكنة للذكر والتهجد والإعتكاف الأمر الذي عارضه المصلحون كما عارضوا تحويل المساجد إلى مقابر، و لم تخل حلقات الذكر في الأضرحة من الشعوذة التي إختلطت بأفكار أبناء القبائل السوداء فنسبت الكرامات للمتصوفة والزهاد.[1]

غير ان الإتجاه العام للحركة الصوفية في السودان لم يتعد السلوك الفردي والزهد في الدنيا والإقبال على الأذكار والإنقطاع عن الناس إلى التدخل في الشؤون العامة، ويعود الفضل لها في نشر التعاليم الإسلامية بين القبائل الوثنية وإدخال اللغة العربية إلى جهات بعيدة، فأصحاب الطرق كالتيجانية والقادرية لعبوا دوراً ثقافياً ودينياً في الجهات التي لم يصلها العلم، أو بقيت بعض قبائلها على الوثنية. وتعتبر الحركة الصوفية بإفريقيا بحق مدرسة حقيقية للإصلاح ولمحاربة الأجنبي، وظلت إلى اليوم تحمل مشعل الثقافة العربية الإسلامية وسنورد نماذج منها لاحقاً.

2- مراكز إنتشار الثقافة العربية الإسلامية بالسودان الغربي:

إن أهم مظاهر التأثير العربي الإسلامي في بلاد السودان الغربي، هو ظهور مراكز عدة للثقافة العربية الإسلامية، وكان للهجرات العربية في العصور القديمة وكذلك التي حدثت بعد البعثة النبوية وإنتشار الإسلام، إما لأسباب تجارية بحتة أو هروباً من السلطة كما حدث في عهد الدولتين الأموية والعباسية. كما إنتشرت اللغة العربية في هذه المناطق بفضل إنتشار الإسلام فيها، وظهر عدد من الفقهاء وعلماء الدين وأئمة المساجد، درسوا في المدارس القرآنية وفي الخلوات وفي الجوامع، ودرست اللغة العربية في جميع مراحل التعليم، هذا فضلا عن إنتقال فن العمارة الإسلامية، من فنون البناء والنحت والنقش على الأبنية، و لم يقتصر التأثير العربي الإسلامي في هذه النواحي، بل تعداه إلى شيوع التأثيرات الإجتماعية كالعادات والتقاليد والفنون الشعبية وغيرها. ولابد لنا من التعرض إلى أبرز مراكز الإشعاع الفكري والثقافي العربي الإسلامي في السودان الغربي، وهي:

---

[1] - السعدي، مصدر سابق، ص 216.

– **تنبكت*** : مدينة عربية إسلامية منذ نشأتها، مؤسسوها هم الطوارق إحدى قبائل صنهاجة الملثمين التي تنحدر من أصول عربية[1]، كانت تعتمد كلية على التجارة مع الشمال، تأسست هذه المدينة عام 1000م، وكانت عبارة عن محلة صغيرة استقر فيها بعض التجار من جني لمتابعة أعمالهم التجارية، وسرعان ما برزت أهميتها بسبب موقعها الجغرافي، عند منحنى نهر النيجر، لذلك أصبح موقعها يتحكم في التجارة النهرية والصحراوية، وعند مهاجمة المرابطين لغانا، أضحت تمبكت أكثر أمناً كمركز تجاري جديد في بلاد السودان الغربي كله[2].

وبسبب الإزدهار التجاري والإستقرار والأمن تحولت شيئاً فشيئاً إلى مركز ثقافي، فازداد فيها طلاب العلم، وكثرت مساجدها، وكان أبرزها مسجد "سنكري" الذي تم بناؤه في عهد منسا موسى عام 1325م، وبلغت هذه المدينة ذروة إزدهارها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين.[3]

زارها الحسن الوزان في القرن الخامس عشر ووصف الحياة فيها بأنها مدينة عظيمة الشأن وفيها عدد كبير من الدكاكين المملوءة بالمنسوجات، وفي سوقها إلتقت البضائع القدمة من المغرب ومصر ومن أوروبا الجنوبية. وأنفس البضائع في أسواقها كانت الكتب والملح والخيول، فالكتب يتم إستيرادها من المغرب ومصر، وكان الإقبال عليها وإقتنائها يدل على المستوى الثقافي الرفيع الذي تمتعت به هذه المدينة.[4]

وكانت اللغة العربية لغة الثقافة والإدارة وهي اللغة الشائعة في التعامل التجاري إلى جانب لغة السنغاي[5]. وعدت تمبكت مركز حركة ثقافية إسلامية، لاسيما وأن علماءها وطلابها كانوا يحظون باحترام كبير من لدن الموسرين فيها الذين ينفقون عليهم، وعلى المدارس التي يدرس فيها القرآن الكريم، وبرز فيها شخصيات علمية عدة منهم أحمد بابا، وعبدالرحمن السعدي، والقاضي محمود كعت. وقد إستمرت المدينة في تراثها العلمي والفكري حتى قدوم الفرنسيين إليها أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

– **مدينة جني** : تسمى "لؤلؤة النيجر"[6]، إرتبط إزدهارها بازدهار تمبكت، فمنذ منتصف القرن الثاني عشر أصبحت جني ثالث مدينة من حيث الأهمية التجارية في السودان الغربي كله بعد تمبكت وغاو، وإحتلت المرتبة الثقافية الثانية بعد تمبكت[7]، وذلك لوجود العدد الكبير فيها من العلماء وطلاب

---

[1] - السعدي، مصدر سابق ص 20.

* تن اسم مكان، وبكتو اسم إمرأة كان قد عهد إليها الطوارق بحراسة بئر كانت في ذلك المكان، واتخذوه مكاناً ومركزاً للإنتجاع بمواشيهم في فصل الجفاف بالسودان، حوالي القرن التاسع الميلادي حيث حفروا بئراً فيه وتكاثرت الآبار بعد ذلك وصار التجار يلتقون في ذلك المكان ثم تحول إلى سوق للتبادل التجاري بين تجار الشمال الإفريقي والسودان الغربي.

[2] - الهادي الدالي، مرجع سابق ص 308. مسعود علي، مرجع سابق ص 105.

[3] - دياب أحمد إبراهيم، لمحات عن التاريخ الإفريقي الحديث، ص 58-59. ابن خلدون، ديوان العبر، مصدر سابق، ج6 ص 201.

[4] - مسعود علي، مرجع سابق، ص 110-111.

[5] - السعدي، مصدر سابق، ص 23.

[6] - دياب أحمد، مرجع سابق، ص 59.

[7] - عبدالقادر زبادية، مرجع سابق، ص 106.

العلم، ومن أشهر علمائها مري حاجا، الذي مارس التعليم بمساجدها في القرن الخامس عشر، ومن أبرز قضاتها محمد سانو والعباس كبي وأحمد طورفو.[1]

– **مدينة نياني** : كانت عاصمة لمملكة مالي[2] وقد إزدهرت بشكل كبير، وخاصة في عهد ملوكها العظام منسا موسى ومنسا سليمان، وقد زارها ابن بطوطة وأشار إلى أنها كانت حافلة بالعلماء والفقهاء وخاصة الذين ينحدرون من أصول عربية، ولقي بها القضاة والخطباء[3].

كما زارها أيضاً، الحسن الوزان في مطلع القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، ووصفها بأنها كانت مسكناً للملك والحاشية وبها مساجد كثيرة وأئمة يعلمون القرآن الكريم وعلوم الدين، وأطلق إسمها على سائر المملكة[4].

– **مدينة غـــــــاو:** وهي المركز الثقافي الثالث، أصبحت عاصمة لمملكة سنغاي منذ عهد أسرة ضياء الأولى، وبلغت ذروة إزدهارها في عهد السيفيين، ووصفت بالمدينة العظيمة، وبها قصور الملك ورؤساء دولته، بلغ عدد دورها سنة 1585م حوالي سبعة آلاف دار، في حين بلغ عدد سكانها حوالي 75ألف نسمة[5]، وتميزت هذه المدينة بتنوع سكانها بين التجار ورجال الدولة أكثر مما كان يتواجد فيها من طلاب العلم والأساتذة.

المبحث الثاني: تأثير الوجود الثقافي المغربي على بلاد السودان الغربي:

تعددت النتائج التي ترتبت عن الوجود الثقافي والفكري المغربي في بلاد السودان الغربي، وهو ما أدى إلى تعميق صلة العناصر المغربية بهذه البلاد بشكل ملحوظ، خصوصاً وأن لهم الفضل الكبير في نشر الإسلام بهذه الربوع، فقد كان للدعاة المغاربة دور هام في وصول الإسلام إلى السودان الغربي، وبشكل

[1] - احمد دياب، مرجع سابق، ص 60. السعدي، مصدر سابق، ص 16.
[2] - ابراهيم طرخان، دولة مالي الاسلامية، مرجع سابق ص 42.
[3] - ابن بطوطة، مصدر سابق، ص 681.
[4] - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 164.
[5] - أحمد دياب، مرجع سابق، ص 60.

خاص منطقتين، الأولى كانت موطن قبائل الولوف والفولانية السودانية، وهي مملكة التكرور، والثانية مملكة ملل وكانت تسكنها قبائل المادنجو.

ونتيجة للدور العظيم الذي قام به دعاة الإسلام بين هذه الشعوب فقد أسلم حكام التكرور في بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي[1]، وفي النصف الثاني من ذلك القرن أسلم الملك المسلماني ملك ملل(التي أصبحت فيما بعد دولة مالي) على يد أحد الدعاة، ولقد صح إسلام هذا الملك فأخذ يدعو له بين أهل مملكته ويحملهم على الدخول في الإسلام[2].

ويمكن أن نجمل هذه النتائج فيما يلي :

1- العناصر المغربية و تأسيس الحواضر الاسلامية:

ساهمت العناصر المغربية في مجال التوسع العمراني بالسودان الغربي، وذلك منذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حين بدؤوا بإنشاء بعض المدن الصغيرة التي مالبثت أن تحولت إلى حواضر زاهرة. ولقد تحقق لها هذا الإزدهار العظيم الذي قام على ركيزتين إحداهما إقتصادية، والثانية ثقافية على يد عناصر بربرية صنهاجية، وأهم هذه الحواضر تنبكت وولاته، وشنقيط.

- **تنبكت**[3]: نشأت هذه المدينة الكبيرة على يد أبناء قبيلة مقشرن، إحدى قبائل الطوارق المنحدرين من مسوفة اللثام المنتسبين لصنهاجة[4]، وكان من عادة أهل قبيلة مقشرن أن يرحلوا لموضع تنبكت في الصيف، ثم يرحلون عنها إلى مدينتهم "أروان" شمالاً في الخريف، وتلك عادة قديمة تداوم عليها القبائل الصنهاجية الرحالة في الصحراء ما بين جنوب المغرب الأقصى والسودان الغربي[5].

ولقد كان شأن مدينة تنبكت كشأن المدن التي أنشأها العناصر المغربية في السودان الغربي، وبسبب موقعها على طريق الحج أصبحت قبلة الصادر والوارد من المغرب والمشرق، وساعد ذلك على عمارة المدينة فسكنها العلماء وطلبة العلم وأثرياء التجار، من كل قبائل صنهاجة وأجناسها وأصبح أهل مدينة ولاته يمثلون أعلى نسبة من الصنهاجيين بعد أن إنتقلوا للعيش في تنبكت.

ظل أهل تنبكت خاضعين لسيادة الطوارق، حتى إستولى عليها السلطان منسا موسى سلطان مالي وذلك سنة 730هـ/1324م[6]، ليستعيدوها مرة أخرى عام 837هـ/1433م، ثم وقعت تحت

---

[1] - البكري، المغرب، مصدر سابق، ص 172.
[2] - البكري، مصدر سابق، ص 178.
[3] - بعد تطرقنا لهذه المدينة سابقاً سنتعرض لتأثير الجاليات المغربية بها ودورها في تطور المدينة فقط.
[4] - السعدي، مصدر سابق، ص 20-21.
[5] - البكري، مصدر سابق، ص 164.
[6] - السعدي، مصدر سابق، ص 7. وأيضاً:
- Ellas N.Saad. Social History of the Timbuktu, Cambridge University, p11.

حكم ملوك السنغاي حيث طردوا الطوارق سنة 837هـ/1468م[1]، ولم ينعم أهل تنبكت بالإستقرار الذي مكنهم من النهوض بمدينتهم إلا في عهد الأسكيا محمد (1493-1528م).

- **ولاتـه** : تعود نشأة هذه المدينة إلى عام 600هـ/1203م، على يد العناصر المغربية التي هاجرت من غانة هرباً من بطش قبائل الصوصو، والراجح أن أغلب هؤلاء المهاجرين كانوا من أثرياء التجار الذين خشوا على أموالهم من السلب و النهب والضياع، فساروا في الإتجاه الشمالي الشرقي من كومبى صالح عاصمة غانة[2]، ونزلوا في قرية "بير"، التي تقع في الشمال الغربي من تنبكت[3]، وكان يسكن "بير" قوم من قبيلة ولاته أحد أفخاذ مسوفة الصنهاجية، والراجح أن اسم المدينة نسب إلى هؤلاء الولاتيين فأصبحت ولاته.[4]

وكانت ولاته حين نشأتها في مجالات الطوارق الممتدة إلى منحنى النيجر[5]، وكانت خاضعة لزعمائهم الذين اتخذوا منها قصراً لإقامتهم، ويؤكد مارمول: أن ولاته كانت مملكة بربرية صحراوية إبان حكم الطوارق لها[6]. فلما إستولى عليها سلاطين مالي جعلوها المدخل الشمالي الرئيسي لبلادهم، فأصبح يتوافد يتوافد عليها كثير من العناصر المغربية المسلمة، وإستقر بها العلماء وأثرياء التجار من كل قبيلة وبلد في المشرق والمغرب[7].

وقد حافظت ولاته على مكانتها التجارية والثقافية حتى أواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، ولكنها أخذت في التقهقر والتراجع في عهد سني علي حيث أصبحت تعاني من الإهمال وماتت فيها جميع الأنشطة الثقافية والتعليمية، وكان ذلك إيذاناً ببدء أمر تنبكت التي إنتقل إليها أهل ولاته وعلمائها وطلابها وتجارها من العناصر المغربية وغير المغربية. فلما إنتهى القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادي كانت ولاته قد تحولت إلى خراب[8].

- **شنقيط**[9] : الراجح أن شنقيط قد أسست على يد عناصر صنهاجية، حيث أصبحت من المدن المأهولة بالطوارق والخاضعة لنفوذ زعمائهم، وكان ينتمي إليها الطوارقي محمد نض حاكم مدينة تنبكت، والذي فوض أمرها إليه السلطان "أكلى"سلطان الطوارق. ذكر السعدي:"محمد نض صنهاجي

---

[1] - السعدي، المصدر السابق، ص 8-9.
[2] - الوزان، مصدر سابق، ص 536.
[3] - أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج6، ص 198.
[4] - الوزان، نفس المصدر والصفحة.
[5] - جبريل ت، **مالي والتوسع الثاني للماندنجو**، تاريخ إفريقيا العام، ج4، نشر اليونسكو، باريس 1988، ص 211.
[6] - مارمول، إفريقيا، مرجع سابق ، ص 198-199.
[7] - عبلة محمد سلطان، مرجع سابق، ص 157-158.
[8] - السعدي، مصدر سابق، ص 65-66.
[9] - معناها عيون الخيل، عبدالرحمن الشوكي، **الحياة العلمية والثقافية في بلاد شنقيط** رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، 1997، ص 3-4 .

من قبيلة آجر أصله من شنقيط، وهوأصل جميع هذه القبيلة"[1]. وقد عرفت شنقيط ببلاد المغافرة نسبة إلى إلى بني مغفر وهم آخر هجرة عربية تلقتها تلك البلاد[2].

2- إنتشار العلوم الدينية و علوم اللغة العربية:

يرجع إلى فقهاء المغاربة الذين إستوطنوا السودان الغربي لسنوات طويلة الفضل في تعريف أهل البلاد العلوم الدينية التي نقلوها ودرسوها لهم، والتي إنتشرت على نطاق واسع في معظم بلدان السودان الغربي، ومما يدل على ذلك كثرة المؤلفات التي تركها هؤلاء العلماء وباتت معروفة ومقروءة من العامة والخاصة، ومتداولة بين أيدي طلاب العلم، ومن النادر أن نجد بين هذه المؤلفات كتاباً واحداً لعالم غير مغربي الأصل، بل إن المناهج والمؤلفات المغربية كانت هي التي تدرس في السودان الغربي حيث كانت كتب المالكية هي المتداولة مثل موطأ الإمام مالك، وكتاب الشفا للقاضي عياض، والمدونة الكبرى للفقيه سحنون، وجامع المعيار للونشريسي، ومختصر خليل، إلى جانب بعض الدروس في رسالة إبن سحنون وألفية إبن مالك[3].

وقد لزم لفهم وإستيعاب العلوم الدينية التي إنتشرت في البلاد السودانية فهم قواعد اللغة العربية، فأدى ذلك إلى الإهتمام بدراسة علوم اللغة العربية ، حتى أننا نجد بين مؤلفات الإمام الفقيه المغيلي، مصنفاً هو مقدمة في العربية[4]. كما أنه وفي ظل الإهتمام الكبير بلغة القرآن الكريم، أن يبرع وينبغ في هذا المجال أيضاً الفقيه "بغيغ" الذي كان قد تعلم اللغة العربية على يد أبيه القاضي "محمود بيغيغ" أبرز أساتذة أحمد بابا التنبكتي، وأكثرهم تأثيراً في حياته[5]. وقد عنى بعلوم اللغة العربية من آل آقيت الفقيه أحمد بن أحمد بن عمر أكبر الإخوة الثلاثة، إذ كان أستاذاً نحوياً لغوياً عروضياً محصلاً بارعاً، ومن الإخوة الثلاثة أيضاً قام الفقيه محمود بن عمر بتدريس بعض علوم اللغة العربية لأهل التكرور، وكذا العالم النحوي أبوحفص عمر بن أحمد آقيت[6].

---

[1] - السعدي، مصدر سابق ص 2.

[2] - جمال زكريا وآخرون، **الجمهورية الإسلامية الموريتانية**، نشرة بحوث تصدرها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة، 1978، ص 4.

[3] - أحمد بابا، نيل الإبتهاج، مصدر سابق، ص 137.

[4] - نفس المصدر، ص 579. يحي بوعزيز، مرجع سابق، ص 152.

[5] - نفسه ص 602. عبلة محمد سلطان، مرجع سابق، ص 161-163.

[6] - الناصري، الإستقصا، مصدر سابق، ج5، ص 129.

إنتقل إلى السودانيين بعد إعتناقهم الإسلام، حب المغاربة لعلوم الدين وعلوم العربية، لأن كثيراً من هذه العلوم وكتبها حملها الأساتذة المغاربة إلى السودان الغربي، كما كانت الكتب التي تدرس باللغة العربية قد كتبت بدقة وعناية، وبأسلوب يفوق كل وصف من الفن والجمال، فأقبل عليها السودانيون وتعلموها، وصارت لغة التخاطب بين المتعلمين، ومنهم إنتقلت لعامة الناس.

3- انتشار المساجد في السودان الغربي:

صاحب إنتشار العناصر المسلمة في مدن السودان الغربي كثرة عدد المساجد، ففي عاصمة غانة الوثنية كان يوجد أحد عشر مسجداً، تحظى برعاية وعناية حاكم غانة الوثني الذي جعل بجوار قصره مسجداً لضيوفه الذين تدركهم الصلاة وهم في زيارته إحتراماً للمسلمين[1].

وكذلك ملك جني "كنبرو" حين أسلم هدم قصره وأقام مكانه مسجداً عظيماً، وكان سلاطين مالي يكثرون من بناء المساجد، وكان مسا موسى يقيم مسجداً في كل مكان تدركه فيه صلاة الجمعة إذا كان مسافراً أو خارجاً عن عاصمته، فأقام مسجداً في مدينة جاو بناه له المهندس أبو إسحاق الساحلي، ومسجداً آخر في تنبكت يعرف بالمسجد الجديد، بالإضافة إلى مسجد سنكري في الحي القديم، والذي أعاد بناء مئذنته أبو إسحاق الساحلي في عهد منسا موسى الذي اشتهر عنه كثرة بناء المساجد والجوامع[2].

4- إنتشار اللغة العربية والخط العربي في السودان الغربي:

كانت للهجرات العربية التي جاءت من الصحراء إلى منطقة النيجر أدوار مركبة، فهي قد ساهمت في نشر الدين الدين الإسلامي وفي زيادة عدد المسلمين الموجودين في المنطقة، كما أنها ساهمت في نشر اللغة العربية ، حيث إنتشرت منهم جماعات في سائر مدن وقرى السودان الغربي، ولقد تعلم السودانيون في المدن التي نزلها العرب، اللغة العربية على أيديهم، فقد كان منهم قراء ومعلمون لهم كتب يدرسونها وكان منهم قضاة ومفسرون[3].

وكان إنصهار العرب في المجتمع السوداني نتيجة الزواج والمصاهرة عاملاً مساعداً على سرعة فهم وإنتشار اللغة العربية، كما أن أهل البلاد من السودانيين كانوا حريصين على تعلم لغة القرآن من أجل

---

[1] - ابراهيم طرخان، دولة غانة الإسلامية، ص 45.
[2] - العمري، مسالك الأبصار، السفر الثالث، ج4، ص 34.
[3] - ابن بطوطة، مصدر سابق، ص 662.

فهمه وحفظه[1]، لذلك عرف كثير من الماليين اللغة العربية، بل كان السلطان منسا موسى نفسه يجيد اللغة العربية، ويكتب بها رسائله إلى الملوك بالخط المغربي[2]، وعموماً فإن اللغة العربية أصبحت لغة التخاطب في كثير من الأحيان[3]، وأصبح بالبلاد رجال متخصصون يترجمون من وإلى اللغة العربية للعامة وللخاصة، إلى حد أنها أصبحت لغة المكاتبات الرسمية.

ولا شك أن مختلف طرائق رسم الخط العربي المنتشرة في الصحراء وإفريقيا الغربية، إنما تجد جذورها أو تنهل من الرسم الموسوم بالخط المغربي. ويبدو أن سبل انتقاله إلى نيجيريا والحوض الأوسط لنهر النيجر، تم انطلاقا من طرابلس الغرب والقيروان، بينما انتقل لبلدان منطقة السنغامبيا[4]من المغرب الأقصى والأندلس مرورا ببلاد شنقيط. و لم يستقر الرسم المغربي بإفريقيا الغربية على حاله، بل خضع واستجاب للحاجيات الروحية والمادية المحلية، فصبغه النسّاخ هنالك بتحويرات فنية خاصة ومميزة.

ويمكننا القول إن أهل المنطقة، استعملوا الحرف العربي مع التغييرات التي أدخلوها، للتعبير عن ثقافتهم الأم، فعلى سبيل المثال استعانت لغات ولهجات الولوف والفلان والحوس بالحرف العربي قبل وصول الأوروبيين للمنطقة، وقبل إدخال الألفبائية الرومانية إليها، وبذلك توفر لنا أدب إفريقي خالص مكتوب بالحرف العربي يعرف بالأدب الأعجمي، وهو بحاجة شديدة للدراسة العميقة، مثلما الأمر بالنسبة لموضوع انتشار استعمال الحرف العربي بإفريقيا الغربية والتطورات التي شهدها رسمه[5].

5- التصوف المغربي وتأثيراته في الحياة الدينية بإلسودان الغربي:

لعب التصوف المغربي دوراً جوهرياً في ربط الشمال الإفريقي ببلاد ماوراء الصحراء، ونقل المؤثرات الحضارية والفكرية في تلك الربوع، ولكن الصوفية الصافية المتهدفة نشر العقيدة الصحيحة، وتوحيد المسلمين للوقوف في وجه المد الإستعماري لم تظهر إلا في وقت متأخر، وقد تسلح المريدون حينئذ بالسيف لمحاربة الأجانب وبالسبحة لمقاومة أهواء النفس والرجوع إلى الجادة، وإذا كانت تلك الطرق قد تأسست في وقت سابق فإنها لم تشهد إزدهاراً وشيوعاً إلا في نهاية القرن السابع عشر، وأشهر هذه الطرق وأكثرها تأثيراً القادرية، التيجانية والإدريسية.

---

[1] - ابن بطوطة، مصدر سابق، ص 673.

[2] - العمري، مصدر سابق، ص 44-46.

[3] - القلقشندي، صبح الأعشى،ج5، ص 298.

[4] - بصفة عامة، فإن منطقة السينغامبيا اليوم، تضم مجموع الدول الواقعة بين نهري السينغال والنيجر، وتمتد أفقيا من المحيط الأطلسي لتشمل عددا من الدول، منها: السنغال ومالي وغينيا وسيراليون وساحل العاج وغانا ونيجيريا والنيجر...الخ.

[5] - A. D. H . Bivar, «The Arabic calligraphy of West Africa», African Language Review, VI (1968), p 3-15

- **الطريقة القادرية**[1] : نسبة لعبدالقادر الجيلاني(471-561هـ)[2]، ولها فروع في اليمن والصومال والهند وتركيا ومصر والمغرب، وفي السودان الغربي كان فرعها يدعى البكائية[3]. دخلت السودان في أواخر القرن الخامس عشر على يد مهاجرين من توات وإستقرت أول ما إستقرت في ولاته، وإنتشرت على يد الشيخ محمد فضيل والشيخ أحمد بامبا.

- **الطريقة التيجانية** : ازداد سيدي أحمد التجاني بقرية عين ماضي بالجزائر عام 1737م، غير أن الفترة الأخيرة من حياته(حوالي 25 سنة)، قضّاها بفاس، حيث أنشأ بها زاويته التجانية، وبها يوجد مرقده وضريحه(ت. 1815) .[4]

انتقلت الطريقة التجانية إلى إفريقيا الغربية، عبر بعض المريدين الشناقطة من قبيلة "إيدّ أُوعْلِ"، نخص بالذكر منهم محمد الحافظ العلوي الشنقيطي (ت.1838م). وكانت العادة الجارية في طلب العلم لدى أهل السنغال وغيرهم من أهالي السودان الفرنسي، الانتقال إلى محاضر العلم الشنقيطية، ثم بعد ذلك يرحلون للمراكز العلمية المغربية. وعبر هذه القناة، عرفت التجانية طريقها الأول بين السودان جنوب نهر السنغال، ومنهم الحاج عمر بن سعيدالفوتي(1794-1864).

على أن الرحلة الحجية للشيخ عمر بن سعيد، وفّرت له بالحجاز فرصة لقاء ومصاحبة أحد أركان الطريقة التجانية، وهو المغربي محمد الغالي بوطالب التجاني(توفي بالحجاز عام 1829م)، حيث صاحبه مدة من الزمن وأصبح من مريديه المخلصين، مما جعل محمد الغالي ينصبه ويعينه خليفة للطريقة التجانية ببلاد السودان. وعند عودة الحاج عمر لبلده، واستقراره بفوت جالون، أخذ يعطي الورد التجاني لأصحابه، وينصب المقدمين عليهم. فشاع أمره في منتصف القرن 19م؛ ثم طمح لتأسيس دولة إسلامية تجانية، عرفت نجاحا كبيرا على المستوى الروحي بالسودان الغربي، لكنها اصدمت على المستوى السياسي بطموحات ومكائد الاستعمار الفرنسي، فضلا عن مناورات الأمراء والزعماء المحليين المنافسين. فانهارت الدولة العمرية التجانية على إثر دخول العسكر الفرنسي للعاصمة: سيـــگو أو سِـــگُ، عام 1892.[5]

وللتجانية مريدون في أقطار إفريقية أخرى، مثل مصر وجمهورية السودان، حيث توجد فروع عديدة

---

[1] - عبدالحكيم قاسم، **المذاهب الصوفية ومدارسها**، القاهرة : مكتبة مدبولي الطبعة الثانية، 1999. ص 177.

[2] - عبدالمنعم الحفني، **الموسوعة الصوفية**، القاهرة: دار الرشاد، الطبعة الأولى 1992.ص 114-115. وأيضاً: حسب الله محمد أحمد، **قصة الحضارة في السودان**، القاهرة: دار الترجمة والنشر، ب س ن. ص 313.

[3] - الحفني، المرجع نفسه ص 269.

[4] - نفسه ص 77.

[5] - B. G. Martin, «Notes sur l’origine de la tarîqa des Tigâniyya et sur les débuts d’al-Hâdj Umar», **Revue des Etudes Islamiques XXXVII** (1969), pp 267-290 .
وأيضاً: جوزيف كي زربو، مرجع سابق، ص 640.

للطريقة.

- **الطريقة الإدريسية**[1]: نسبة إلى الشيخ سيدي أحمد بن إدريس، الذي أمضى معظم حياته خارج المغرب. وقد شهدت الطريقة السنوسية انتشارا واسعا في التشاد والنيجر وشمال نيجيريا ودارفور خلال الربع الأخير من القرن 19م. كما وجدت قبولا في أعالي حوض النيل، بسبب عمل أحد المكّيين من مريدي الشيخ سيدي أحمد بن إدريس، يُدعى محمد عثمان المرغيني. وكان المرغيني قد جال في السودان المصري مدة طويلة بغاية كسب المريدين، ثم أسس زاوية أطلق عليها اسم "الخاتمية"، أصبح لها شأن كبير في الحياة الدينية والسياسيةبالمنطقة.[2]

وغني عن البيان أن النماذج التي استحضرناها، لا تمثل إلا النزر القليل من الروح الصوفية التي فاضت عن المغرب الإسلامي، وتجاوزت حدوده الجغرافية إلى كافة أنحاء العالم الإسلامي، مثلما الحال مع طريقة أبي الحسن الشاذلي(القرن 13م)، التي انتشرت بمصر والمشرق الإسلامي، غير أنها لم تعرف نجاحا واسعا ــ مثل التجانية ــ في دول إفريقيا جنوبي الصحراء.[3]

6- المذاهب الدينية : ونقصد بها المذهبين المالكي والإباضي .

- المذهب المالكي: إنتشر في المغرب كله، وفي حوض البحر المتوسط وإفريقيا السوداء نظراً لأن الحجاج الفقهاء حملوه إلى المغرب عن طريق زيارتهم للحجاز، وكان الإمام يحي الليثي من تلامذة الإمام مالك، وساعدت دواعي سياسية على إنتشار المذهب المالكي، وأهمها موقف الإمام مالك من بيعة العلويين، ومنها تردد المغاربة على مكة والمدينة معقل المذهب المالكي، وأيضاً لمرونته الأصولية، وقد ركز الأدارسة هذا المذهب وعززوه في المغرب بتوليتهم لتلميذ مالك وسفيان الثوري، محمد بن سعيد القيسي المالكي، ويعود الفضل الأكبر في نشر المذهب المالكي بالمغرب كله إلى الإمام سحنون(توفي سنة 240هـ/854م)، كما ركزه في الأندلس يحي الليثي حين ولي القضاء بها[4].

وقد إعتنق المرابطون من أول عهدهم المذهب المالكي، بل إن قيام دولة الموحدين كان نصراً للمالكية في كل من المغرب والسودان الغربي حين دخلوه، قال البكري:" هذه القبائل التي قامت بعد الأربعين

[1] - عبد المنعم الحفني، المرجع السابق ص 210.

[2] - David Robinson, The Holy War of Umar Tall : the Western Sudan in the midnineteenth century, Oxford : **The Clarendon Press**, 1985. pp 55- 56

[3] - Zakia Zouanat, **Ibn Mash ish** : **Maître d'al-Shādhili**, Casablanca : Imprimerie Najah el jadida, 1998. pp 23-24

[4] - الحسن السائح، **الحضارة الإسلامية في المغرب** ، الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1986. ص 290.

وأربعمائة بدعوة الحلف ورد المظالم وقطع المغارم وهم على السنة متمسكون بمذهب مالك، والذي أقر ذلك فيهم عبد الله بن ياسين"[1].

وبرغم محاولة الموحدين محو المذهب المالكي إلا أن العلماء إستمروا في نشاطهم، وكان لهم أثر عظيم في الحفاظ على وجوده بالمغرب والسودان الغربي وأبرزهم القاضي عياض(توفي 1149م) صاحب كتاب "الشفا"، الذي كان من أهم كتب المالكية التي تدرس ويقبل عليها طلاب العلم في السودان الغربي، حتى سقوط دولة صنغي[2].

– المذهب الإباضي: كان مذهب الإباضية معروفاً في السودان الغربي من قبل عصر المرابطين بنحو قرنين، حين دخل البلاد مع التجار الذين كانوا يعتنقونه ويدعون للإسلام على مذهبهم، وكان الإباضية هم أول من قام بالدعوة الإسلامية في السودان الغربي قبل وصول الأعداد الكبيرة من أصحاب المذاهب الأخرى، ذكر الإدريسي أن تجار ورجلان يتجولون في السودان إلى غانة وونقارة وهم إباضية[3]، فلما ساد المذهب المالكي مع إنتشار أمر المرابطين في الصحراء وغانة، كان إنتشاره على حساب المذهب الإباضي، ومع ذلك ظل بعض الإباضية ببلاد السودان الغربي حتى قرب نهاية دولة مالي ولكن في أعداد قليلة سكنت إحدى قرى مالي.

---

[1] - البكري، مصدر سابق، ص 163-164.
[2] - عبلة محمد سلطان، مرجع سابق، ص 182.
[3] - الإدريسي، مصدر سابق، ص 296.


خاتمة

أدى المغاربة دوراً مهماً في التأثير على مختلف جوانب الحياة، السياسية والفكرية والإجتماعية والإقتصادية في السودان الغربي، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، و لم يتوقف هذا التأثير حتى يومنا هذا، بل أصبح بوتقة إنصهرت فيها الثقافة العربية الإسلامية الوافدة، في نوع من التعايش السلمي والإمتزاج والترابط مع الثقافات الإفريقية المحلية، الأمر الذي أدى إلى غلبة الطابع العربي الإسلامي في المنطقة، ويلاحظ المتتبع لحركة التاريخ أن الإتصالات والتمازج والإنصهار العربي الإفريقي قد توج خلال الفترة المؤرخ لها بقيام مملكتي مالي وسنغاي الإسلاميتين، والتي لعبت دوراً أساسياً في حمل مشعل الحضارة الإسلامية في السودان الغربي على مدى ثلاثة قرون.

وإذا كانت الثقافة العربية الإسلامية تسود حالياً في ربوع تلك المنطقة المعروفة جغرافياً اليوم باسم (غرب إفريقيا)، وإذا كانت أعداد كبيرة من الوطنيين الأفارقة ما زالت تدخل أفواجاً في الإسلام، برغم تعرض المنطقة لموجة المد الإستعماري الذي أتى على الأخضر واليابس، وبرغم محاولات التنصير الكنسية، فإن الفضل الأول لهذا التفاعل العميق مع الإسلام وحضارته الإنسانية، إنما يرجع إلى ذلك التأثير والتأثر المتبادلين بين العرب وأهالي السودان الغربي قديماً، لا سيما خلال فترة الدراسة.

ومساهمة في وضع العلاقات العربية الإفريقية في إطارها الصحيح وتنقيتها من بعض ما لحق بها من تشوهات وإفتراءات الأعداء، فإن هذه الدراسة حرصت على إستيفاء معلوماتها من المصادر الأولية والمراجع المهمة التي كشفت بجلاء ووضوح ذلك الدور البارز الذي لعبه المغاربة من شمال إفريقيا في شتى أوجه الحياة السائدة آنذاك في السودان الغربي.

وقد حرص الباحث على توضيح نتائج الوجود المغربي ببلاد السودان الغربي وتأثيره على مختلف جوانب الحياة السودانية، خلال جميع مراحل البحث وأقسام الدراسة، وعموماً فقد توصلت الدراسة إلى النتائج التالية :

أولاً: ترجع علاقة العرب بمنطقة السودان الغربي إلى ما قبل الإسلام، فقد جذبت هذه المنطقة التي تتمتع بثروات طبيعية ضخمة مجموعات عربية من التجار والبدو فمنذ وقت مبكر تقربت تلك المجموعات من الشمال الإفريقي عبر الصحراء الكبرى، التي لم تكن عائقاً لهم في يوم من الأيام.

وبمجيء الإسلام وتوطد العقيدة الإسلامية في الشمال الإفريقي في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، أعطى الإسلام المهاجرين العرب السند الروحي والمادي، فتدفقوا في أعداد كبيرة حتى تخطوا الجنوب الصحراوي ووقفوا عند أبواب حواضر السودان الغربي، وكان لإنتشار الإسلام بين قبائل صنهاجة الملثمين دوراً حاسماً في نقل المؤثرات العربية الإسلامية إلى تلك البقاع.

ثانياً : لقد أثبتت الدراسة أن الإسلام إنتشر في السودان الغربي بالطرق السلمية من خلال حركة الدعاة السلمية، التي قام بها أناس سخروا أنفسهم لهذا العمل الجهادي، عن طريق الموعظة والقدوة الحسنة، سواء كانوا من التجار أو الفقهاء، كما كان لهجرات القبائل العربية الدور الكبير في نشر الإسلام بالمنطقة، إلى جانب الطرق الصوفية التي أدت دوراً مهما إبتداءاً من القرن الخامس عشر الميلادي في الدعوة الإسلامية، وما صاحبها من نقل للمؤثرات العربية الإسلامية من اللغة العربية وغيرها.

ثالثاً : أثبتت الدراسة أن المغاربة بإختلاف إنتماءاتهم وأصولهم ساهموا بشكل كبير في تطوير المنطقة حضارياً وإقتصادياً، وأدخلوا دماء جديدة إندمجت مع السكان الأصليين، وتقلدوا أرفع المناصب الإجتماعية والسياسية، ومازالوا كذلك إلى يومنا هذا، كما تركزوا في أهم المدن السودانية.

رابعًا : كشفت الدراسة تغلغل القبائل العربية بشكل كبير في بلاد السودان الغربي، فقبائل الطوارق مثلاً شكلت ثقلاً سياسياً وإقتصادياً وإجتماعياً يحسب حسابه، وكانت كل مملكة أوإمبراطورية في المنطقة لا تقوم لها قائمة مالم تكسب ود الطوارق.

خامساً: توصلت الدراسة إلى أن المناطق الشنقيطية المعروفة اليوم باسم "موريتانيا" قد تعربت خلال فترة الدراسة، وقد وضح بعض الباحثين والمؤرخين، حيث رأى المنصور أن يرسل إلى موريتانيا والسودان رجالاً كثيرين وخيلاً من عرب "المعقل"و"جشم" أهل الشوكة والنجدة لحراسة ما إستولى عليه جيشه من تلك الديار، ولباه من عرب المعقل قبيلة حسان وغيرها ونزلت عشائر منها في شنقيط، وقد تغلغلت في كل بلدان موريتانيا ومناطقها، وكان ذلك كسباً لموريتانيا لأنهم عرب، حيث أخذت تتعرب من حينئذ أي من أول القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي.

سادساً: بينت الدراسة أنه كان للمراكز التجارية والحضارية الصحراوية دورها المهم في نقل المؤثرات العربية الإسلامية، وذلك بما كانت تقدمه من مساعدة لأفراد القوافل من التجار والحجاج والعلماء وطلاب العلم والدعاة والفقهاء وغيرهم، وكذلك ما كان يقوم به سكان هذه المراكز من نشاط ثقافي وتجاري في بلاد السودان الغربي، حيث شكل سكان هذه المراكز جاليات كبيرة في حواضر السودان الغربي، ومن هذه المراكز توات، سجلماسة، ورقلة، فزان.... .

سابعًا: بينت الدراسة عمق العلاقات الإقتصادية وإزدهار حركة التجارة بين السودان الغربي والشمال الإفريقي، وأهم المراكز التجارية على جانبي الصحراء الشمالي والجنوبي وكثرتها، كما وضحت وجود تنوع في السلع المتبادلة بين السودان الغربي وبلاد المغرب.

ثامناً: أفادت الدراسة أن الطابع الثقافي الذي ساد في السودان الغربي كان مغربي السمات، فكانت المدارس ومراحلها ومناهجها ذات طابع مغربي بدرجة كبيرة، وقد تأثر أهالي السودان الغربي بالمذهب المالكي، المنتشر بشكل واسع في شمال إفريقيا، كما أن معظم علماء المغرب الذين تقاطروا على تلك المنطقة كانوا يتبعون المذهب المالكي، فالجاليات المغربية في السودان إلى جانب إسهاماتها في نشر العقيدة الإسلامية والمذهب المالكي، تركت أثراً واضحاً في تجويد القرآن وهندسة الخط وإعجام الحروف وترتيبها، وقد تركت اللغة العربية آثاراً واضحة في بعض اللغات المحلية السودانية، والتي صارت تكتب بالحرف العربي حتى مجيء الإستعمار الذي عمل على كتابتها بالحرف اللاتيني.

ونتيجة لتأثير الشمال الإفريقي في مختلف جوانب الحياة السودانية نلحظ إرتباطاً وتواصلاً حضارياً بين ضفتي الصحراء، إمتد إلى غاية اليوم برغم محاولات الإستعمار ومخططاته الرامية إلى تشويه العلاقات العربية الإفريقية، من خلال إلصاق التهم بالعرب والمسلمين خاصة فيما يرتبط بتجارة الرقيق، والتأخر الحضاري لبلدان غرب إفريقيا.

وأخيراً أتطلع أن تكون هذه الدراسة خطوة على الطريق الطويل، من أجل تأكيد الهوية العربية الإسلامية لمنطقة السودان الغربي، ومحاولة لشد الإنتباه، ودعوة الباحثين والدارسين وكذا السياسيين وصناع القرار إلى الإهتمام بهذه المنطقة الغنية بثرواتها، المهمة بموقعها الإستراتيجي بالنسبة للمغرب العربي وإفريقيا، والتي جلبت الأطماع الغربية إليها قديما وحديثاً.


الملاحق

ملحق الوثائق :

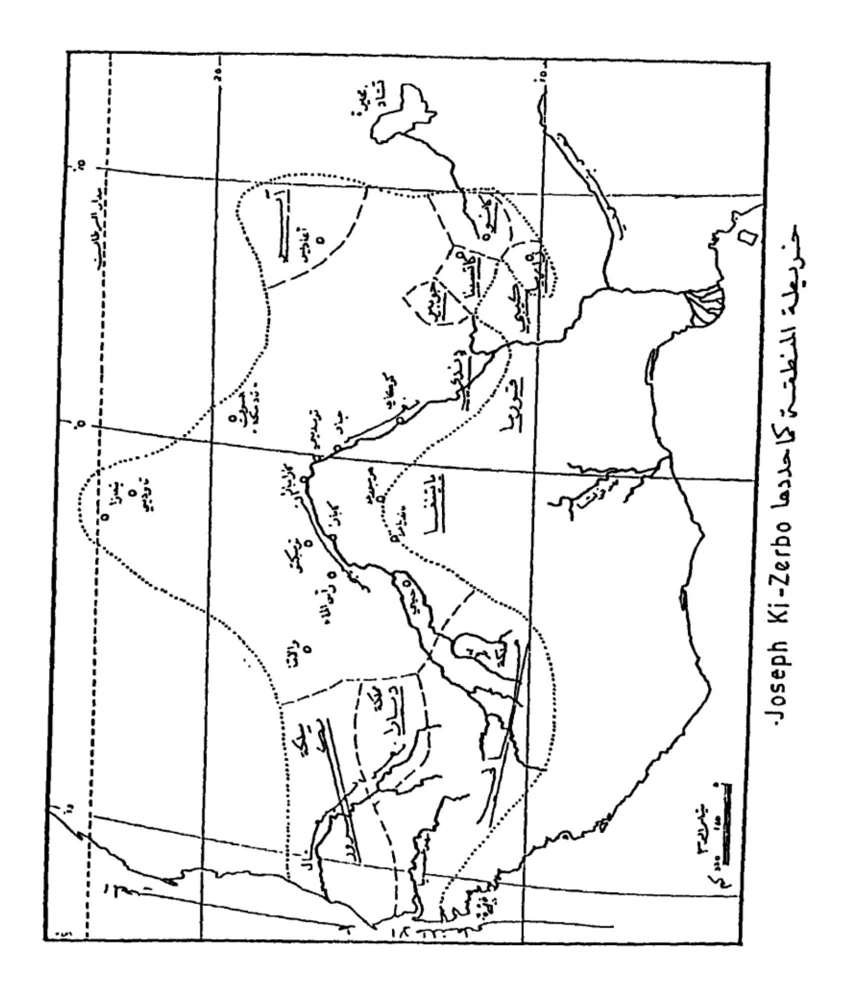
الوثيقة 1: رسالة من السلطان العثماني تنص على جعل الحكم في بلاد المغرب الأقصى في أبناء المنصور الذهبي وذريته :

" إلى حاكم فاس مولاي أحمد حكم: بالرسالة التي أرسلتها مع شخص من طرفكم أثبت بها الإخلاص والمودة لسدتنا العلية، لذلك قررنا منحك حق الحكم ولمن سيأتي من نسلك جيلاً بعد جيل بدون إنقراض، وعممنا هذا الفرمان على سائر ممالكنا المحروسة وحكامها، وبأنك أصبحت من جملة الممالك المضافة إلى ممالكنا المحروسة وأن تعليماتنا بهذا الخصوص شاملة، وما دامت تبعيتكم لمعالينا تعتمد على الصداقة والإخلاص، ولقاء هذا الإخلاص ستحكم البلاد نسلاً نسلاً إلى يوم القيامة. " بلغ الفرمان إلى أوجاق الغرب بتاريخ 23رجب 990هـ. نقلاً عن عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية ص 261.

الوثيقة 2: نص بيعة إمبراطور بورنوكانم إدريس الثالث للمنصور الذهبي السعدي سنة 1582م، وقد قرئت هذه البيعة في مساجد كانم بورنو في شهر محرم 990هـ/يناير 1581م:

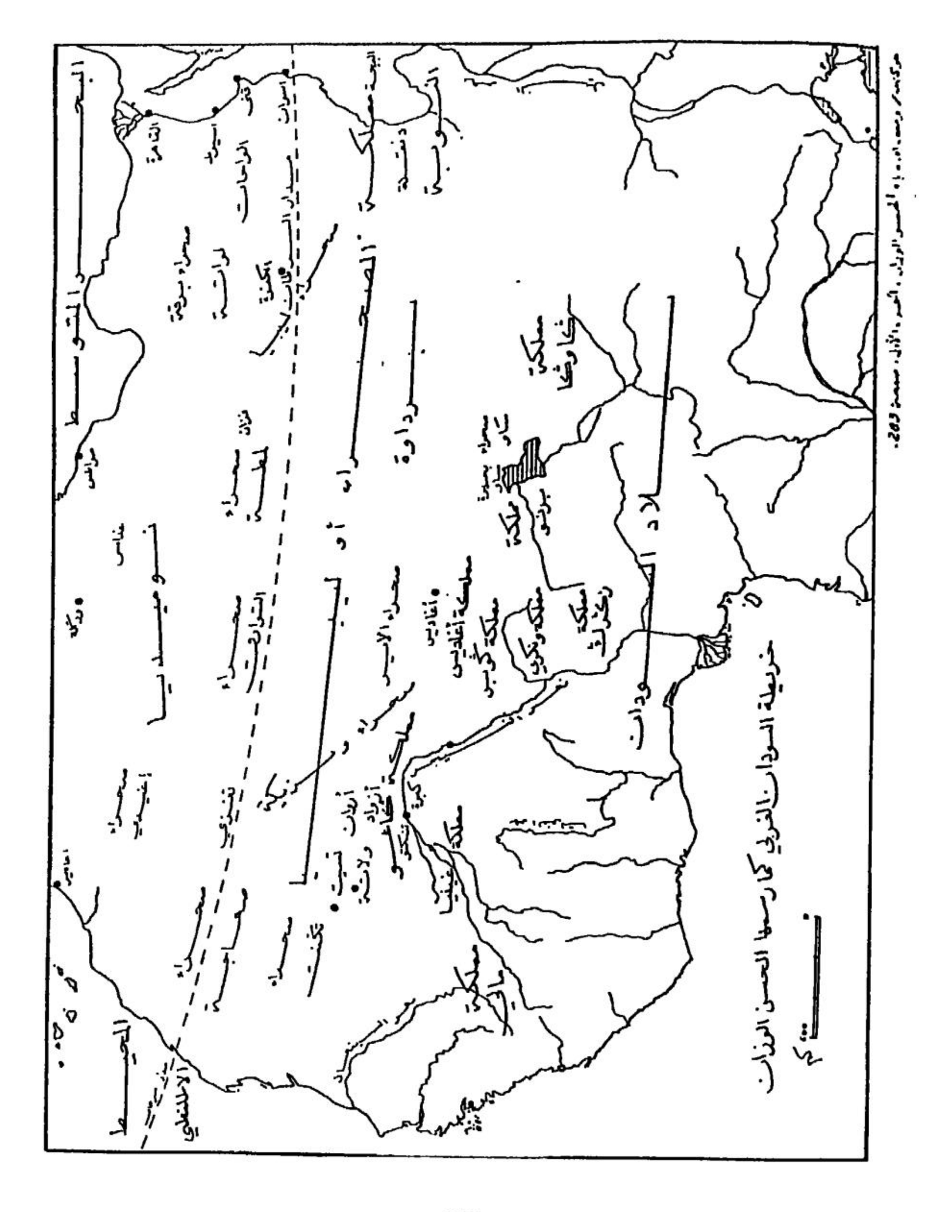
" تدارك الله سبحانه الوجود وأعز العالم الموجود، واستطارت الأنوار المضيئة للأغوار والنجود بطلوع شمس الخلافة النبوية والإمامة الهاشمية العلوية، ففاضت على أديم البسيطة أنوارها وارتفع إلى حيث السما والفر قدين منارها..... والحمد لله الذي اصطفى من هذه الدوحة النبوية الشماء والشجرة الطيبة الهاشمية التي أصلها ثابت وفرعها في السماء أما ما ألقى الله له في القلوب حباً جميلاً، ومولى جعله الله على مرضاته سبحانه علامة ودليلاً، وخليفة استرعاه فكان بحسن الرعي لخلقه وعباده كفيلاً وإنتضى من بأسه وبسالته لحماية حمى الشريعة حساماً صقيلاً... مولانا أمير المؤمنين وخليفة الله في الأرضين وسليل خاتم النبيين ووارث الأنبياء والمرسلين، المفترضة طاعته على الخلق أجمعين والممنون بإمامته المقدسة على العالمين... أمير المؤمنين المنصور بالله مولانا أبا العباس صلوات الله عليه وعلى آله الخلفاء الراشدين..."

المرجع: محمد الغربي: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي. ص 109.



– 360 –

ملحق رقم : 01 ، المرجع : الهادي الدالي، إفريقيا ما وراء الصحراء، ص 360.



- 361 -

ملحق رقم: 02 ، المرجع: الهادي الدالي، مرجع سابق، ص 361.



☆ **مملكة غانا :** بلغت عظمتها وأوج قوتها في مستهل القرن الخامس الهجري .

☆ **مملكة مالي :** وذروة مجدها في عهد الملك (منسى موسى) .

☆ **سلطنة الفونج :** في السودان الشرقي ، امتدت ما بين الشلال الثالث شمالاً حتى النيل الأزرق جنوباً ، ومن البحر الأحمر شرقاً حتى كردفان غرباً .

☆ المواد والسلع التي كانت تحمل نحو الجنوب : الملح ، الأقمشة ، الخيول العربية ، الجلود المصنّعة ، الأواني الفضيّة ، أدوات الزينة ..

☆ المواد التي كانت تحمل من السودان إلى الشمال : الذهب ، العاج ، الأحجار الكريمة .

نموذج لمسجد في السودان الأوسط (حوض نهر النيجر)

طوارقي يشد الحبال على اكياس من الخوص قبل تحميلها على الجمال

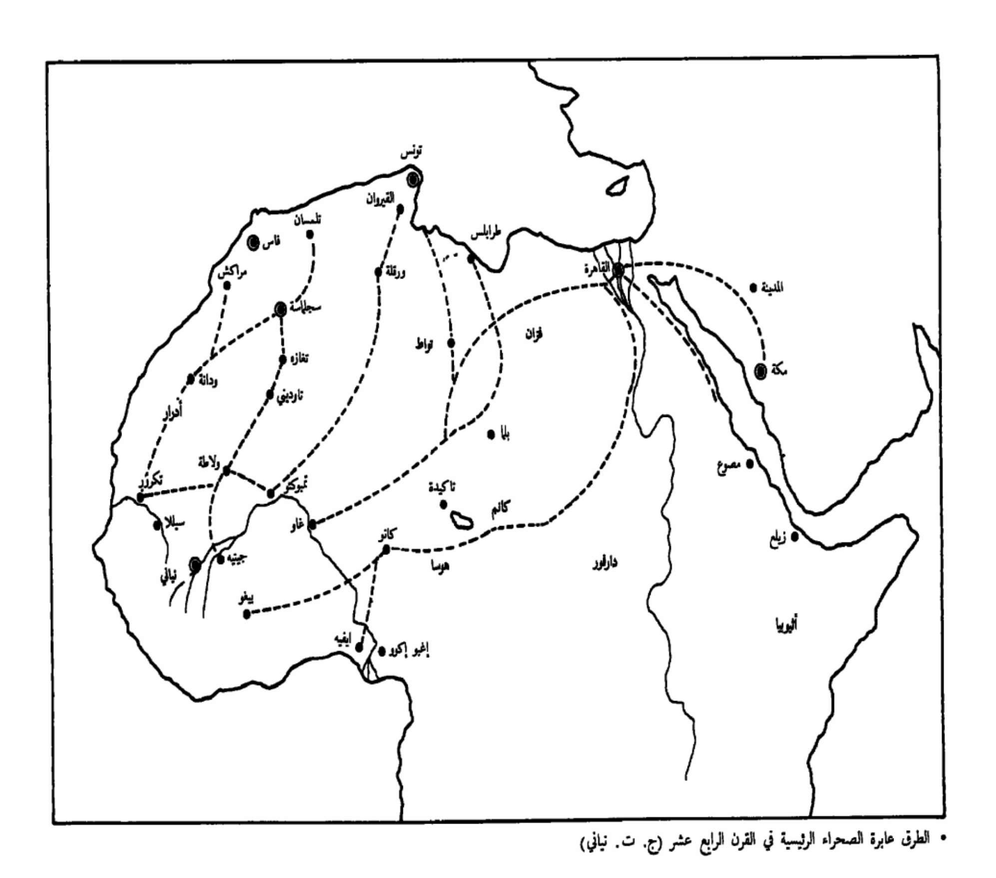
طوارقية تنقّي بذور الدُّخن لإعداد سليق الدُّخن مع التمر

٧٤

ملحق رقم : 03، المرجع : أطلس دول العالم الإسلامي ، لشوقي أبو خليل ص 74.

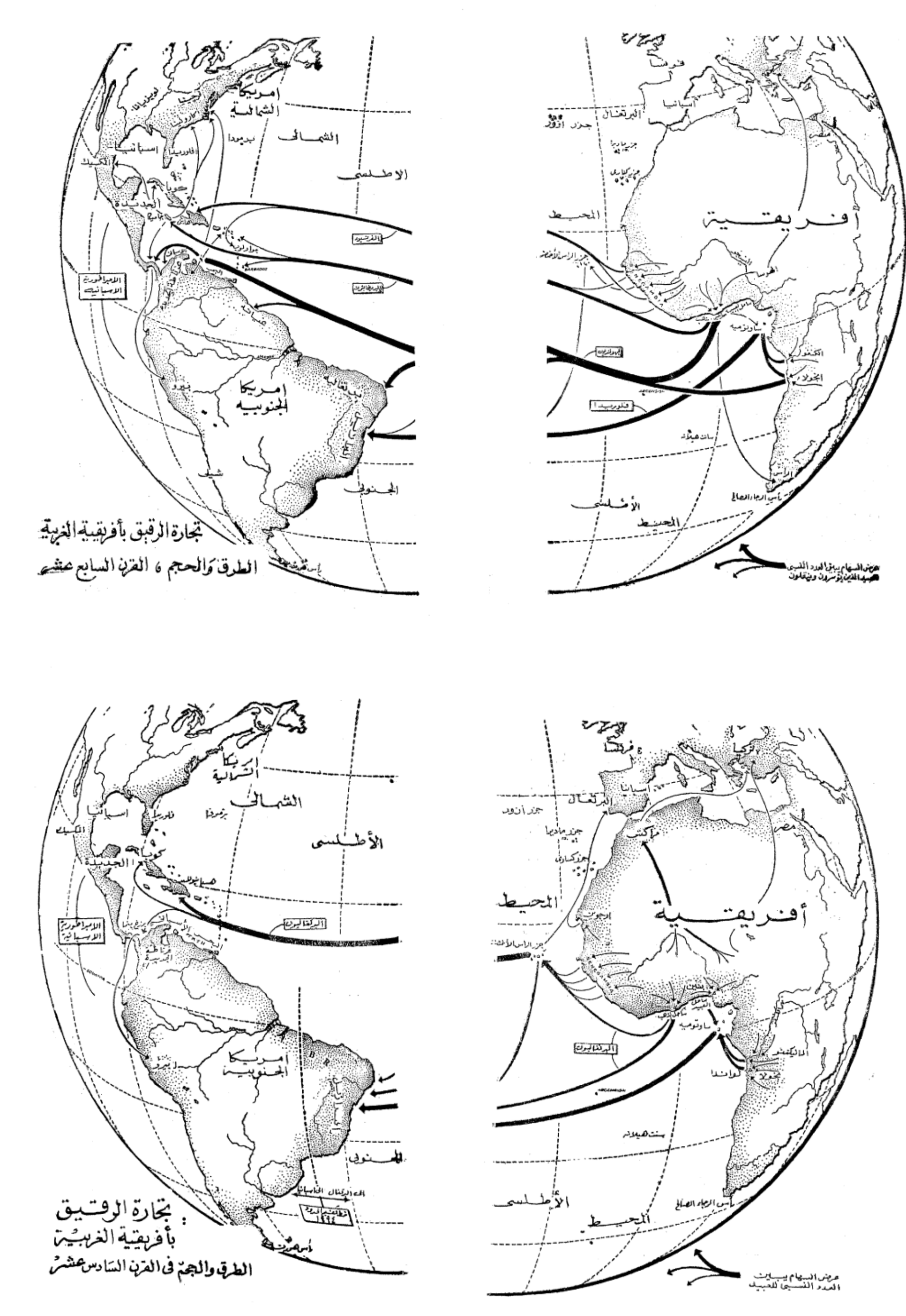


ملحق رقم 04، المرجع : شوقي أبوخليل، أطلس دول العالم الإسلامي، ص204



• الطرق عابرة الصحراء الرئيسية في القرن الرابع عشر (ج. ت. نياني)

ملحق رقم 05 ، المرجع: نياني ج ت ، تاريخ إفريقيا العام، المجلد 4، اليونسكو، 1988. ص

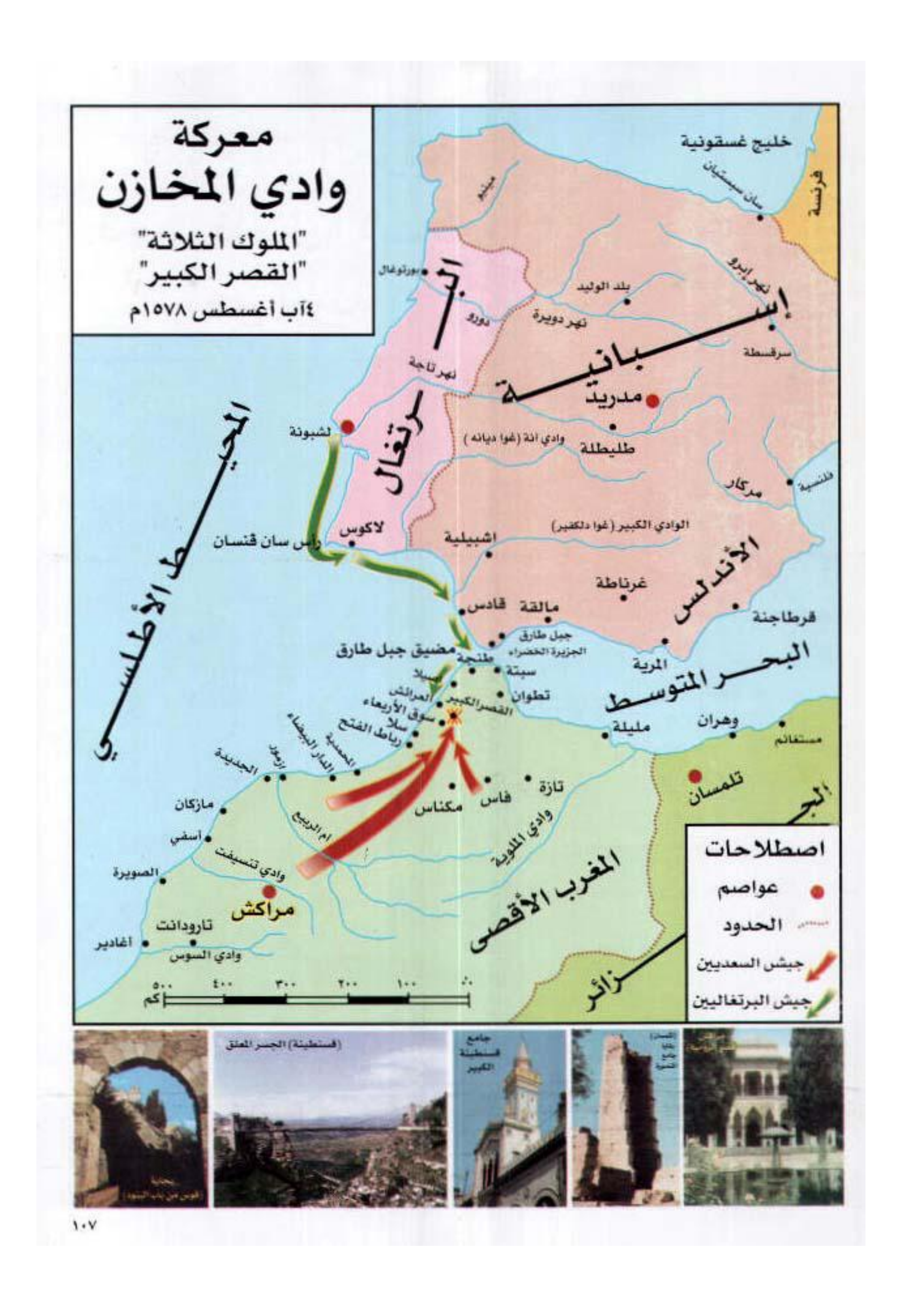


ملحق رقم

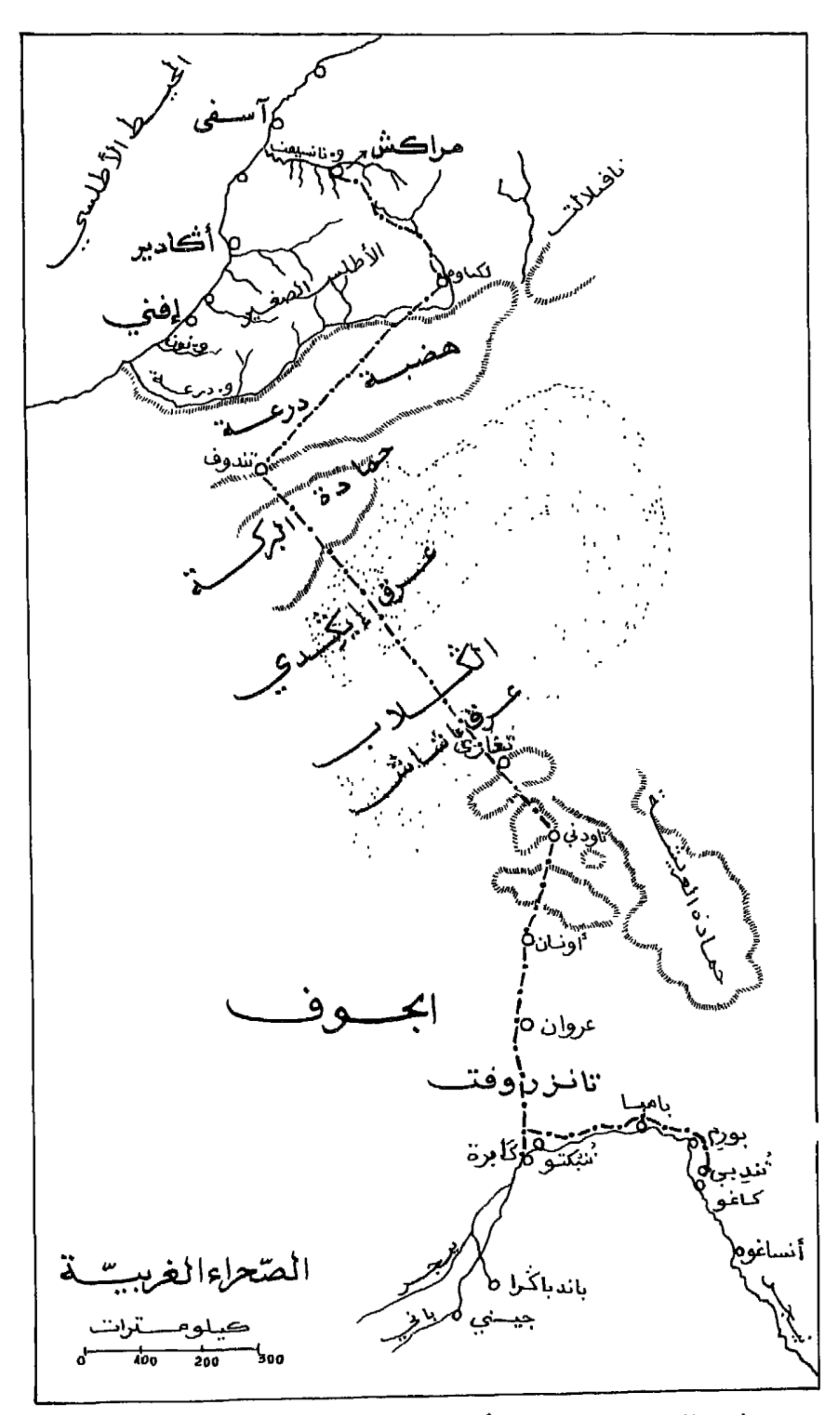
06 ، تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء ص ص 78_ 79.



ملحق رقم 07 ، المرجع: شوقي ابوخليل، أطلس دول العالم، ص 75.

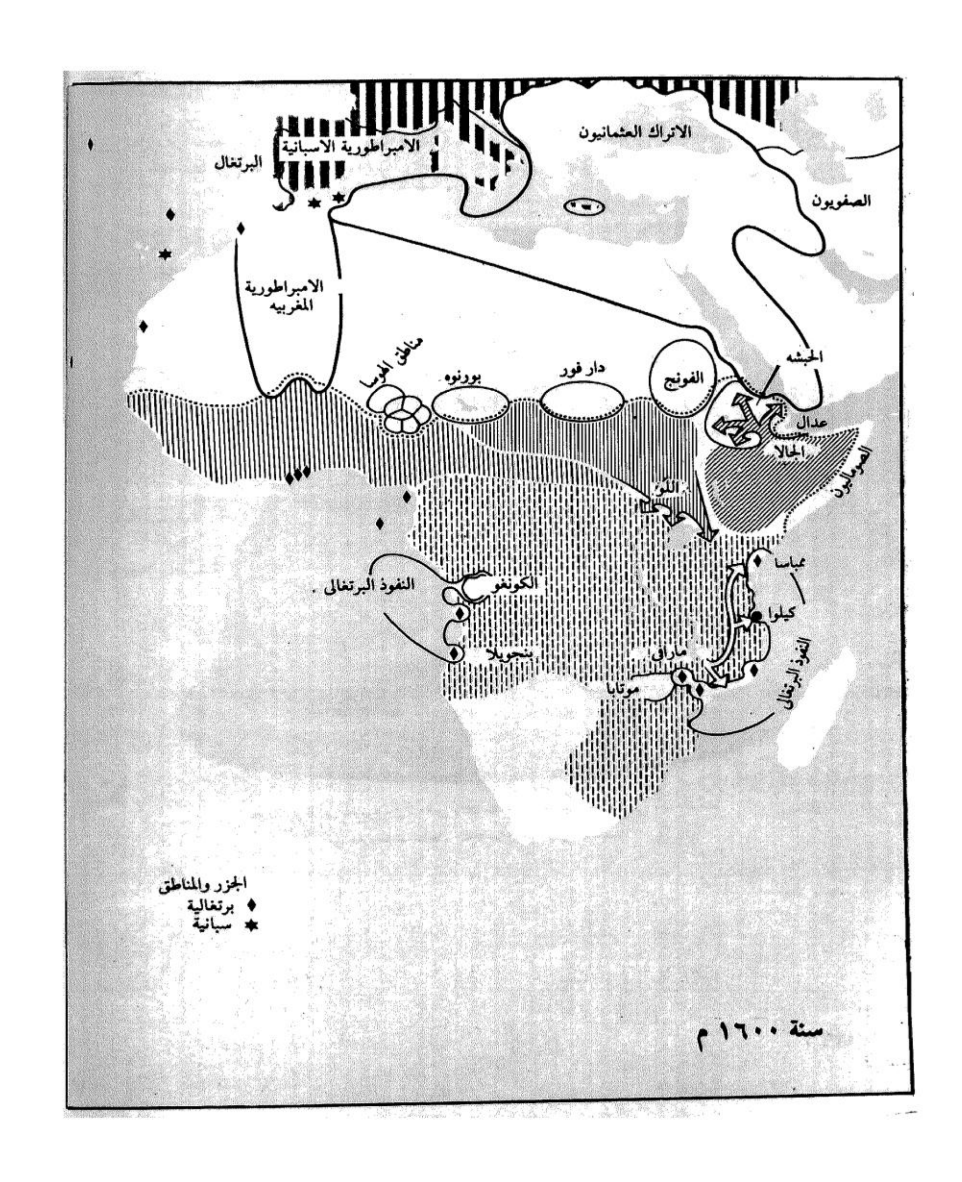


ملحق رقم 08 ، المرجع : شوقي أبو خليل، أطلس التاريخ الإسلامي ، ص 107.



-.-.-. طريق الجيش المغربي من مراكش إلى كاغو 999هـ = 1591م حسب دوكاستري

ملحق رقم 09 ، المصدر: الناصري، الاستقصا، ج5 ص 95



ملحق رقم 09 : الإمبراطورية المغربية في عهد السعديين . المرجع : أطلس التاريخ الإفريقي لكولين ماكفيدي ص135

المصادر والمراجع.

أولاً: المخطوطات:

1 -العمري، ابن فضل الله: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مخطوط مصور بدير الدومنيكان، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية، برقم 806، 1988م.

2 -أبو الأعراف أحمد: إزالة الريب والشك والتفريط في ذكر العلماء المؤمنين من أهل التكرور والصحراء وشنقيط. مركز أحمد بابا رقم 492. تمبكت، مالي.

3 -الأرواني أحمد بابير: الجواهر الحسان في أخبار السودان. رقم 106، مركز الوثائق والمخطوطات بنيامي، النيجر.

4 -مجهـــــــــــــول : ذكر فقهاء تنبكت، مركز أحمد بابا رقم 42. تمبكت، مالي.

ثانياً: المصادر العربية المطبوعة:

1 -التنبكتي، أحمد بابا: نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، تقديم عبدالحميد الهرامة، ليبيا 1989.

2 -الإدريسي، أبي عبدالله محمد: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة لندن 1863.

3 -الإفراني، محمد بن الصغير: نزهة الهادي في أخبار ملوك القرن الحادي،ط2مكتبة الطالب، الرباط 1988.

4 -ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت: دار التراث، ب ت ن.

5 -البكري،أبوعبيد الله: المغرب في ذكر إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ب ت ن.

6 -التونسي، محمد بن عمر: تشحيذ الأذهان بسيرة العرب والسودان تحقيق خليل عساكر ومصطفى مسعد، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1965.

7 -التلمساني، أحمد المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، حققه الدكتور احسان عباس، المجلد7، دار صادر بيروت 1988.

8 -الحسن بن الوزان: وصف افريقيا، ترجمة عبدالرحمن حميدة، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، المملكة السعودية، 1979.

9 -ابن حوقل، أبوالقاسم محمد : صورة الأرض ، مطبعة بريل، لندن، 1938.

10- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد: العبر وديوان المبتدأ والخبر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، 1979.ج 5.

11- ابن أبي زرع، أبوالحسن علي الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ترجمة كارل بوحن نورنبرغ، دار الطباعة المدرسية ، مدينة أوبسالة، 1833.

12 - السعدي، عبدالرحمن: تاريخ السودان، مطبعة انجي، باريس 1980.

13 - بن عبد الحكم، ابوالقاسم عبدالرحمن: فتوح مصر والمغرب، تحقيق شارلز توري، سلسلة الذخائر، القاهرة، د ت ن. الجزء2 .

14 - العمري، ابن فضل الله: مسالك الأبصارفي ممالك الأمصار، السفر4،تح حمزة عباس، المجمع الثقافي، أبوظبي 2002 .

15 - الفشتالي، أبوالفارس عبد العزيز: مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، تحقيق عبدالكريم، نشر وزارة المملكة المغربية، 1977م.

16 - القزويني، زكريا بن محمد: آثار البلاد و اخبار العباد، مكتبة مشكاة، ب ت م ن.

17 - القلقشندي، أبوالعباس أحمد: صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج 5، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1983.

18 - المقدسي، شمس الدين: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة لندن، 1990.

19 - المراكشي، عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق سعيد العريان، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة 1963م.

20 - المسعودي ، مروج الذهب و معادن الجوهر، الجزء الأول . ب ت وم ن .

21 - المغيلي، محمد بن عبدالكريم: أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي، تحقيق عبدالقادر زبادية، الدار الوطنية للنشر، الجزائر 1974م.

22 - الناصري، أبوالعباس: الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الخامس، الدارالبيضاء دار الكتاب، 1955.

23 - كعت محمود : تاريخ الفتاش في أخبار الجيوش وأكابر الناس، باريس 1913.

ثالثاً: المراجع العربية :

24 - الجمل شوقي وابراهيم عبدالله: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، الرياض : دار الزهراء، الطبعة الثانية، 2002.

25 - الجمل شوقي عطا الله، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، القاهرة: مكتبة الأنجلومصرية، 1977.

26 - أحمد حسب الله محمد، قصة الحضارة في السودان، القاهرة: دار الترجمة والنشر، ب س ن.

27 - السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير في العصر الإسلامي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة 1966.

28 -السعيد سعيد بن فايز، الجذور التاريخية للهجرات العربية إلى المغرب العربي، مؤتمر العلاقات بين دول الخليج العربية ودول المغرب العربي، الرياض: مؤسسة الملك عبدالعزيز، 2004.

29 -الغربي محمد، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مكتبة الإسكندرية،2005.

30 -المطوي محمد العروسي، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986.

31 -العسلي بسام، خير الدين بربروس، دار النفائس،بيروت 1980.

32 -الفريد البستاني، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، مكتبة الثقافة الدينية، 2002.

33 - الحسن السائح، الحضارة الإسلامية في المغرب، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط2، 1986.

34 -الغنيمي عبدالفتاح مقلد، موسوعة تاريخ المغرب العربي، الجزء السادس، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1994.

35 -التازي عبدالهادي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور الى اليوم، أكاديمية المملكة المغربية . المغرب 1988.

36 -التكيتك جميلة محمد، مملكة سنغاي الاسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير 1493-1528م، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية.ليبيا، 1998.

37 -الحريري محمد عيسى، تاريخ المغرب الاسلامي والأندلس في العصر المريني، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت 1987.

38 -أبو خليل شوقي، أطلس دول العالم الاسلامي، دار الفكر، دمشق2003.

39 -العربي اسماعيل، الصحراء الكبرى و شواطئها،المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر 1983.

40 -القشاط محمد سعيد، التوارق عرب الصحراء الكبرى، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء، 1989.

41 الجيلالي عبدالرحمن محمد، تاريخ الجزائر، بيروت، 1965.

42 السلمي عبدالرحمن، الطبقات الصوفية، مؤسسة دار الشعب، بدون م ن ، الطبعة الثانية، 1998.

43 الهادي مبروك ، التاريخ السياسي و الاقتصادي لافريقيا . الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1999.

44 بنمليح عبدالإله، الإسترقاق في الغرب الإسلامي بين الحرب والتجارة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط. ب ت ن.

45 بوعزيز يحي: تاريخ إفريقيا الغربية الاسلامية ، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر 2009.

46 ت جبريل، مالي والتوسع الثاني للماندنجو، تاريخ إفريقيا العام، ج4، نشر اليونسكو، باريس 1988.

47 تالي مادينا، تدهور إمبراطورية مالي ، تاريخ إفريقيا العام المجلد الرابع، منظمة اليونسكو، 1988.

48 جمال حمدان، إستراتيجية الإستعمار والتحرير. مكتبة مدبولي، القاهرة. 1968.

49 جمال مسعود وجمعة وفاء ، إفريقيا يراد لها أن تموت جوعاً، دار الوفاء للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، 1991.

50 حسن خضيري أحمد، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ب ت ن.

51 حمدي محمد علي، الكشوف الجغرافية من القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر، مطبعة الجمالية، القاهرة 1913.

52 -حركات ابراهيم، المغرب عبرالتاريخ، المجلد الثاني، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء 1978.

53 دائرة المعارف الإسلامية، الجزءين الرابع والخامس، ليد، 1984.

54 زبادية عبدالقادر، مملكة صنغاي في عهد الأسكيين، 1493-1592،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر دون تاريخ النشر.

55 زبيب نجيب، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس ج2، بيروت دار الأمير للثقافة والعلوم 1995.

56 -زياده نقولا، افريقيات دراسات في تاريخ المغرب العربي والسودان الغربي، رياض الريس للكتب و النشر. ب ت ن.
57 -زغلول سعد عبدالحميد، تاريخ المغرب العربي. ج3. منشأة المعارف ، الاسكندرية 1990.
58 -زيتون محمد، المسلمون في المغرب و الأندلس، مكتبة الاسكندرية 1990.
59 -سليمان عبدالعزيز، تاريخ الشعوب الإسلامية، دار الفكر الإسلامي، بدون مكان وتاريخ النشر.
60 -سامح عزيز، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت 1989.
61 -سعد غيث أمطير، التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي، دار الرواد، بيروت،ب ت ن.
62 -سوادي محمد، طارق بن زياد ، هيئة كتابة التاريخ . الاسكندرية 1988.
63 -شلبي أحمد، موسوعة التاريخ الاسلامي، ج6،القاهرة مكتبة النهضة المصرية، ط5، 1990.
64 -ضيف شوقي، عصر الدول والإمارات، دار المعارف، القاهرة، ب ت ن .
65 - طرخان ،إبراهيم علي: الاسلام واللغة العربية في السودان الغربي والأوسط، القاهرة: الهيئة العامة للتأليف واالنشر 1969.
66 - (ـــــــــــــــ)، امبراطورية غانا الاسلامية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1973.
67 - (ـــــــــــــــ): مملكة مالي الاسلامية ، القاهرة: المكتبة العربية، 1975.
68 - ظاهر جاسم، إفريقيا ماوراء الصحراء، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة 2003.
69 - عامر محمد علي وفارس محمد خير، تاريخ المغرب العربي الحديث ، مديرية الكتب الجامعية، جامعة دمشق، ب ت ن.
70 - عبدالحليم رجب، الإسلام والدول الإسلامية في السودان الأوسط، الموسوعة الإفريقية، المجلد 2، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، القاهرة، 1997.
71 - علي مسعود عمر، تأثير الشمال الإفريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي،جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس 2003.
72 - عوض محمد محمد، الشعوب والسلالات الإفريقية ، القاهرة 1966.
73 - قاسم عبدالحكيم، المذاهب الصوفية ومدارسها، القاهرة : مكتبة مدبولي الطبعة الثانية، 1999.

74 - كحالة عمر رضا، معجم قبائل العرب القديمة و الحديثة ، الجزء الأول، الطبعة الثامنة، مؤسسة الرسالة، بيروت 1997.

75 - مراد عدنان، المجتمعات الافريقية اصولها و تاريخها، مطبعة إتحاد الكتاب العرب، دمشق 1995.

76 - مجموعة من الأساتذة، أطلس العالم ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ب ت ن.

77 - نوار عبدالعزيز و جمال الدين محمود، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب لعالمية الثانية، دار الفكر العربي، 1999.

78 - نياني ج ت ، تاريخ إفريقيا العام، المجلد 4، اليونسكو، 1988.

79 - ياغي اسماعيل وشاكرمحمود. تاريخ العالم الاسلامي الجزء الثاني قارة افريقيا .دار المريخ للنشر. الرياض 1993.

80 - يحي بوعزيز، "طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوروبيون خلال القرن التاسع عشر" تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر"، بغداد: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، 1984م.

المراجع المعربة :

81 - ارفنغ واشنطن، أخبار سقوط غرناطة، ترجمة هلاني يحي نصري، مؤسسة الإنتشار العربي، بيروت 2000.

82 - سيسوكو س م، الصنغي من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر، تاريخ إفريقيا العام، المجلد4، اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1988.

83 - كي زربو جوزيف، تاريخ إفريقيا السوداء، القسم الثاني ، ترجمة يوسف شلب الشام، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، 1994.

84 - ماكيفيدي كولين، أطلس التاريخ الافريقي ترجمة مختار السويفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، 1987.

85 - لانجي ديرك ، ممالك تشاد وشعوبها، تاريخ إفريقيا العام المجلد الرابع، اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1988.

86 - ويدنر دونالد، تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة راشد البراوي، القاهرة: مكتبة الوعي العربي، 1962.

87 - وولتر رودني، أوروبا والتخلف في إفريقيا. ترجمة أحمد القصير، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 1998.

رابعاً: الرسائل الجامعية :

88 - الباز أحمد السيد، **الحياة العلمية والثقافية في بلاد السودان الغربي في عهد دولتي مالي وصنغي**، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، 1994.

89 - إلياس أحمد حسين، **الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس عشر كما عرفها الجغرافيون العرب**، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، غير منشورة، جامعة القاهرة: كلية الآداب، 1977م.

90 - الشوكي عبدالرحمن، **الحياة العلمية والثقافية في بلاد شنقيط**، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، 1997.

91 - حسن عامرأحمد، **دولة بني مرين تاريخها وسياستها اتجاه مملكة غرناطة الأندلسية والممالك الإسبانية**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح فلسطين 2003.

92 - سلطان عبلة محمد، **العناصر المغربية في السودان الغربي**، رسالة دكتوراه غير منشورة ،معهد البحوث و الدراسات الافريقية جامعة القاهرة ، 1999.

93 - عابدين أحمد فتوح، **الحواضر الإسلامية في غرب إفريقيا في القرنين السادس والسابع عشر**، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، 1989م.

خامساً: بحوث ودراسات:

94 - رزوق محمد،"العلاقات العربية الإفريقية في القرن السادس عشر"، مجلة المؤرخ العربي، بغداد، العدد 31، 1987.

95 - (ـــــــــ)، "الرق بإفريقيا" مجلة البحوث التاريخية. العدد 2، ليبيا، 1986.

96 - زكريا قاسم جمال، "كتاب وصف إفريقيا وتاريخها للحسن محمد الوزان"، حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة مج 11، 1968م.

97 - زكريا جمال وآخرون، "الجمهورية الإسلامية الموريتانية"، نشرة بحوث تصدرها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1978.

98 - سيد فليفل، "الخلفية التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية عبرالصحراء الكبرى"، ندوة العلاقات العربية الإفريقية، جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس 1999.

99 - يوسف فضل الله، الجذور التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ، بحث مقدم لندوة العرب وإفريقيا. مركز دراسات الوحدة العربية ومنتدى الفكر العربي. بيروت 1987.

سادساً: المراجع الأجنبية :

1- Andre Julien Ch . ‘Histoire d’afrique du nord’ payot. Paris 1952.T2.
2- Ellas N.Saad. Social History of the Timbuktu, Cambridge University.
3- Jonson. H , A history of the Colonization of Africa by alien Races, Combridge.1913.
4- Guilley ‘L’Islam dans l’Afrique occidentale’ Paris. 1912.
5- Robinson David, The Holy War of Umar Tall : the Western Sudan in the midnineteenth century, Oxford : The Clarendon Press, 1985.
6- Yakoula-Dupuis ‘industries et principales professions des Habitants de la region de Tambouctou - Paris 1921.
7- Zouanat Zakia, Ibn Mash ish : Maître d’al-Shādhili, Casablanca : Imprimerie Najah el jadida, 1998.

سابعاً: دوريات أجنبية :

8- Bivar, A. D. H. «The Arabic calligraphy of West Africa», African Language Review, VI (1968).
9- B. G. Martin, «Notes sur l’origine de la tarîqa des Tigâniyya et sur les débuts d’al-Hâĝĝ Umar», Revue des Etudes Islamiques, XXXVII (1969).

الفــــــــــــهارس

أ) فهرس الأماكن:

ب) فهرس الأجناس والقبائل :

ج) **فهرس الأعلام :**

خطة البحث :

الفصل الثالث: الوجود الإقتصادي والتجاري المغربي ببلاد السودان الغربي

الفصل الرابع : الوجود الثقافي و الفكري المغربي ببلاد السودان الغربي

خلاصة :

شكل المغاربة الوافدون من الشمال الإفريقي إلى بلاد السودان الغربي (غرب إفريقيا) عاملا أساسيا في نقل المؤثرات الحضارية إلى تلك الربوع، و لم تقف الحواجز الطبيعية حائلا دون الاختلاط الفكري والسياسي والثقافي والديني، بالإضافة إلى التعاون والتبادل الاقتصادي والتجاري بين ضفتي الصحراء، مما أدى إلى تطور وازدهار العلاقات المغربية السودانية على مر العصور وفي مختلف المجالات.

وكان لذلك نتائج عديدة أبرزها غلبة الطابع العربي الإسلامي في بلاد السودان الغربي وانتشار اللغة العربية والمذهب المالكي، والتيارات الصوفية السائدة في بلاد المغرب، خاصة في فترة الدراسة، كما نلحظ تأثرا واضحا للمغاربة الوافدين إلى بلاد السودان الغربي بالمجتمع السوداني.

Summary:

The Maghribians coming from North Africa to the western Sudan principal factor in the transformation of civilian influences to those areas. The natural barriers didn’t also stop intellectual, political, cultural and religious mixture as well as the economic and commercial exchange and trade between the desert-sides.

Consequently, this led to the develepment and the prosperity of maghrebian Sudanese relationships throughout the age and in defferent fields. This has had several results highlighted the predominance of the arab-islamic character of the country in the western sudan and the spread of the arabic language and doctrine of al-maliki and the prevailing currents of sufism in the maghreb, particularly in the study period, we also notice that the maghrebian comers to western sudan were clearly effected by sudanese society.

Conclusion :

Les maghrébins dont leur origine s’étend de l’Afrique du nord jusqu'à l’ouest soudanien ont constitué un facteur clé dans les influences de la civilisation de ces régions ; les barrières naturelles ont été jamais un barrière entre le mélange intellectuel, politique, culturel, et religieux ainsi que la coopération et les échanges économiques et commerciaux entre les deux côtés du désert, qui conduit à l’élaboration et la prospérité des relation Maroc –soudaniennes à travers les âges et dans différents domaines.

Cela a eu plusieurs résultats mis en évidence la prédominance du caractère arabo-islamique dans l’ouest soudanien et la propagation de la langue arabe, et la doctrine d’al-Maliki et les courants dominants du soufisme dans le Maghreb, en particulier dans la période d’étude.

Nous voyons que les maghrébins venus à l’ouest soudanien ont été clairement affectés par la société soudanienne.